خضراء كالمستنقعات

هاني الرّاهِب



دار الآداب


خضراء كالمستنقعات

خضراء كالمستنقعات

رواية

هاني الراهب

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩٢

(١)

عندما تفوّه أبو بشير بتلك الكلمات غير المتوقّعة، تذكّرت أشياء كثيرة. لقد قال شيئاً تخالطه الدعابة عن تعمّدي الانفراد بأم بشير ساعة أكون في بيتهم. ثم ختم حديثه بدعابة ثانية: «وإلا سأقول إن الست سلمى امرأة تقليدية».

امرأة تقليدية! أنا امرأة تقليدية!

كانت مناسبة لأن أسأل نفسي ماذا أنا حقاً، لو بإمكاني فقط أن أعرف متى بدأ هذا الحصار،فلربما أمكنني الجواب. من أين جاءت هذه الأساور كلها التي طوّقت بكل ثقلها حياتي حتى شلّت حركتها؟

وجدتني أتذكر أنني كنت طفلة سعيدة. أحبّني أبي حبّاً كبيراً وساواني بأخي عبودة وكانت أمي تثور عليّ لاصطحابي إخوتي إلى النهر، كان هو يقف ضدها بحزم: «خلي الأولاد على حريتهم». ولم يكن ليكترث بعجيجها وبربرتها ما دام أنهما لم يتجاوزا حدود هيبته. وقد دفعه حبه لي إلى التساهل عامين كاملين في تحجيبي.

آه لو بإمكاني فقط أن أعرف متى بدأ هذا الحصار! هناك أسئلة كثيرة عليّ أن أجيب عنها. وخاصة مشكلة هذه الأساور

الخانقة. وسأحاول، مع هذا القلم وهـذه الأوراق، أن أعثر على بعض الأجوبة.

بلبلتني كلمـات أبي بشير. عنـدما شنّ عليّ حملة بسبب تركي للجامعة لأتفرغ للزواج، تفرغت للجامعـة عامـاً كامـلاً حتى تخرّجت. فكيف يشتبه في كوني امرأة تقليـدية؟ أتـراه عرف أسراري؟

اغتنمت أول فـرصـة. حملت عبـد الصمـد معي وجئنـا لزيارتهم. أردت أن أضرب عدة عصافير بحجر واحـد (يا لهذا المثل الفظيع! ضرب العصافير بالحجارة!). أردت أن أطـرد ذلك الخاطر من ذهن أبي بشير نهائياً. وأن أجعل عبد الصمد يسمع الكلام ويتمعّن في أن العالم قد تجاوز حالة الحرملك إلى مسافات فلكية. وأن أعيد الحديث في مشكلة العثور على عمل وموافقة عبد الصمد عليه.

كنت إذن شديدة الحماس وأنا أتكلم لأبي بشير وأم بشير عن أبي، كي يسمع عبدالصمد. قلت إن أبي كان دائماً ملجأ حنوناً لي ومنفذاً واسعاً إلى العالم.

وردّ عبد الصمد بابتسامة عنيدة، وصوت خفيض موجّه إلى أبي بشير: «لكنه مات وأنت محجّبة! لم يقل لك يوماً: اتركي الحجاب!».

فوراً لفحني ضرام داخلي. رجعنا إلى حوار الطرشان. كلما

ظننت أن عبد الصمد ترك أغنية الحجاب هذه، رأيته يستحضرها في أشقّ المناسبات. وها هو مرّة أخرى يحبط مسعاي... ولكن، لا بأس. لقد أكّد موقفه لجارنا موقفي أنا المتقدّم كثيراً على عقلية المرأة التقليدية.

قال أبو بشير: «المهمّ نزع الحجاب عن العقل».

خلال الأسبوع التالي كنت طول الوقت أتساءل: هل أنا نزعت الحجاب عن عقلي؟ كلما جلست في الباص، أو جلست وحدي في البيت، أو مشيت من مكان إلى مكان بحثاً عن عمل، هاجمني السؤال.

لا أحد مثلي يعرف خفايا تلك الحرب التي خضتها لكي أرفع الحجاب عن رأسي وعقلي. فعندما بلغت الثامنة عشرة، حدث أسوأ ما يمكن أن يحدث لبنت في حياتها، توفي والدي. كان حادثاً مفجعاً، ولكنْ غريباً أيضاً. ويومها عرفت فعلاً مقدار القوة الروحية التي أتمتّع بها. كانت ستّ سنوات قد مضت عليّ وأنا منقطعة عن النهر، وحارات المدينة، والبساتين، وكل العفرتات الأخرى. كنت مختفية داخل الحجاب. ففي الثانية عشرة صار لي شكل أنثى. وتعيّن عليّ أن أتحصّن ضد العالم الذي أضحى على حين غرّة خطِراً ومخيفاً وغادراً.

ولكن أين أنا الآن من تلك البنت المستلبة، المغلوبة على أمرها؟

كنت أنتظر الثامنة عشرة ـ تلك السنة المجيدة الرائعة من عمر كل فتاة ـ. أنتظر حصولي على الثانوية العامة لأعلن ولادة ثانية لي، من رحم عقلي وروحي هذه المرّة. فالحجاب كان شرنقةً وكنت أنا سأصير فراشة داخلها، وعندما أبلغ الثامنة عشرة أشقّها وأطلع إلى الفضاء، فالعالم الذي حجبوني عنه كان ينتظرني: بالمغامرة والأمل والحبّ.

وفجأة يموت والدي. كنت أنتظر مساندته لي في دخول الجامعة وترك الحجاب. الاثنين معاً. وفجأت يموت. ويتركني أواجه أخوالي وأمي، والعائلة كلها والبشرية كلها.

آه كم أحب أن أتذكر تلك الأيام! قلت لأم بشير: إن الجميع صعقوا بعد أربعين أبي وقت أعلنت لهم أني سأدخل الجامعة وأنزع الحجاب عن رأسي. لم يكن شعري خارقاً ولا استثنائياً، لا في اللون ولا في الشكل. لكني أردت له أن يشمّ الهواء، ويتشمّس، ويتبلّل بالمطر.

قال أبو بشير: «هذا أجمل إحساس بالحرية سمعت وصفه. لأجل هذا الإحساس، المفروض أن يحب عبد الصمد شعرك. لا لأنه أسود فاحم أو أشقر ذهبي».

ثم دارت المعارك. الكلام سهل. وأسهل منه أن تحكي حكاية. لكن التوترات هي الصعبة. أن تتجرأ بنت، ولم يمض على وفاة أبيها شهران، فتذهب سافرة إلى مديرية التسجيل في كلية الهندسة، وبنفسها تتابع عمليات التسجيل، بلا

مرافق. . . نحن اعتدنا أن نسمع بتحدّيات كهذه ونعتبر القيام بها تحصيل حاصل. لكنه في الواقع ليس تحصيل حاصل. والسبب ليس في الخوف من الخال والعم والأخ. السبب هو الخوف وحسب. الخوف المستوطن. هو الذي يشربك القدمين إحداهما بالأخرى. ليس سهلاً أن تكون شخصية جديدة معاكسة للشخصية التي كنتها وعشتها مدة ثماني عشرة سنة. ليس سهلاً. أنت لا تعرف كيف تكون هذه الشخصية الجديدة. كيف تعيشها. هذا هو ما أعنيه بالمعارك.

طبعاً أمسك أخي عبودة بي ومنعني من الخروج. وطبعاً قاومته. وطبعاً دفعني بعنف داخل البيت. واندفعت إلى الخارج. وأمسك بي ورماني وضربني ورفسني. . . هذا كله معروف ومثله كثير. لكن الذي ليس مثله شيء هو أن مقاومة أهلي جعلتني أصمّم بجنون على تنفيذ أهدافي. لو لم يتدخّلوا هذا التدخّل الجسدي العنيف (الذي شارك فيه أخوالي وعمي مدة أسبوع) لكنت أغلب الظن قد تردّدت أو جبنت في التنفيذ إلى أن فات أوان التسجيل في الجامعة.

كنت ماشية في شارع الأندلس، ورأيت مشهداً ذكّرني بتلك المعارك. رأيت فتى في الثانية عشرة يجر بعنف صبياً باكياً في حوالي الثامنة. وكلما تلكّأ الصغير في مشيته أو تعثّر، جذبه الكبير بعنف أشد، فجعله يزداد تعثّراً وتلكّؤاً، ويزداد نواحاً. كان صوت نواحه يرتفع بشكل يحطّم الأعصاب، وخاصة بنبرة

اليأس المطلق التي ساحت منه. فالنبرة أوحت أن الصبي لا يتوقّع مساعدة من أحد، ولا يمكنه أن ينجو من أخيه، ولا أن يقبل بالذي جعل أخاه يجرّه بهذه الطريقة.

ولم يكن أحد حتى ليلتفت. حتى أنا اضطررت للدخول إلى مبنى وزارة الإسكان لكي أتعقّب هناك أملاً مستحيلاً بأن دولتي ستوظفني ذات يوم.

أنا لم أكن مثل ذلك الصبي. يومها ركبت رأسي وقلت: الحرية أو الموت. لم يكن ذلك الحصار قد بدأ. أو أنه كان هناك ولم يمكنه أن يفرض نفسه علي. لقد جعلت كل واحد يفهم أنهم إذا لم يقفوا حرساً أشدّاء عليّ، فسألبس الملابس التي أريد وأخرج بها. أوشك أخي أن يترك شغله ليتفرّغ لي. وبعد أسبوع أوكل أمري لخالي. وبعد يومين أوكل خالي أمري لأخيه. وبعد يومين آخرين أوكل خالي الثاني أمري لعمي. كان واحدهم يجلس بالباب. يضع كرسياً هناك ويجلس. ولم يكن أمامي سوى أن أرمي نفسي من الطابق الثاني ـ وهذا ما كان مستحيلاً، لأني أكره العنف والمخاطرة.

كان في عمي شيء من طبع أبي المحبّ، ولكن ليس من قوة أبي الروحية التي تزمجر فيه كلما تعرّضت حرية الإنسان للخطر. لذلك اقترح عليّ السماح لي بالذهاب إلى الجامعة والتسجيل في كلية الهندسة، مقابل تعهدي بكلمة الشرف وبرحمة أبي أن أذهب وأعود محجّبة.

سألني أبو بشير إن كنت ندمت فيما بعد على تلك المساومة. قال: «الموقف المثالي هو: الحرية أو الموت. لكن هذا الموقف غير واقعي. لا يطعم خبزاً».

قلت إني فعلاً ندمت. وياما عذّبتني كرامتي الجريحة. رأيت أنهم هزموني نصف هزيمة. ورأيت أن موقفي المبدئي انثلم، وأني تنازلت عن حقي وإرادتي.

كنا جالسين في مكتبه، والساعة تقترب من الثانية. وكنت أتكلم بحميّة وشيء من النشوة، وأنا مسترخية البدن أستريح من دوراني في المدينة بحثاً عن عمل. وكان المراجعون يدخلون ويخرجون، يقطعون حديثي مع أبي بشير فأتابعه مع نفسي، أو أنصت لشكاواهم وقضاياهم التي ما كان لأبي بشير أن يكسب أجورها العالية لو أن كل إنسان اكتفى بما يكسبه وترك غيره يكسب ما يكفيه.

لست أدري لِمَ رفضت أن أعود إلى الحارة في سيارة أبي بشير. أصابني انقباض مفاجىء، ونهضت فودعته. ولأنه لا يمكن يوماً أن يخرج عن طبعه الهادىء، المتخفّف من الإلحاح، فقد ودعني ببساطة وانصرف إلى عمله.

في الشارع أدركت تفسير تصرفي الغريب. تذكرت كلمات قالها وائل بعد حوالي شهرين من دخولي الجامعة: هذه المثاليات والمُثل أفيون لتخدير العاجزين والمستضعفين. وائل

يا وائل! كان الله معك. ست سنوات حتى الآن. ماذا حل بعظامك وبخلايا مخّك؟

كان وائل استكمالاً طازجاً وجميلاً ومدهشاً للعالم المفتوح الذي راح يتكون في وجداني بسرعة مذ دخلت الجامعة. كل البنات كن يحببنه. وبغير أن أعي صرت واحدة منهن. ورحت أحضر جلسات «الكومونة» التي كان هو نجمها الخامد ولكن غير المنازَع. لم يحفل أبداً بأن يضيء كامل ضوئه وغالباً ما كان الضوء الساطع يومض وينطفئ ـ من كاميرته التي يلتقط بها صوراً لنا. كانوا شباباً باعوا بلا ثمن كل ما هيّأته لهم أسرهم من ترتيبات المستقبل العظيم الوطيد، أو شباباً لم يكن لدى أسرهم مستقبل تقدّمه لهم بالمرّة.

في حضوري الثالث لجلسات الكومونة ـ وكانت تعقد إما في كافتيريا كلية الهندسة أو بين أشجارها ـ التفت بشّار إليّ فجأة وسألني: «الآنسة صلعاء، من غير شرّ؟».

ضجّ الجميع بالضحك. لكن ضحكهم انتهى قبل زمن طويل من انتهاء ربكتي وغيبوبة عقلي. كنت النشاز الوحيد بينهم. وعندها تدخّل وائل على غير العادة: «بشّار يري الاطمئنان إلى مستقبله. لأنه لن يجد غير بنت صلعاء تتزوجه».

ضجّ الجميع بالضحك من جديد. كان الاثنان غريبين بالكامل يومها. إذ من قال لهما إني أفكر في الزواج. همست

منيرة في أذني: «قصدهم، لماذا أنت محجّبة؟».

لم يكن احتفاظي بالحجاب خوفاً من أهلي. إنما أنا أعطيت وعداً. وكان شعوري أن وعدي شيء أبديّ ما دامت ذكرى أبي أبديّة.

لكني رأيت شكلي وأنا جالسة إلى جانبهم، وبكل تلك الحرية، والأفق الواسع، والأمل الكبير.. شكلي لم يكن مجرد شكل. كان عائقاً. الملابس هي الشخصية. إلا إذا قبلت البنت الشكل وراحت تتصرف على هواها مستترة به. وهذا ما لا يمكن أن يحدث لي. وبصراحة، كنت أحس بلجمة وانكفاء وأنا جالسة إلى جانبهم - رغم أن أحاديثهم كانت طبيعية تماماً - كنت أحس بأن أغطية رأسي تمنع لغتهم من الوصول السليم إلى أذني، وأفكارهم من الاطمئنان إلى عقلي.. باختصار، لم أشعر فعلاً وتماماً أني معهم.

أما هم فكانوا عالماً مختلفاً عن عالمنا. عالماً هو ما بعد عالمنا الذي شيوعيته جثمان وديمقراطية أفعوان وبلدانه التي في الوسط طغيان بطغيان. عندما جاء عبد الصمد ليخطبني، وقالت أمي: «شوفيه، احكي معه كلمة!». قلت له: إنني أفكر بكل هذه الأفكار، وإني أعتبر نفسي مسؤولة عن العالم أخلاقياً، وإني لن أقبل أن أتحول إلى رقم تديره الآلة الطاحنة لحياة المجتمع البطركي اليومية، ولا نمطها الاستهلاكي المستهلِك.

كان وديعاً ومستبشراً وباسماً. وقال: «أنت حرة في أفكارك. واملأي رأسك بالأفكار التي تريدينها. أنا لا أتدخّل...» ولا أدري ماذا قال أيضاً، لأني لم أعد أسمعه. لم أعد أسمعه.

استعدت وجه وائل الصامت المنتبه، الملتفت بابتسامة دائمة نحو من يتكلم. هو نفسه لم يكن كثير الكلام. يتدخّل فقط ليلقي بتعليق حامض كالذي رماه على بشّار. ومع ذلك، كنت أشعر أني أخاطبه على الدوام، وأننا نتبادل عشرات آلاف الأفكار، وأن كلاً منا يعرف تماماً مخزون عقل الثاني منها.

سألت عبد الصمد: «تريد كلمة نظيفة، مقشّرة، بلا لف ولا دوران؟».

فأجاب: «قولي ما تريدين. أنا أملي بالله كبير». وكان ما يزال وديعاً ومستبشراً وباسماً.

قلت: «إذا كنت تعرف مفهوم المستحيل، وتريد مثالاً على هذا المفهوم، فزواجنا هو المثال».

قال: «يعني نؤجّل البحث في الموضوع إلى وقت ثانٍ». ثم حيّاني مودعاً وانسحب، قبل أن أنفكّ عن انذهالي منه ومن ردّة فعله، ويصير بوسعي أن أتعامل مع اللغة بالفظاظة التي أريد.

تصوّروا رجلاً كهذا. رجل استمر عاماً كاملاً وهو يبتلع معاملتي الرافضة المهينة. وكل مرة كان يردد الأسطوانة نفسها:

لطالما رآني عند النهر وأنا صغيرة ودعا ربه أن أكون زوجته ـ ما دام قد وصل إلى مرحلة طلب اليد، فمؤكد أن الله مستجيب لدعائه.

هذا اللامعقول هو السبب في أني أضعف أحياناً وأشكو همّي لأم بشير. هي أيضاً تشكو لي همومها. لكنها هموم من نوع آخر. فمنذ زواجها لبسها لقب أم بشير الذي هو لزوجها أيضاً. ومرّت الأيام والسنين، وجاءت أربع بنات، وكبرت البنات، ولم يأت بشير. صحيح أن دخل الزوج مريح ـ مريح جداً ـ وبيتهم في البناية مساحته مئتان وثمانون متراً، وابنتهم بشرى فرحة للقلب والعقل في وقت واحد، وبناتهم الأخريات كذلك.. لكن هناء حياتهم تنقصه حيوية، تنقصه لمسة تكمّله.

أم بشير تكبرني بثماني سنوات. وبسبب هذا النقص في حياتها تبدو أعمر مني بعشرين سنة. بل وتبدو أحياناً مثل أمي. رغم أن لها روحاً وثّابة، ويمكن أن تنفعل بقوة للصداقة والجيرة والمعروف. هذا الهدوء. هذا الوجه المبتسم ـ ليس جميلاً جمالاً خاصاً، لكنه قريب إلى القلب بوجنتيه البارزتين وذقنه الصغير. هذا الرضى الأنيس في جميع ما تفعله وتقوله المشوب بحزن صاف متخفّ. وهذا يريحني أنا بالفعل. فأمي لم تكن غير حصار وشقاء لعقلي وروحي لم تكن فقط تعترض على فيض تحركاتي والنهر الذي يجري في داخلي. كانت كل

يوم، وكل مـرة، تشحنني بحسّ الخطيئـة. تقرأ على رأسي كلاماً فتجعل رواحي إلى النهر الذي خارجي وإلى البساتين، أو لعبي في الحارات، وخاصة مشاركتي في لعبة كرة القدم. . تجعل هذا الفرح كله شقاء ووصمة عار على روحي وجريمة لا تغتفر وخرقاً لكل المحرّمات. صحيح أن أبي كان يشجّعني. وكنت في قرارتي أستمدّ منه القوة والإقدام. لكن هذا لم يكن كافياً. لقد أدخلت أمي في ضميري يقيناً جازماً بأن لا أحد يمكن أن يغفر لي هذه الخطايا والذنوب غير الله، وأن الله لن يفعل ذلك قط.

لا شك. أمي هي نقطة البداية، إذن. نعم هي. منها انتشر هذا المدّ الفظيع من الحصار الذي لولب على حياتي، وخلّف صراعاته المباغتة في جمجمتي. لكنها ليست النقطة الوحيدة. ولا أعرف حقاً إذا كانت لها هذه الأهمّية العظيمة. فأنا دائماً يمكنني، عن طريق الوعي ويقظة العقل، أن أوقف أحاسيس الإثم والخطيئة التي برعت أمي في إروائي بها.

وكان هذا هو ما حـدث في معركـة السفور الثـانية. أمي وعمي وأخوالي، وكلهم، قالوا إني تصرفت بانتهازية، وإني خدعتهم. أعطيت وعـداً وخنت الوعـد. وثقوا بي وخنت الثقـة، قدموا تنازلاً من جانبهم مقابل تنازل من جانبي، ونكصت عن تنازلي. إذا لم أحترمهم هم فهل فقدت كل احترام لأبي أيضاً؟

الحقيقة أن أبي حاصرني حصاراً صعبـاً وقاسيـاً في تلك

الأيام. آه يا أبي. أنت دائماً تحاصرني ولكن بالحب. ومن تستطيع أن تتصلّب بوجه الحبّ؟ لو كنت على قيد الحياة لتفاهمت معك. لأخبرتك بما سأفعل، حتى لو قلت إني حنثت بوعدي أو كنت انتهازية. ولكن كيف يمكنك أن تغيّر أو تعدّل اتفاقاً عقدته مع الموتى؟

في البداية استأذنت أبي أن أنزع الحجاب، فقط عندما أجلس مع الكومونة. قلت له: سأرفع الحجاب قبل دخولي أو انضمامي إليهم بعدة أمتار، وأعود فألبسه بعد ابتعادي عنهم بعدّة أمتار. في المرتين الأوليين كنت واثقة أن أبي غير راضٍ، وأنه ينظر شزراً إليّ وإلى الكومونة. لذلك قصدت زاوية بعيدة مهملة، وكنت طول الوقت مثل كسيحة في زفّة.

لاحظني الجميع. وقد حسبت أنهم سيطلقون التصفير والصيحات لدى رؤيتهم لي إلى أن يوقعوني أرضاً في شبكة اضطرابي وانذعاري. لكنني دخلت، وجلست في الركن النائي، وأنصتّ.

كان وائل يتكلم، على غير العادة، ويلفّ سيجارة بلدية. ودون أن يبدو عليه أنه رآني على الإطلاق، تابع حديثاً سابقاً لم أسمعه: «ألم أقل لكم؟ كنا في حديث القفزة الكبرى من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرّية. ها هو مثال ساطع، شوفوا الآنسة سلمى وقفزتها الرائعة. بذمّتكم ألا تستحقّ ميدالية ذهبية؟».

وعندها انطلق من راحاتهم تصفيق شامل وصار خلال ثوانٍ دوياً.

حوّلت هذا كله إلى نوع من المرافعة، وفي المساء قرأته لأبي. قلت له: القفزة الكبرى من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية! بالله عليك، ألا تساوي هذه قاموساً من الوصايا؟

لم أتلقّ منه أيّ ردّ. وفي المرة الثانية كان حوارنا أقصر بكثير. كذلك اعتكفت عن الحديث مع أهل بيتي. طبعاً كنت محاصرة بمشاعر مريرة من الذنب والاحتقار لنفسي. لكني لم أشأ أن أعطي لأحد فرصة لحركشتي. لأني كنت سأنفجر بوجهه كاللغم. كنت مثل لصّ جاء يسرق عشرة آلاف فوجد عشر الماسات.

لا أقدر على وصف دقيق لشعوري وأنا بلا حجاب. كل شيء تمّ بالتقسيط، وخلسة ومع مسافة بين القسط والقسط. لم يكتمل في نفسي شعور كبير وشامل لحالة أستعيدها وأصفها.

بعد أن هدأ التصفيق في الكومونة، صار كل شيء طبيعياً في روحي ورأسي. لكنني عندما خرجت قبلهم بعد دقائق، أحسست أن آلاف أعينهم تنغرز فيَّ كالمخارز، وتلاحقني، وتتعمد أن تشركل ساقي لكي أتطوّح وأسقط أرضاً. كانت المسافة بين مجلسنا وبيت الماء لا تتعدّى العشرين متراً. لكنني لم أتصور أبداً أن السرعة الهائلة التي تعمدت أن أقطع بها تلك المسافة لم تجعلني أسرع من سلحفاة.

دخلت بيت الماء سافرة وخرجت منه محجَّبة. دخلت في حالة تشبه اللهاث والشهيق. وفقط عندما أغلقت ورائي المرحاض أحسست أن أحداً لم يعد يرى عورتي - عوراتي. كنت عارية عبر هذه الأمتار العشرين، وفاقدة لكل حماية.

إحساس بالعري، ذلك الذي رافقني في العودة من الكومونة، كان ضاغطاً ومحتدماً، وغريباً أيضاً. فهو لم يرافقني في الذهاب إلى الكومونة. رافقني فقط في العودة منها. مشيت إلى الكومونة وأنا ببساطة لا أرى أحداً ولا أحد يراني. ولكن بعد أن حقّقت رغبتي، خرجت من الكومونة وكأني لم أنزع غطاء رأسي فقط بل وغطاء حلمتي وسرّتي.

يا لتلك المشاعر العجيبة! الآن وأنا أرى نجوى، ابنة أبي بشير الثالثة، تكهرب جوّ العائلة كل يوم، وأحياناً تجعله جحيماً، برغبتها العنيدة الصخرية في أن تتحجّب، يأخذني الانذهال والبلبلة من طبيعة الإنسان. أهناك قفزة مضادّة من الحرّية إلى الضرورة؟ إذا كنت أنا قبل عشر سنين قاتلت بمعنى الكلمة، قاتلت نفسي وأبي وعائلتي، وتقدّمت شبراً فشبراً، أمضيت شهرين حتى تعودت المشي سافرة مسافة عشرين متراً فقط.. فما بال هذه البنت تطالب بالحجاب دفعة واحدة!

أيكون أن هذا الحصار نشأ في مكان آخر لا نعرفه، أو لا نحسّ به؟ مكان ليس نفوسنا على أي حال، وليس والدينا

وعائلتنا؟ ومع ذلك فهو مكان قريب إلى درجة أن بوسعه أن يؤثر على حياتنا فرداً فرداً، وجماعة جماعة؟

هل ترى نجوى أن الحجاب سيحجبها عن انهيارات العالم؟ وعندما تكبر ابنتاي، هل ستفعلان مثلي أم مثل نجوى؟

بالنسبة لي، فقد اخترت طريق الحرية. ومباشرة سأمضي عليها. لدى زيارة عبد الصمد التاسعة أو العاشرة، قرّرت أن أجلس معه وأخي في غرفة واحدة، وأتناقش معهما بكل حرية. كان عبد الصمد يكرر زياراته لبيتنا، بالاتفاق مع أمي وأخي، كان شخصه مألوفاً وكان يحسبها بدقّة تعادل الدقّة في جداوله لرواتب موظفي التربية. فقد بقي في الوسط بحيث لا يثير أقاويل الناس بكثرتها ولا يسمح لي بنسيانه لقلّتها.

وقد اعتبر نفسه سعيداً لأني رفضته بهذه الفظاظة وتعاملت معه بوقاحة لا يقبلها أحد، فالبنت المصون الشريفة إنما تتصرّف هكذا تماماً. أمي هي مصدر معلوماتي هذه: لو أنني قبلته من أول مرة لخسرت الكثير من «معزّتي» و«مازّيّتي»، وجعلت نفسي فتاة سهلة لا يحسّ عريسها بقيمة موافقتها عليه. قالت أمي إن العريس يحبّ ويفرح أن يحس بأنه انتصر في معركة حامية الوطيس، وظفر! بمهرة شماء! بعد كفاح طويل!

وكان كلما خرج من البيت، مغسّلاً حتى العظم بوقاحتي وفظاظتي وإهاناتي، ودّعته هي حتى الباب لتطمئنه وتسمعه كم

كلمة حلوة بالمقابل، ثم عادت إليّ. لم تعد مرة واحدة غاضبة مني. على العكس، كان وجهها باستمرار وجه الرضا، وابتسامتها تمطّ شفتيها حتى أذنيها. وكانت تطمئنني أنا الأخرى: «عبد الصمد ليس زعلاناً. . أنا طيّبت خاطره. . ما يزال يريدك. هو يقول، كلما تمنّعت البنت عن الزواج كلما أخلصت لزوجها بعده».

دخلت غرفة أخي. (هو وحده لديه غرفة؛ وأخواي الصغيران في غرفة، وأنا وأخواتي الثلاث في غرفة. أما أمي فتنام في الصالون). كان قد ترك بابها مفتوحاً وأجلس عبد الصمد في مكان ما منها يتقاطع مع معظم أمكنة الصالون، حتى إذا مررت أنا فلا بدّ أن أتمسّى بوجه عبد الصمد الصابر الوديع ـ فأعتاد رؤيته وأتآلف معه. المهمّ الاعتياد. إنه بداية الوشم. الوشم الذي سيكتمل مع الزمن. الزمن الذي سيذيب مقاومتي ويجعلني أتدلّه بقبولي لعبد الصمد. عبد الصمد الذي سيسترني ويستّتني ويمنحني بيتاً ويجعلني زوجة.

فوجىء الاثنان بدخولي. ولم يكن بوسع أخي حينئذ أن يمارس عليّ باسم أخوّته أيّة سيطرة من أيّ نوع. نحن أمام عبد الصمد مثال ونموذج للعائلة الشريفة المؤمنة المتفاهمة. وهو لن يجازف بتعريض صورة العائلة للتمزيق (وكنت في رأيه مستعدّة دائماً لأن أفعل شيئاً يمزّق تلك الصورة، ما دمت خلعت الحجاب). وكذلك فهو لن يجازف بإغضابي، فأخرق

كل مراعاة وأوجّه لعبد الصمد إهانة لا تحتملها كرامته، فيحمل بعضه بعضاً ويمضي بلا رجعة، ويُحبَط مشروع العائلة الذي هو مشروع حياة أو موت.

كان هدف أهلي هو تزويجي لإعطاء الفرصة للّواتي بعدي. فمتى ما تزوّجت البنت صارت مسؤوليتها على زوجها ـ هو الذي يصرف عليها ويؤويها ويكفيهم شرّها. ومتى ما تزوّجت تكفّ عن كونها عرضة للأقاويل والشائعات ـ وأنا بالطبع كنت مرشّحة للكثير الكثير منها، ومهدّدة اجتماعياً تهديداً مصيرياً. وفوق هذا، فزواجي يلفت انتباه العرسان إلى بقيّة أخواتي.

هذا عقل تعيش به ملايين مُمَلْيَنَة من الناس في أواخر القرن العشرين. وسط هذا الزحام الفظيع من الاختيارات، والخطط المخجلة لتزويجي، لم يخطر لأحد من أهلي، ولا لعبد الصمد، أن بوسعي أن أكسب عيشي بنفسي، وأكسب كرامتي بالتالي في حياتي مع رجل أختار الحياة معه. وطبعاً لم يخطر لأحد، ولا حتى لأبي، أن يهيّئوني منذ صغري لهذا الاستقلال. الطبيعيّ بالنسبة لهم أن أستجدي من عبد الصمد لقمتي ووسادتي وثوبي وكندرتي.

دخلت الغرفة فاستقبلني أخي بابتسامة مشرقة. ونهض عبد الصمد باحترام وارتباك وعينه على يدي ليرى إن كنت سأنقض وضوءه وأمدّها للمصافحة ـ ولم أكن لأمدّها أبداً. لم يترك عبودة مجالاً. هو أيضاً لا يريدني أن أصافح عبد الصمد

إلا إذا كانت الفاتحة تقرأ على يدينا. اقترب مني وبيديه أربع أو خمس من الورق السميك المقـوّى. ارتسمت على وجهه ابتسامته العريقة التي توحي بمقدار هائل من ضبط النفس. كان على الدوام يحبطني ويفحم عقلي. قال: «تعالي يا سلمى، وشوفي هذه الرسمات، وأبدي رأيك بالفنان الذي رسمها».

انتبهت إلى هذا الاستدراج فوراً. من أين لك هذه الدماثة يا سيد عبودة، وأنت الذي يدك والضـرب! كل هـذه السمسرة لتـرميني على هـذا الـلارجـل البـائس، وتستـأثـر أنت ببيت المرحوم؟

كانت الرسمـات متقنة تقـريباً. وفيهـا لمسة وحسّ. وقـد استلهمت النهر والأطفال. غير أنها لم تكن لتجعلني صيـداً سهلاً. رميتها بنظرة عابرة وأعدتها إلى عبودة، أردته أن يفهم أني جئت لشأن آخر.

«لم تقولي شيئاً»، جمجم عبودة بتوقّع محبّ ودمث.

قلت بلا اكتراث: «رسوم ابتدائية. فيها موهبة غير مصقولة. لكن بعد سلفادور دالي، لا أحد في هذه الأيام يمسك فرشاة ويرسم بهذه الطريقة».

رفع عبودة رأسه باعتراض عاتب، وأنزل كلتا يديه بالرسوم إلى ركبتيه، ليعزّز عتبه المحبّ والديمقراطيّ. غير أن نـاراً كانت قد بدأت تشبّ في أحشائي. وقد جعل لهبهـا يضرب

على عقلي وعيني إذ استدرت نحو عبد الصمد وقابلت وجهه المضطرب القانت المسكين، المنتظر مني لحظة رضا.

قال عبودة: «لا! أنت ظلمت عبد الصمد بتعليقك! لا تنسي أنه متخصّص محاسبة. لكن موهبته واضحة. موهبة كبيرة، في هذه الرسوم، ولو تشوفين الصور التي يلتقطها بكاميراته.. كيف يلمسها بريشته وينقّحها...».

أعتقد أن عبودة توقف عن الكلام لأنه رأى الشرّ الذي في وجهي وأنا ألتفت إلى عبد الصمد. أعتقد أنه أراد أن يتدارك الموقف. لكني كنت بدأت الكلام: «سيد عبد الصمد. سمعت بسلفادور دالي؟ أكيد، لأ. سمعت ببديع الزمان الهمذاني؟ أكيد، لأ. أنت لم تسمع بأحد. ولم تسمع بشيء. سمعت بس بالزواج. وسمعت به بطريقة تجعلك تظن أنك عندما تعرض عليّ الزواج، فأنت تعرض عليّ مكافأة العمر وكنوز العالم. اسمع يا سيد عبد الصمد. أنا بنت عاملة. أنا أكسب عيشي بنفسي. وأساعد أهلي أحياناً. قل لي بس يا سيد عبد الصمد، ما حاجتي بواحد مثلك؟ لأيّ شيء أنت لازم؟ لا حاجة عندي تجعلني أقبلك، إلا حاجة الحبّ. وأنت تحس تماماً وتعرف كم أنا أشمئزّ منك. أسلوبك هذا وأنت تتحمّلني باعتباري أنثى، يعني باعتباري بنصف عقل وبمئة ألف عاطفة هوجاء.. أسلوبك هذا ينفع،هذا ينفع في.. ينفع في...».

تعجّبت في تلك البرهة كيف أن ذاكرتي احتقنت ولم تسعفني باسم بلد واحد، أو اسم مجتمع واحد، أقدّمه لعبد الصمد كمثال على التخلف والخروج من كاملٍ التاريخ. في تلك البرهة رأيت أن بلدنا ومجتمعنا هما فعلاً الأسوأ. وأنه لا يوجد من نمط عبد الصمد ولا من نمط أسلوبه مثال واحد خارج مدينتنا. أعرف، هناك بلدان لا تتمّ فيها محاورة الفتاة في الزواج. يزوّجونها وانتهى الأمر. هذا أخفّ سوءاً. لأن البنت ترى فيه حالة طبيعية. أما في هذا البلد الذي يضمّ عدة تيارات شيوعية، وليبرالية، وقومية، وتديّنية، ومليوني امرأة عاملة.. فأن يوجد واحد مثلك، بهذا الإصرار والمثابرة على أن أقبلك زوجاً لمجرد أنك ذكر وتريدني زوجة لك، فاسمح لي، يعني! تصرفك هذا، أنا لا أجد أي مكان له في خانة العقل...

كنت قد عدت إلى الكلام معه دون أن أدري أني انتقلت من مخاطبة نفسي إلى مخاطبته.

سلفادور دالي! يا للخاطر العجيب! أنا نفسي لم أكن أعرف شيئاً عن فنّ سلفادور دالي إلكن سيرته جاءت يوماً ونحن مسترخون على المقاعد الخشبية في حديقة الكلية. وكان وائل قد أطلق للتوّ إحدى قنابله عندما قال: «مأساة الإنسان الفرد ليست في نفسيته وعقليته وإنما في أنه ليس سيّد تنظيمه الاجتماعي. التنظيم الاجتماعي هو السيّد، وبالتالي هو القَدَر».

وقد ردّ عليه بشّار بقنبلة مضادّة: «لو كلامك صحيح، لما كان لسلفادور دالي مكان يستقبله غير سلّة المهملات». ثم تكلّم وتكلّم عن لوحات هذا الفنّان التي تثبت أن التنظيم الاجتماعي محفور كالوشم في وجدان الناس، ولاوعيهم وذاكرتهم.. باختصار في كلّ دواخلهم. ومهما استقلّوا عن تنظيمهم الاجتماعي ظلّوا عبيداً له في لحظات حياتهم المركزيّة الحاسمة.

كنت من رأي وائل طبعاً. ليس لإعجابي به. وإنما لأني في تلك الأيام قدّمت بنفسي المثال الحيّ لامتلاكي قَدَري بيدي أثناء حرب الاستقلال التي أخوضها ضد التنظيم الاجتماعي. وقد هزّتني المناقشة يومها، وملأتني بالنشوة. ذلك هو فعلاً الأفق الذي يجب أن تتمحور فيه حياة كلّ فتاة تريد الحرية. وأخذتني النشوة. وأخذني الحلم. وسرت في الشوارع، وبجوار النهر، ووصلت إلى البيت، ودخلت دون أن أفطن أني أدخل وحجابي ليس على رأسي بل داخل جزداني.

الكارثة!

والخلاص أيضاً. الخطوة التي كان يجب أن أخطوها ذات يوم، على الأقل لأخلص من ذلك الدخول المشين، الكريه الرائحة، إلى المراحيض، كلما أردت تغيير معالم شخصيتي.

وسط ذهول أسرتي وصراخهم وعويلهم وهيجاناتهم، رأيت

في قلبي بحيرة هادئة صافية، يشعشع فيها نور الراحة والانتصار.

لا أحبّ أن أتذكّر تفاصيل ردود أفعال أهلي. لا أحبّ أن أتذكّر تلك الهمجيّة، والضرب برأس المكنسة على رأسي.. ولا البكاء الهستيريّ الذي أصاب أخواتي الأصغر.. والاتهامات بالخداع والانتهازية والكذب على الموتى من أخوالي وعمّي. لا أحبّ أن أستعيد صورة الرعب الذي أخرج عينيْ أمّي من محجريهما، توقّعاً للعنة فورية ستحلّ بالعائلة كلها.

هذه الذكريات مريرة إلى درجة تمنعني من استعادتها. كل شيء يمكن أن تحتمله المرأة إلا الاعتداء عليها لأنها ضعيفة. هناك طعم كالعلقم في ذكريات من هذا النوع... صور بشعة ومروّعة... وأصوات وحشية.

لا. سأقول فقط إنني خلال يومين تدبّرت هربي من البيت إلى بيت منيرة. وخلال دقائق انضمّ إلينا وائل وبشار وهاشم. كان هاشم طريفاً جداً. جاء بحقيبة متوسّطة الحجم، محشوّة بملابس أمه وأخته وزوجات أخوته. كل المقاييس. قال وهو يشير إلى الملابس: «أعتقد ستكون قصيرة عليك. لأنك أنت طويلة. لكن هذا أفضل، حتى تتحرّري نهائياً».

وقد جاء وائل وبشّار ببعض المال.

عندما جلسنا في بيت منيرة أحسست أني في وطن آخر.

وفور انتقالنا إلى غرفة منيرة وأختها، جاءتنا أمّها بالعصير، ومعه بعض المعجّنات. وبعد قليل جاءتنا بالقهوة. وفي وقتٍ ما دخل أبوها غرفتنا وسلّم علينا. مهما تكن نوايا هذين الوالدين (كان هاشم المرشّح المرجّح لخطبة منيرة، ولو أن التفضيل اتّجه إلى وائل)، فقد كانا من عالم مختلف. بوسع الناس أن يزيّنوا بيوتهم بالكنبات والديكورات ما شاءوا. ولكن ماذا عن العقل؟ وجدت في ذلك البيت شيئاً لا تدركه الحواسّ وإنما يدركه الحسّ. شيء من راحة المكان، من العفويّة والتخفّف. تحرّك ساكنوه هنا وهناك دون أن يبدوا مضطرين لإعطائنا انطباعاً مقصوداً عنهم - عن شدّة تقواهم مثلاً، أو تجانسهم المطلق ومثاليّة روابطهم.

كنت كلما ازددت اكتشافاً لهذا العالم المنفتح الصغير، ازددت وحشة وانكماشاً. وأخيراً صاح بشّار بي: «ألو! نحن هنا!» وددت لحظتها لو بكيت لكني ضبطت نفسي. ووجدتني أقول: «أنا بودّي شغل أشتغله، حتى لا أضطر.. حتى لا أنهزم».

قال هاشم: «هذه ما لها إلا أبو الوأل. لازم تشوف حضرة البطرك يا وائل لأجلها».

قال وائل: «أعطوني يومين. إنما بشرط». وصمت..

كان يحبّ التأثير في المشاعر. نظر إلينا واحداً واحداً ونحن نراقب ونترقّب.

قال: «بشرط أن تعود سلمى إلى بيتها..» وأجال عينيه الخبيثتين بيننا، فأضاف: «وتترك غربتها هناك وتعود إلينا».

ظلوا هناك يسامروننا إلى آخر دقيقة تسمح بها عادات الحياة، ثم ودّعونا. وبعد يومين كنت أعمل «سكرتيرة مهندس» في مكتب تعهّدات معماريّة يشرف عليه أحد معارف أبي وائل. غير أنني نجحت فقط في إخفاء غربتي وليس في تركها بعيداً، كما اشترط هو. كنت خائفة، ليس مما مضى وإنما مما هو آتٍ ـ من الفشل في المكتب، والفشل في الجامعة، والفشل في العيش بمفردي.

العيش بمفردي، ذلك هو ما جعلني متيبّسة تماماً داخل هذا العالم الجديد الذي أحبّه، والذي وجدت نفسي مرميّة فجأة على عبابه. كنت أحسّ حرفياً أنني مرميّة، وأن تنّورتي مثلاً يمكن أن تنكشف عن عورتي، أو أن بلوزتي يمكن أن تمزّق عن ظهري. وكنت كلما جاء واحد من أصدقائنا ليخبرني أنه لم يعثر لي على غرفة مستقلّة ـ أو غير مستقلّة ـ تلائم مقدرتي الماليّة، أحس بفرح داخلي أربد، وأتمنى له الفشل إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

كنت أتأخر في العودة إلى بيت منيرة حتى المغيب. وحتى عندما يخلو بعد الظهر من المحاضرات، كنت أمضي الوقت في مكتبة الكلّية. وبعدها أتناول شطيرة من نوع ما وأعود إلى منيرة. لم أتعشّ معها إلا يوماً واحداً. لكنني عببت الشاي بلا

انقطاع. وفي الصباح كانت دورية من وائل وبشار ترافقني إلى مكتب التعهّدات.

مضى أسبوع. نجحت في ترتيب أوراق المكتب، وتوزيع بريده وكتابة مراسلاته. بل وبدأت أتعلّم الرقن على الآلة الكاتبة. ونجحت في متابعة المحاضرات المسائية، والحصول من زميلاتي على محاضرات الصباح.

لكني فشلت في أن أشحن عقلي وجناني بالموقف الصحيح الشجاع الذي يجب أن أقفه عندما سأرى عبودة أمامي وجهاً لوجه. أراه؟ لقد كنت أراه كل الوقت. لم أنقطع ثانية واحدة عن رؤيته. وخالي أيضاً. رأيتهم كلهم. انتصبوا أمامي بقامات متضخّمة، فرادى ومجتمعين. وفي كل مرة كانوا يباغتونني حتى التخشّب، رغم أني لم أنقطع عن توقّعهم.

في اليوم الأول أمسكت بيد منيرة وصمغت أصابعي على أصابعها، مثل طفلة خائفة أن تفقد أمها في الزحام. هذه الصديقة الجميلة الغالية. مشت معي من بيتي إلى مكتب التعهّدات المعماريّة. ثم عادت معي بعد الظهر من المكتب إلى بيتها. وكان وراءنا بشّار وهاشم.

فماذا فعلت في اليوم الثالث؟ أو الرابع بالأحرى؟ عندما صار محتّماً أن عبودة أو خالي قد اهتدى إلى مكان عملي أو نومي أو محاضراتي. أبسط شيء أن قلبي انتفخ حتى ملأ فراغات صدري كلّها. لو رآني عبودة لوقعت بأرضي. كنت

أعرف تماماً أن الشجاعة هي آخر ما سيأتي إلى جانبي عندما أراه. لقد امتلكت حرّيتي لكنني أسأت إليهم.

وها هو ذا. أمام باب المدرج الخامس، مبتسم وهادىء ومنتظر. رأيته وأنا أهمّ بالخروج فجمدت على أرضي. راح الطلاب والطالبات يمرّون بيننا ونحن واقفان. وكان هذا العبور فرصة لي كي ألتقط أنفاسي. رغم أن الثواني مرّت بسرعة، وترقّبي للحظة العنف ازداد تضخماً، فقد بدا لي أن الموت ليس شيئاً آخر سوى أخٍ يتربّص بأخته بدل أن يكون حياة لها. ما هذا! لماذ سمّي الأخ أخاً؟ أليس لأنه يهرع إلى أخته فيواسيها عندما تصيح: آخ!

خرج الطلاب كلّهم، وبقينا وحدنا أخيراً. أنا داخل العتبة وهو خارجها. وقفت وانتظرت منه هو أن يفعل شيئاً، فأنا لم أدر ماذا أفعل. لم يخطر لي أن أخرج وأواجهه. نحن لا نتحاور أبداً. نتشاجر فقط. ولم أكن مستعدّة لفضيحة في قلب كلية الهندسة. لو قال لي: هيّا معي إلى البيت، لمشيت بجواره كالنعجة.

كان ما يزال مبتسماً، منتظراً، وطيداً. بينما جمدت أنا وراء يديّ اللتين أسندتا الكتب إلى صدري. راح فراغ المدرج يرزح على رأسي. وأخيراً قال هو: «ماذا يا سلمى؟ ستبقين في المدرج؟».

«ماذا تريد؟» سألته بجفاف اضطراريّ ولكن مناسب.

وردّ هو ببساطة: «أن تتركي بيت منيرة وتعودي إلى بيتك. وأنت حرّة. تداومين على شغلك، على جامعتك.. الذي تريدين. المهم بيتك مفتوح لك. وقلوبنا كذلك».

اندفعت نحو عبودة وعانقته وبكيت. لأول مرة أحسّ بهذا النوع من الرضا والرحمة. على الأقل منذ وفاة أبي.

غير أنني لم أطل العناق. كان في داخلي عكر حبيس، وما لبث أن سال في قنوات الخوف. رفعت رأسي عن كتف أخي وأنهيت العناق بشكل طبيعي. ارتددت قليلاً إلى الخلف. نظرت في وجهه فلم أرَ مخاتلة ولا غدراً. وقبل أن تتشكل الكلمات في فمي كان هو قد قال: «أنا راجع الآن إلى البيت. فمتى ما أردت، تعالي. كلّنا بانتظارك، نحن..».

انجلى اضطرابه أخيراً. وكان ذلك طمأنينة لي. العبارة الأخيرة التي نبس بها كشفت أنه ليس في جميع الأوقات فولاذاً مسقّياً.

أدار ظهره وانصرف. لم يلتفت.

كان لا بدّ من الطيران إلى بيت منيرة. وكان لا بدّ من البطء الشديد أيضاً. يجب أن أتأكد من انصرافه قبل انضمامي إلى وائل وبشار في الخارج.

انتظرت. وضعت ساعتي أمام عيني. وبعد ثلاث دقائق، قلت إنه لا بدّ من مرور ربع ساعة. مع انحسار زلزال عبودة

أقبل الشكّ والخوف. إنه لشيء فظيع أن يشكّ الأخ بأخيه. وتابعت انتظاري، فداهمتني رغبة جارفة بالبكاء.

دخل وائل وبشار إلى البهو واتجها إليّ. سلّم وائل. وصاح بشار بنظرة زاجرة: «الأخت الصلعاء عاشقة ومتيّمة، ونحن ولا خبر! ماذا تعتبريننا؟ طراطير؟ نحن لنا حق الإشراف المباشر على عواطفك يا آنسة. أم تظنين الدنيا فلتانة؟».

أوه، كم أحببت بشاراً هذا!

أخبرتهما بكل شيء. وكنت قد صرت سلمى أخرى. ذلك الإحساس بالظفر لم يتكرّر بعد ذلك قط. لقد أقبل ذلك الشتاء، وكان حقاً أجمل الفصول. من كان يتصوّر أنني خلال ستة أشهر سأخرج من القمقم، وأشتغل، وأدرس في الجامعة - وفوق هذا، أجعل أهلي يقبلون وضعي الجديد ويحتاجون إليّ!

كان وائل واضح الإعجاب. ومثلما قال لي بعد سنين: «البنات أعضاء الكومونة كن يتكلمن بينما أنت التي تنفّذين!» لأول مرة يتكلّم مع إحدى البنات ويكون في كلامه شيء من الشعور. وقد أصرّ على مرافقتي، ومعنا بشّار طبعاً، حتى الزاروب الأخير من الطريق إلى بيت أهلي. وعندما ودّعاني قال بشّار: «عزيزتي سلمى، أنا اكتشفت في هذا المشوار شيئاً عن هذا البعبع»، وأشار بيده إلى وائل، «تأكّدي أن المانع

الوحيد الذي يمنعه من الوقوع صريع حبّك، هو أنهم يمكن أن يعتقلوه في القريب العاجل، بإذن الله».

لم أكن في ذلك المساء الحاشد بالأنوار والناس والنسمات البـاردة حاضرة الذهن لآخذ كلام بشّار الصاخب مأخذ الجدّ. كان العالم المحسوس الشائل حولي اسفنجة زرقاء تتناثر فيها مشاعر تتوالد وتفيض وتدوم، وتدوّخني. حقيقـة، إني أردت منهما البقاء قرب البيت مدة نصف ساعة، حتى إذا انكشف أن عبودة ينصب لي فخّـاً، كانا هناك جاهزين لنجدتي. وعندها سأرمي بنفسي نهائياً داخل هذا العالم الجـديد الذي ألقيت فيه مرساة روحي مذ حللت عند منيرة.

لمس بشّار تردّدي القلق. غير أنه فهمـه بطريقـة أخرى. صاح بوائل: «انظر يـا هذا! قلنـا لها إنـك يمكن أن تحبّها فصارت مترددة، تعود إلى بيتها أم لا!».

لم يكترث وائل. قال: «إذا لم تجيئي إلى شغلك بكرة، نحن سنفهم. وإذا طرقنا باب بيتكم، فكوني مستعدّة».

وهكذا حملت جزداني وحافظة كراساتي ودخلت الزاروب الأخير. كنت من الداخل بهذا الشكل: مغتبطة بحديث بشار، صورة وائل تتلامح في زاويـة عليا إلى اليســار من مخيلتي، أخي عبودة يظهر ويختفي، ووجه أمي إلى الخارج من ثلاجة علوية يهبط أمام عيني قارس الملامح ويلتفّ من عند خاصرتي اليسرى إلى الخلف والبعيد.

قبل وصولي إلى البيت لمحني أخي الصغير وبدأ يصيح ويصرخ. وتراكض نحوي مع إخوتي وأخواتي وسط جلبة هائجة حتى وصلوا إليّ وأمسكوا بي من جميع أطرافي وجهاتي.. اليدين، الخواصر، الكتفين، الفستان، الجزدان... وسرعان ما بدأوا يهتفون هتافاً موحداً: حمد الله عالسلامة! حمد الله عالسلامة!

أذكر ذلك المشهد المنعش للروح وأنا أحسّ أنه واحد من أجمل حالات الطبيعة البشرية. إذاً ماذا وسط حصار الحياة الشقيّ يمكن أن يبعد عنك الجدران المتضيّقة غير هذا الحب الواسع؟ يومين، ثلاثة، والجميع يضعونني على عرش حالة الحبّ هذه. فعشرة الأيامِ التي غبتها ـ قالت أمي لهم إنني كنت مسافرة ـ أحدثت خللاً فظيعاً في حياتهم، وأرادوا الآن أن يملأوا الفجوة بالبقاء معي طوَال الوقت. إلا أمي ـ بقيت مقطّبة ومهمومة، رغم اعتذاراتي المتكرِّرة، الدامعة، وقسمي أني لن أعود لمثلها ثانية. وضعتني في زاوية لا يمكن الخروج منها. هي مسؤولة عني أمام الله وأمام روح المرحوم أبي، فكيف تعيش بقية عمرها إذا أنا خرجت على ما أوصياها به؟

لونٌ ما، لون داكن وكئيب، ما لبث أن تفشّى على رقعة هذا الأفق الصغير المشعشع. خلال أسبوع كامل، كان همّ أمي أن تستقدم الجارات للسلام عليّ وسماع أخبار «سفرتي»

إلى بيت عمي في الطرف الآخر من المدينة، وحصولي على عمل. وكلما تلكأت في الجواب والحديث، بادرت هي للتوّ بالاعتذار للجارات، عن خجلي وحيائي، ونفوري من التكلم عن نفسي، وتسلمت زمــام اللغة. عملي الجـديـد، راتبي المحترم، الناس الشرفاء الذين أعمل معهم... ثم تضيف بابتسامة راضية محبّة متسامحة: «وشوفي يا أختي هذا الجيل الجديد! سبعة أيام شغل خلّتها تترك الحجاب».

إذن هذا هو السبب يا أم عبودة؟ أستطيع أن أستحضر الآن مئات التفاصيل التي أتقنت أمي إيصالها إلى الجارات والزوّار لكي تفهمهم أنني كنت «مسافرة». غير أنني في غنى الآن عن مزيد من مشاعر الحصار والأسى.

مثلما فهمت حالة بيتنا فهمها وائل. إلا أنه لم يكن حزيناً مثلي بل تيّاهاً، واقفاً في موقع آخر «شفت؟» سألني بابتسامته الهادئة، وجذعه يجنح كالعادة إلى اليمين. «أنت صرت سيدة تنظيمك العائلي، بشجاعتك وإصرارك». وتساءل بشّار بطريقته الرصينة الهازلة: «أفهم من هذا أن الآنسة ستقود بنات المدينة لإسقاط النظام الاجتماعي البطركي؟»،وهـزّ رأسه ذات اليمين وذات اليسار: «حبيبي! أيّ دور بقي لنا نحن الشباب؟».

بقيت سعيدة على كل حال. وهذا الحبّ الغافل لأخوتي وأخواتي أشعرني أنني قد كسبت وطناً جديداً دون أن أخسر القديم.

قالت أم بشير وهي تتنهّد: «يا حسرة. نحن ما لحقنا كبرنا حتى شفنا حالنا متزوّجين». هي لم تنل الثانوية. كان يجب أن تتزوّج باكراً ليطمئنّ أهلها إلى مستقبلها وعقلها. بسبب ذلك، تشعر هي بالرهبة إزاء عالم الجامعة الخفيّ المتشعب الشاسع. تارة تراه مفرخة للفساد والانحلال، وتارة تراه موئلاً للحرّية. وهي لم تشتغل، ولم يدخل في تفكيرها يوماً أن الشغل لازم لها. «أبو بشير دخله كبير. وأنا لمن أترك تربية الأولاد؟» ثم هزّت رأسها بابتسامة قريرة، وتمتمت: «مشينا مثلما أراد أهلنا. المهمّ الرضا. وأنت لا تحزني على شيء، لا الجامعة ولا الشغل. بكرة تفرج، والله يفتحها بوجه الأخ عبد الصمد».

كان موعد استيقاظ الابنتين قد حان. نهضت فودّعت أمّ بشير وعدت إلى بيتنا. وما إن صرت في جوف البناء حتى سربلتني الكآبة. نزلت الدرج ببطء، وانتبهت إلى أني كنت قبل أمومتي أنزله ركضاً. هل سأصبر راضية مثلما هي أمّ بشير؟ أين هو الآن ذلك الحبّ؟ هل يحبني إخوتي وأخواتي أم لا؟ نحن لا نلتقي - إلا في عيد الفطر وعيد الأضحى -. هل تحبّني أمّي أم لا؟ هل يحبّني عبد الصمد؟ أهو حبّ لي ما يشعره تجاهي أم تسليم؟ عبد الصمد الذي دائماً يرى أسرته (وأنا منها) خارج الأسئلة، فوق الاحتجاج والشكوى.

هل رُميت بحبّ وائل؟ ذلك الزمان كان أيضاً زماناً للحبّ. ولكن هل أحببته؟ خرجت من معركتي مع أهلي وأنا «سيدة

تنظيمي العائلي»، وبالتالي سيدة أفق تقع عليه عيناي. فهل كنت سيدة مشاعري؟ هل فتحت الأشرعة إلى أقصاها أمام الرياح؟

لم نكن في الكومونة نعرف ماذا سنفعل بمستقبلنا. انشغلنا بالحاضر إلى حدّ أننا جعلناه زمننا الوحيد. وكان المستقبل يأتي ويدخل فيه مثلما يدخل المرء في سوق الخُضَر أو في النهر. تصوّرناه مستقبلاً حافلاً بالمشاكل، وتصوّرنا أنفسنا قادرين على مجابهتها وحلّها. كنا متأكّدين من قوّة الحرّية. وقد قال بشار: «نريد أن نكتفي بأقلّ قدر ممكن من الملكية لنضمن أكبر قدر ممكن من الحرّية. وكل ما زاد عن رغيف وقلم وسرير وقميص وباص، سنعتبره مصدراً للشرّ والعنف والظلم في حياة الناس».

تغلغلت كلمات بشار الجميلة المُثْمِلة في خيالي، لكنها لم تصرفني عن حاجة بدأت ألمسها في حياتي اليومية، وأحسست أنها غير ملبّاة على الإطلاق. ولكن من يا ترى تجرؤ على حبّ وائل؟ أعني، أي بنت من بنات الكومونة تجرؤ على تخيله عاشقاً لها؟ هو لم يكن ألمعياً مثل بشّار. ولكن كان فيه ثقل جسيم، ثقل يوميّ للبنت بالأمان والطمأنينة. ربما جاءه من طول اشتغاله بالسياسة. فقد كان في السنة الأخيرة، مع أنه تجاوز الخامسة والعشرين.

يجب أن أقول إنني كنت محظوظة. ففي الكومونة لم يكن

لأحد أن يسمح للحرية بفتح الباب أمام مآرب خاصة. مزحنا، وضحكنا، وتبادلنا أجرأ الكلمات. لكننا تصرفنا دائماً وكأننا في نــدوة مفتــوحــة لا في حفلة راقصــة. والــذين منــا لمستهـم مشاعر خاصة، تلمّسوا درباً بعيداً لها.

كان دربي الخاص هو مكتب التعهّدات المعمارية ـ درب وائل في الحقيقة. لا أعرف. الذي أعرفه أنه بعد عودتي إلى البيت بعشرة أيام تقريباً، كـان هو يـزور رئيسي في الشغل. وبدت زيارته غريبة حقاً. دخل حوالي الواحدة ظهراً بأقل قدر من الاهتمام بي، وبأقل قدر من الاهتمام بأيّ شيء. عينـاه الواسعتان الصافيتان خاليتان تماماً من كـل انطبـاعة، وقـامته الضخمة نوعاً ما خالية هي الأخرى من الرخاوة والاضطجاع اللذين يمكن لواحدة مثلي أن تعشقهمـا ـ فهما مجـرد فيض كســول للرجولة وللثقة الهائلة بالنفس.

دخل وأغلق وراءه باب مكتب رئيسي. وفجأة شعرت بالغيظ يتفشّى في جسمي وأعصابي. ما دام بوسع وائل أن يكون بهذا البرود، فبوسعي أنا أن أكون ثلاّجة. تركت طاولتي إلى أشغال أخرى في طرف بهـو العمليات وانهمكت، ليس في أعمـال السكرتاريا وإنما في أشغال هندسية بحتة كان أحد المهندسين قد تركها لي على منحدر طاولته لأنجزها.

صمّمت أنني لن ألبي لهما نداء. وبقيت هناك، في آخر بهو العمليات، مع حردي وغيظي ونظراتي المتطلّعة إلى الباب

الموصد، حتى دقّت ساعة الحائط الثانية والنصف.

رميت المسطرة من يدي والقلم من وراء أذني وعدت إلى طاولتي. التقطت جزداني فوضعت فيه أشيائي التي على الطاولة، ثم سوّيت شعري براحتيّ، ومشيت.

انفتح باب مديري فاضطربت ساقاي. وناداني وائل فالتفتّ. رأيت عينيه وقد استعادتا سيماء المراقبة والانتباه. تقدم نحوي بانسيابه الرخو، ولكن دون أن يبتسم فيشعرني أنني محطّ اهتمامه الوحيد. لقد رأت عيناه بهو العمليات كله ـ حتى تلك الأجزاء التي صارت وراءه وهو يتقدَّم نحوي ويقول: «أرجو أن تقبلي دعوتي...».

كنت قد قبلت سلفاً، ولكن رجوت الله ألّا تكون الدعوة مسرفة في خصوصيّتها. ومع الأسف فقد لبّى الله رجائي هذه المرة. قال وائل: «... إلى مشوار من هنا ـ إلى بيتكم!».

ضحكت وتضايقت. لم تتميّز الدعوة بأيّة خصوصيّة. تمنّيت، ليس غداء في مكان ما، ولا حتى فنجان قهوة في مكان ما، وإنما مشواراً نقضي معظمه بجوار النهر وقرب أشجاره الضخمة الوارفة. لو قالها على الأقل لكان بوسعي أنا أن أرفض وأدعوه، بدلاً من ذلك، إلى مرافقتي حتى البيت.

ذلك هو وائل. لا يطلب إلا ما يكون الحصول عليه ممكناً وطبيعياً.

مشينا معاً. خرجنا إلى الشارع معاً. شيء من مشاعر أيام السفور الأولى عاد إليّ ونحن نغذّ الخطى نحو بيتنا. أراحني طبعاً أن مشيتنا لم تكن بطيئة، وإلّا لبدونا ما لم نكنه: عاشقين. مع ذلك، أربكني ولفلفني مجرّد وجوده إلى جانبي، وهو يتهزهز كأن أحداً يدفعه من الخلف. سلمى بنت محمد بوشهده ماشية مع شابّ! كتفاً بكتف! هكذا سيقولون في الحارة، إذا ما صدف وشاهدنا واحد من فاعلي الخير الذين يعرفونني.

غير أنني كنت سعيدة. تحدّثت معه عن الكومونة. وعن رأيي في أنها تجمّع جميل لأرواح جميلة، وأننا كلنا نبحث عن معنى لحياتنا. وعلى غير العادة بدا مرحاً. نصف كلامه غموض وتلاميح، حديث هازل عن أرواح قبيحة يمكن أن تبخّ البشاعة على الوجوه الجميلة. ونصف حديثه الآخر صمت. لم يكترث بأن نمشي شارعاً بأكمله ونحن صامتان. ازداد ارتباكي في البداية. رأيت في الكلام انشغالاً عفوياً ورصيناً، لن يفسّره أحد ممن يروننا. أما الصمت فسيعني لهؤلاء أن حالتنا عميقة وصعبة، وأن الله وحده يعلم ما وراء آكامها.

بعد دقائق سقط من ذهني الآخرون. بقيت ووائل وحدنا. رأيت أن للصمت كلاماً جميلاً أيضاً. كنت خلال دقائق متأكدة تماماً أننا لم نصمت، أننا نتكلم. الصمت أعطاني فرصة لمزيد من الإحساس بقامته ومشيته، بل لتلقّي هبوب من

الأحاسيس المنطلقة إليّ من قامته ومشيته ـ أحاسيس وضعتني وسط دائرة فسيحة وفيء رغيد. ففي الصمت تختفي كلمات اللغة من اللسان، وتنطلق المشاعر من سائر الأنحاء.

وإذن فقد صار لنا دربنا الخاص. رغم أن الشتاء بسط هيمنته على المدينة، ولم يعد فيها غير القليل القليل من الأشجار الدائمة الخضرة، فقد رأيتني حديقة خضراء بأكملها تتفتّح. كنّا نمضي إلى النهر الذي أحببناه كلانا، وعلى أحد مقاعد الأرصفة التي تتّسع لأربعة، نجلس ونضع الكتب والجزدان بيننا. وقد تحدثنا في أي شيء، لأن كل شيء كان يدهشنا ويعجبنا،وظلت وهلات الصمت هي المقاطع الأزهر والأنصع في قوس قزحنا ـ وخاصة إذ تفسح الدرب لوشيش مويجات النهر أو همهمة المدينة، فتكون بذلك كأنها أحضرت المدينة كلها بين أيدينا.

لا أدري إذا كان ممكناً أن أسمّي ذلك الزمان حباً. فالحبّ لا يتأكد في النفس إلا بعد لمسة الجسد. ووائل لم يلمسني قط. وقف بدقّة عجيبة محيّرة عند الحدّ الرهيف الذي يجعلنا نفترق ذات يوم، إذا افترقنا، دون أن ينكسر بيننا عهد أو اعتراف. نحن أصلاً لم نبال بشيء من ذلك النوع. وحتى الآن لا يسعني أن أسمي ذلك الزمان بدقة. أحياناً يبدو أحلى وأجمل من الحب. لكني لا أعرف إن كان حباً. مشينا معاً، وتجاورنا، واختلطت كلماتنا ومشاعرنا. . . ولكن كما لو كنا

حلمين التقيا في المدينة، أو اثنين حلما الحلم نفسه في وقت واحد وكان الحلم خارج المدينة.

بتّ أشعر أن ذلك الزمن غير الأزمنة النهارية الأخرى التي تسبقه أو تلحقه. حتى ساعات المحاضرات في الجامعة، حتى ساعات عملـي التي شحنتني كلّ يوم بمزيد من الثقة والأمل والأمان، كانت ساعات أخرى. كلّ زمن هو غير ذلك الزمن. حتى الأوقات التي أحاطني إخوتي وأخواتي فيهـا كما تحيط الأغصان شجرة، لم تحمل ذلك التفتّح للحديقة الخضراء التي كانتها سلمى بنت محمد بوشهده. كنت أؤوب في المساء إلى البيت، وأرى أمي قـد ربضت وسكنت، وأخي منصرفـاً إلى مخـططاتـه الاستثمـاريـة، فـأمضي إلى غـرفتي ودراستي وانشغالي. عندها كنت مثل واحدة تنتظر عند موقف البـاص حلول موعد انطلاقها الجديد إلى آخر الخط.

لكن الباص لم يأتني. جاء، وعبر الشارع، وتركني وحدي عند الموقف. وكان يحمل أنـاساً كثيـرين، غائمي المـلامح شاردي العيون، بينهم وائل ومديري في العمل، ويمضي بهم إلى السجن. نعم. مع آخر أيـام الثلج انهارت الكـومونـة. وترنّح ذلك الشتاء الجميـل تحت ضربـات التشرذم القـارس الذي حلّ بنا كلّنا. صرت ومنيرة نلتقي بالصدفة. واختفى بشار وهاشم قرابة شهرين خوفاً. وتفرّق الآخرون أيدي سبأ، كما يقال. فقط عند نهاية الشتاء، حلّ بنا البرد، فرادى وجماعات.

وبعد أربعة أشهر طردت من عملي طرداً مهذّباً، بارداً هو الآخر رغم حلول الحرّ. ولم يكن الطرد موجعاً بقدر ما كان سببه موجعاً. فبعد خروج سجناء كثيرين من الاعتقال، وبقاء وائل ومديري، استدعاني المدير العام للمكتب، وأخبرني بابتسار أن المؤسسة قرّرت تقليص النفقات بسبب قلّة الإنشاءات، وقد ترتّب على ذلك الاستغناء عن خدماتي. وقدّم لي شكراً مكتوباً، ومظروفاً بتعويضاتي وبراتب شهرين مقبلين.

قلت لأمّ بشير وأبي بشير إن راتب هذين الشهرين ما زال يحيّرني! لقد كان بوسع المدير العام أن يشغّلني خلالهما، خاصة وأن المؤسسة كانت في الحقيقة تشكو كثرة الأعمال.

يا لهذا الانقلاب العجيب! ألم يكن بوسع التنظيم الاجتماعي، وهو هذا البحر الهائل الفسيح الأرجاء، أن يتحمّل زبداً تفوّهت به أفواه حالمة؟

(٢)

هل كان اعتقال وائل هو الرحم التي خرج منها ذلك الحصار؟ لا، أعرف فقط أنه انفجر كالسرطان منذ ذلك اليوم وحملني داخله كالسيل.

كيف أصف تلك الشهور الصفراء التي مرّ فيها الربيع والصيف؟ بعد طردي من العمل، صارت عندي فجأة وفرة من الوقت. وقت خامد، باهت، أرْوَح ما فيه حالة الانشغال التامّ

التي أزجّ بنفسي فيها مع المحاضرات والدراسة. وكلما مرّ أسبوع تراكم الوقت فوق الوقت فصار ثقلاً في الرأس. أتعبني. الراحة متعبة. بل مسمّمة. الآن فقط أفهم لماذا يتّسع جسم أمّ بشير. لأنه محقون بالوقت. متخم بالوقت. وأنا أنحقن جسمي بالوقت ـ وعيناي ورأسي، وحواسي وأجهزتي.

وصلت حالتي إلى أفهام العائلة، ومعها عبد الصمد. فمنذ طردي من العمل، صار عبد الصمد يجلس في ركن شبه متوار من غرفة عبودة، ويترك لكاميراته التي ركنها عند الباب أن تعلمني بوجوده. وقد أمرت أمي الجميع بتركي ودروسي: «امتحانها على الأبواب! اتركوها تدرس!» وفعلاً فقد صرت أنا التي أقترب أو أبتعد في البيت بحسب حالتي الشعورية.

لم تعرف أمي أبداً بحكايتي مع الكومونة، بالعصر الذهبي الذي عشته مع أصدقائي ومع وائل. ولا أدري إن كان في سلوكي أو هيئتي يومها ما قد يشي بهذا الذي فهمته عني. إنما عاملتني وكأني خسرت شيئاً. ليس شغلي وراتبي، بل شيء من النوع الذي لا يمكن للمرأة أن تعوّضه. أنا لم أشعر يومها أن وائلاً لا يمكن أن يعوّض، وربما لم أشعر أنني خسرته هو بالذات. كنت أكثر إحساساً بأني خسرت حالة، جواً، بوصلة، خسرت أمكنة وأوقاتاً من النوم الذي يوجد فقط داخل الإحساس بوطن أمين فرح.

جعلني هذا سريعة الاشتعال. وصرت أيضاً عديمة الصبر

والتسامح، متلولبة على نفسي خوفاً من انفجار انفعالاتي. لذلك امتننت لأمي. يكفي أنها تركتني وشأني. يكفي أنها لم تضغط على علاقاتي واختياراتي. بل وزادت بأن جعلتني أنتبه إلى تسليات كثيرة في البيت، يمكنني أن أمارسها. وبانتهاء الامتحان، وبقائي الاضطراري في البيت، صرت أرتّب الغرف وأنظّف الأرض، وأغسل الأواني. صرت أصنع القهوة وأقدّمها، وأرفأ جوارب إخوتي وملابسهم. بل إنني هممت ذات صباح بغسيل الثياب في غسالتنا نصف الأوتوماتيكية.

تدخّلت أمي ومنعتني. لقد باتت تبتسم في ذلك الصيف! أمسكت بيدي، وجرّتني خارج الحمام كإشارة إلى رفضها قيامي بالغسيل. مسحت على جبيني وشعري، وهتفت: «ألله يرضى عليك يا سلمى! ألله يرضى عليك!» قلت بدهشة خفيفة: «خليني أغسل الثياب!»ورحت أسائل نفسي، كيف لم أكتشف في أمي كل هذا الحبّ لي.

كان تساؤلي مخزياً لي تماماً.

قالت أمي بابتسامة متعبة: «لا يا بنتي. هذا الشغل ليس شغل بنات جيلك. أنت لما تتزوجين، يكون عندك غسالة أوتوماتيكية بالكامل. لا تعذّبي حالك بشغلي أنا».

تحيّرت من منطق أمي. أنا لم أكن أقوم بكل هذه الأعمال في البيت تحسّباً لأنني سأقوم بها ذات يوم في بيتي. لكنني

كعادتي في تلك المرحلة، أرخيت الحبل وفعلت ما أرادته أمي.

لم أخرج من البيت أبداً ذلك الصيف. حتى النتائج النهائية لامتحاناتي كانت تردني بطريق أو بأخرى، فلا أضطر للذهاب إلى الكلية. وكان عبودة يتطوع بالسؤال، وأحياناً بالذهاب إلى الكلية بنفسه، ويعود بالنتيجة. ولأني توقّعت النجاح مع شيء من التفوق، فلم أقلق بشأن أيّ مقرر. ولم أضطر للالتقاء ببقايا الكومونة واستعادة ماضيها السعيد الأليم. ووجدتني أواخر الصيف منهمكة بالكامل مع حالة جديدة من العيش، جوّ جديد.

كنت أستيقظ في الصباح وأتسلّل على مهل من بين أخواتي. البيت هاجع هادىء. أدخل الصالون إلى المطبخ. وهناك أصنع لنفسي فنجان قهوة. وفيما أنا أشربه تنضم إليّ أمي. كأن بيننا ميقاتاً.

الاتفاق على طبخة اليوم كان يستغرق الذي يستغرقه شرب القهوة، وجلي المغلاة والفنجانين، وتنشيفهما. نحن شعب يحبّ بطنه. أو، كما كانت أمي تقول: «ضرسه طيّب عليه.» لذلك فنحن لا نبخل على الطبخ، لا بالوقت ولا بالجهد، ولا بالتفنّن أيضاً. إن من يراقب تنويعاتنا الطبخية يكتشف أنها أغزر بألف مرة من التنويعات الموسيقية.

كانت أمي تتلفع بمنديل أبيض يغطي شعرها وعنقها قبل أن

نمضي معاً إلى البقّال. وإذا كنّا بالأمس قد طبخنا محشي الباذنجان والكوسى، فاليوم يمكننا أن نتقي عشر يقطينات لأجل يخنة يسيل لها اللعاب، مع فرمات لحم معتدلة الحَجم، وشرائح بصل تشرح النفس، وكل هذا يسبح في صلصة نافحة من البندورة الوردية، إلى جانب صحن من الرز نضجت كل حبة فيه حتى غدت عالماً قائماً بذاته.

أما في اليوم التالي، فلا بأس بـ «مطبّق» الباذنجان، أيضاً مع البصل، «لأن حمودة يحبّه»، وإلى جانبه لبّ الكوسى المتبقّي من يومين مطبوخاً مع البيض - وعشرة أرغفة.

لقد كان في صباح من هذه الصباحات أن كشفت أمي لي عن نبأ خطبة منيرة. «رجل غنيّ ومقتدر!» هكذا وصفت أمي خطيب منيرة المجهول.

كنت أقطع البندورة، بينما هي تقشّر الثوم. (ذلك هو الإيثار الذي حظيت به منها على الدوام، كرمى لعينيّ الحلوتين!) ووجدتني أسألها بلهفة فوريّة: «ما اسمه؟».

قالت: «الآن أتذكّر لك اسمه. هو تاجر معتبر من تجار حارة المسك. أيوه! اسمه عبد الشافي.. الغربللي؟ الغرباوي؟ الله أعلم».

وإذن فالخطيب ليس هاشماً ولا بشاراً.

وعلقت أمي: «مع أنك أحلى منهـا. لكن الزواج قسمـة ونصيب».

قلت: «غريب أن منيرة تتزوج تاجراً».

سكتت أمي. كنا جالستين إلى الطاولة، وتلك هي الحالة الأكثر استدعاء للدردشة والحديث. نظرت إليها مترقّبة التتمّة. ونبّهني سكوتها إلى الطريق الطويل الذي قطعناه معـاً لنكون صديقتين. من سيماء وجهها عرفت أن عقلها انتقل إلى فضاء آخر. تابعت صمتي أنا الأخرى.

حين نطقت أمي أخيراً بدا لي أن صمتها كان استجماعـاً لشجاعة ضرورية، وتحفيزاً لاهتمامي، كي تقول لي: «وأنت يا سلمى، حان لك أن تتزوّجي».

كان وجهها أربـد. ولولا أنهـا أمي لضحكت سخريـة من انقلاب سحنتها بهذا الشكل، بينمـا نحن نتحدّث كـامرأتين عجوزين لا همّ لهما إلا تقميع الباميا وفرم البندورة.

قلت: «أنا مؤجّلة زواجي حتى أتخرّج. أصير مهندسة قدّ الدنيا، وبعدها أتزوّج».

ظلّ وجه أمي أربد: «لا يا بنتي. الله يرضى عليك. ريّحي قلبي وريّحي تراب أبيك، رحمة الله عليه. تزوّجي اليوم قبل بكرة».

آثرت الاحتفاظ بحميميّـة جلستنا، رغم أني أخـذت أنشدّ من

الداخل. قلت: «بعـد كل هـالصحبة بيني وبينـك، تريـدين الخلاص مني؟».

«ألله يسامحك» قالت بشيء من الألفة. وأضافت: «أنا أفكر في مستقبلك ومستقبـل أخواتـك يـا حبيبتي، ثـلاث بنـات، غيرك. يا ربّ لطفك. يا ربّ سبحانـك. أنت الذي جعلت الزواج قسمة المرأة».

رأيت أن هذا الدرب من الحوار سيفسد جلستنا. ولم أكن مستعدّة لأيّ توتّر مهما خفّت درجته. انعطفت إلى درب آخر. قلت متمارحة: «يعني يا ست أم عبودة، لو كانت البنت هي التي تخطب، كنت اخترت أحسن عريس في البلد، وقلت له: يا الله، أنا اشتريت خاتمين».

قالت أمي بشيء من النبر المنضبط: «العريس جاهـز، يا أمي، العريس جاهز. بس أنت شوفيه!»

عندئذ ارتدت الستارة وسطعت الأنوار.

قلت لأمّ بشيـر: تصوّري! كـلّ ذلـك الحبّ، وكـلّ تلك المراعاة، والمداراة، والانغمار في شغل البيت! كيف ضحكوا عليّ كل تلك الشهور! تمسكنـوا حتى تمكّنوا. حتى تخيّلوا أنهم روّضـوني، وعملوني ستّ بيت، ثم رمـوا في وجهي رعبهم من أربع بنات. يجب أن يجدوا لهنّ أربعة أزواج.

لم أقل شيئاً. بقيت صامتة. وبقيت أمي صامتة كـذلك.

أنهيت فرم البندورة، وقمت فغسلت يدي. خرجت من المطبخ إلى بيت الماء. ورددت الباب ورائي.

رأيت في المرآة عينين خامدتين لامرأة شائخة الروح. أما الوجه فبدا طافحاً وبليداً. وكان هناك شعر مربوط من الخلف انشعث قليـلاً، وأفلتت منـه خصـلات نحيلة على الأذنين والجبين.أما الصدر الصغير أصلاً، فقد غاب نهائياً وراء النهديّة التي أفلتت وانفصلت عنه.

تعبّأني جزع واضطراب. أوشكت ألمح نثرات البندورة على الوجه، وأشمّ منه رائحة الثوم. لم أر الشعر أسود ولا أشقر ولا خرنوبياً. رأيت لبدة لـونها لا اسم لـه، رصاصي؟ رمـادي؟ معدني؟ أي شيء، أي شيء، سوى أنه جميل ومحدّد اللون.

تعبّأ الذهول رأسي والخفقان جوارحي. قلت لأم بشير إنني بعد دقيقتين أو ثلاث داخل الحمّام المغلق، لم أعـد مهتمة باستفظاع ما فعلته أمي بي، وما فعله أخي وبقية ذكور العائلة. صرت أستفظع قبولي أنا، غفلتي، دخلتي المطمئنة إلى فخّ الحرم العائلي. رأيتهم كلهم ذئاباً بجلود غنم. وداهمتني فكرة مخيفـة لم أجرؤ على تسميتهـا لنفسي. إلا أنني استـدرت، وفتحت باب الحمّام، وانطلقت إلى إخوتي وأخواتي. رأيتهم في الصـالون، خمستهم! المجلس الـوحيد الـذي يمكن أن يخرجوا إليه من غرفتي نومهم،لم يكن في يد أيّ واحد منهم كتاب. فقط، ماجدة، أصغرهنّ، كانت ممسكة بمجلّة وتحلّ

لغز الكلمات المتقاطعة الذي حلّتـه أختها الأكبر ليلة البارحة.

رأوني فابتعد الخمول والشرود عن وجوههم. نظروا إليّ بلا لهفة، ولكن بألفة وقليل من الترقّب. وقفت وسط الصالون، ورحت أتـأملهم واحداً واحـداً. صار تـرقّبهم فضـولاً، حتى ماجدة وضعت المجلة على التربيزة، وتطلعت نحوي مفتوحة الفم. أحسست بحاجة للبكاء. لا أحد يمكنه أن يقدر كـم امتننت في تلك البرهة لحبّهم واهتمامهم. ولحظة هرع أخواي الصغيـران نحـوي أردت أن أرفعهمـا معـاً إلى صـدري لـو استطعت.

أخذا ينطنطان حولي وينشدان: «يا سلمى يا ام المريول! يا سلمى يا ام المريول!» وشاركتهما أخواتي الجالسات بالابتسام ثم بالتصفيق.

ظلت صورتهم ماثلة في ذهني كعزاء وحيد، حتى المغيب. هؤلاء الملائكة الذين بلا أجنحـة، المحصورون في هـذا الصالـون الأعتم. وبعدئذ تساءلت: هل انتهى كل شيء؟

كنت ما أزال آمل بخـروج وائل من السجن. لمـاذا؟ لم أعرف تماماً. أحسست أنني، طَوَال فترة غيابه، مسترخية في حالة كمون. وقد اعتبرتها حالة طارئة، غيـر أنني ذات مساء أدركت أن الأوان قد آن لأنهي تلك الحالة بنفسي.

جلست في الصالون لا أبرحه. تشاغلت بكذا ألهية حتى

حان الموعد، وجاء عبد الصمد. فتح أخي نادر الباب له، ودعاه إلى الدخول، وعاد راكضاً إلى غرفته.

تلكّأ عبد الصمد إذ رآني في الصالون. وقمت أنا بإلصاق نظرتي عليه، فتصمّغ. حيّاني، فحرّكت شفتي أبتسم ابتسامة ضئيلة، ثم تشجّع وسألني إن كان عبودة في غرفته. قلت له إن عبودة سيعود بعد قليل. وقف منتظراً دعوتي للدخول، متيبّس الابتسامة. لم أدعُه. ولم أنزع نظرتي عن وجهه.

تحرّكت ساقه فاهتزّ كتفاه، كعادته عندما يبدأ المشي. لقد قرّر الانصراف. ظهرت أمي من المطبخ، يداها تتمسّحان بخرقة نظيفة. هتفت فوراً: «عبد الصمد! أهلاً يا ابني. ادخل، ادخل،عبودة راجع بعد دقيقة».

دعته مرة ثانية فتبدّد تلكؤه. تقدّم إلى إحدى الكنبات وجلس. لم توجّه أمي إليّ أية كلمة. كان بوسعها أن تعاتبني عتاباً «اجتماعياً» على امتناعي عن دعوته للجلوس. إن أمي امرأة ذات كبرياء. هي أرادت فعلاً أن يتزوّجني عبد الصمد، لكنها لم تقبل قط أن أظهر أمامه بمظهر المقصّرة أو الغلطانة. وفي ذلك المساء اعتبرت تصرّفي الوقح طبيعياً تماماً، وجديراً بالفخر، فالبنت الشريفة إنما تتصرّف هكذا بالضبط. وفوق هذا، لم تكن أمّي لتسمح له لحظة واحدة بالشكّ في أن قبولي الزواج منه هو منحة ربّانية.

لأمر ما لم أعد أذكره تأخّر عبودة يومها كثيراً. لكن أمي لم

ترتبك. أمضت مع عبد الصمد ربع الساعة الذي ظنّته كافياً لمجاملة الاستقبال، ودعته إلى الجلوس بجانبي ريثما تصنع القهوة.

أدركت أنها خائفة. لم تطلب مني أنا صنع القهوة، خشية أن يبدر منها سلوك لا ترضاه هي أو سلوك يضطرها إلى مجابهتي. وهكذا أعطتني خمس أو ست دقائق ثمينة.

نهض عبد الصمد بعد ذهابها إلى المطبخ، واقترب مني كنبةً واحدة. جلس على كنبتها هي. عقدت ذراعيّ على بطني، وأعدت تصميغ نظرتي بوجهه. ثوانٍ وإذا بكل استعداد لديه للكلام يتلاشى ويندثر. كان قد أخرج من جيبه مظروفاً أصفر، وهو يهيىء نفسه للحديث عنه. وكما علمت فيما بعد، فالمظروف تضمن لقطات أخذها هو بكاميراته للحياة اليومية والناس العابرين في الشوارع.

لكنه سرعان ما هدأ في كنبته وامتنع عن الحديث. ورأيتني في هذا الوضع أسوّره داخل نظرتي، فكأنه خاضع بأكمله لجهاز تحكّم أملكه أنا، هو عيناي اللتان لم تتحولا عنه لحظة واحدة، أحسست أني أريد أن ألغي هذا الرجل باحتقاري، أن أذيبه بنظرتي كما تذيب النار قضيباً من الرصاص.

إن الشعور يولّد الشعور. أعني - أن الشعور القويّ المحتدم سرعان ما يضاعف نفسه ويتكاثر ويتضخّم، إذا كان في حالة مثل حالتي. لعلها طبيعة الأنثى. ممكن. غير أني أحسست

أني أطفىء حـرائقي وأشفى وأنـا جـالسة كـالصنم أمـام عبـد الصمد. لقـد جعلته عينـاي هو الآخـر صنماً. أحسست أنّي أقول له أن يفنى وينقرض ويتحنّط، فأنا لا أريده.

أقبلت أمي بالقهوة، ووزّعت الفناجين. بقي فنجاني حيث وضعته. لم أمدّ يدي إليه. ظللت مصمّمة أن لا أغيّر جلستي حتى ولو قامت القيامة، وأن يفهم رغم عقله الرصاصيّ أنني لا أريده.

لم يحدث شيء مهمّ بعدئذ. جاء عبودة أخيراً وانضمّ إلينا. اعتذر لتأخّره. وبدا لتوّه منفرج الأسارير مستبشراً. لقد وجدنا جالسين معاً نحن الثلاثة. لكن وجه أمي، والتعابير الكظيمة فيه، جعلته يحسّ بوقوع خـطأ ما، فنـظر إلي متجهّماً قليـلاً ومستفسراً.

أجبت بأن انسحبت.

خلوت بنفسي وأنا مفعمة بالراحة. حتى لو كان عبد الصمد رصاصاً فعلاً، فلن يعود بعد اليوم إلى فكرة الزواج الفـظيعة هذه. مضى المساء وأقبل الليل، وأنا على أتمّ ما يمكن من الهدوء. ذاكرت محـاضراتي بـاستغراق، وظللت نشيـطة. لا شيء يعادل في راحته خلاص الإنسان من إحساسه بالتفاهة. وأنا أحسست بالتفاهة بسبب رغبته بالـزواج مني. لقد ظلّت تملؤني بالاشمئزاز والقـرف طوال العـام الذي شهـد زياراتـه المتكرّرة لنا.

صعبَ عليّ النوم. لم تكن لشبابيك بيتنا أية إطلالة تشرح النفس. فالبيت هو بيت وحسب. وغرفتي بالذات تطلّ على باحة صغيرة سوّرتها الأبنية وملأتها النفايات. انتبهت إلى أنني في نصف الساعة الأخير استعدت جلستي مع عبد الصمد عشر مرات على الأقل. وهأنذا أستعيدها مرة أخرى وفي نفسي كومة من الضيق.

خرجت إلى الصالون. جلست على الكنبة، وأحسست أني مرتاحة فعلاً ولكن بلا فرح. أحسست أني ربّما أكون تجاوزت حدّي مع عبد الصمد كإنسان. أحسست أن ليس ثمة ضرورة لتحقيره بهذا الشكل أو معاملته بهمجيّة. وتخيّلته أكثر من مرة متخبطاً في شبكة الرفض والكراهية التي رميتها عليه. كأنه ضفدع مرعوب.

رأيت أن هذا الحجم من اللاإنسانية مروّع ومحزن، وغير مقبول بين اثنين من البشر يعيشان في القرن العشرين. وصمّمت على أمر.

في المساء التالي فوجئت بالثلاثة جالسين في الصالون، كأن مشهد البارحة راق لهم فقرروا إخراج عبد الصمد من غرفة عبودة ووضعه في مركز الدائرة. انضممت إليهم بلا تحيّة، ودون أن أكترث بالرد على ترحيبهم. وبعد قليل طلبت من أمي وأخي أن يتركاني وعبد الصمد وحدنا.

التفتت أمي إلى عبودة وقد طار أمل مجنّح من عينيها.

نهضت فوراً وهي تقول: «أنا كنت قائمة إلى المطبخ لأعمل القهوة» واستدارت نحو المطبخ.

بدا عبودة متخوّفاً. ابتسم عبد الصمد له مشجّعاً. قال: «ما عليه. خمس دقائق، بس». هزّ عبودة رأسه، واستدار إلى غرفته.

انفردنا. فوجئت بوجه عبد الصمد خالياً من كل ذلك الارتباك والفَرَق اللذين يجعلانه، لو لم يأتني خاطباً، إنساناً يمكن للأنثى أن تتعاطف معه. رأيته وجهاً صلباً. كأن الرصاص الذي أذبته البارحة تجمّع وتشكّل من جديد. كأن قوة غيبية عادت وصبّته في قالبه الأول.

قلت لعبد الصمد إن مجيئه الدائم إلى البيت لهذا الغرض المستحيل يجعلني مضطرة لمعاملته بشكل جارح، ومهين أحياناً، ولاإنساني في بعض الأحيان. قلت له: إننا يمكن أن ننتهي من هذا الشذوذ في مواقفنا إذا هو اعترف بالواقع البسيط، واقتنع أنني لا يمكن يوماً أن أحبه...

تمتم: «الحب يأتي بالعشرة». وكان صوته وديعاً ومترقّباً.

قلت له إنه لن تكون هناك أية عشرة فأنا لن أقبله يوماً، ولو خلت الأرض من الرجال، فكيف أقبله وأنا أحبّ غيره؟

قال: «أنت متهيّىء لك ذلك. في المستقبل تتغيّرين». وكان صوته ما يزال وديعاً مترقّباً.

سألته ما الذي يجعله مؤمناً إلى هذه الدرجة أنني سأقبله ذات يوم. وقلت إن إصراره على موقفه يملؤني بالحيرة تماماً. ليس فقط لأني أهينه وأجرح مشاعره ورجولته دون أن يحرك ساكناً، وإنما لهذه الثقة المضحكة والمقرفة في وقت واحد بأنه سيُمكنه بالمثابرة والإصرار أن يصبح يوماً الرجل الذي أقبل الزواج منه. قلت له: «حرام عليك. في حياة الناس أشياء لها قدسيّتها. منها أن لا يعتدي أحد على عقل الآخر أو على حقوقه». قلت له إن ما بيننا حتى الآن هو تبادل إهانات وحسب. هو يهينني بتكرار مجيئه إلى بيتنا، وأنا أهينه بتكرار هذه المعاملة البربرية له.

قال: «الحقيقة أنا صعبانة عليّ نفسي. لكن كرمى لك أنا أتحمّل كل شيء. أنا أحبّك». وكان صوته ما يزال وديعاً ومترقّباً.

قلت له إنه يتكلم وكأن حب الرجل للمرأة هو الشرط الوحيد اللازم للزواج. وعدت إلى القول إنني مرتبطة عاطفياً بشخص آخر، وأني مهتمة جداً بألا يكرر عبد الصمد زياراته بهذا الشكل لئلا يسيء إلى سمعتي أولاً، وإلى علاقتي بذلك الشخص ثانياً.

قال: «معناها، سأجيء كل يوم، حتى أقطع أمل كل واحد غيري فيك». وكان صوته ما يزال وديعاً ومترقّباً.

حركت رأسي ورفعت حاجبي بهيئة من قامت بواجبها خير

قيام ولم يعد ثمة شيء تلام عليه. قلت له: «أنت تهين نفسك وبس. وتسيء إلى سمعتي».

نهضت وعدت إلى غرفتي. كل الذي أمام عيني كان دوّامات تتداخل وتنشقّ، تتباهر وتظلم، وتلطم. وبعد إغلاقي الباب ورائي ارتمى البيت كله خارج ذهني. وقفت بين الأسرّة الثلاثة، وأفلتت مني لوعة حبيسة فهتفت: «يا إلّهي!» وتذكرت وائلاً.

يوماً بعد يوم كانت الكومونة تغدو في خاطري ذكرى. أو بالأحرى، شيئاً خرج من حيّز المكان والواقع. ولهذا تغلغلت في روحي أكثر فأكثر. وكل يوم احتلّت مساحة جديدة. وصارت أنقى وأمثل. هل الناس كلّهم على شاكلتي لا يحسّون بقيمة الشيء إلا بعد أن يفقدوه؟ كل تلك الأيام مرّت، ولم أسأل وائلاً أيّ سؤال عن نشاطه أو معتقده. حتى عندما أخذوه، لم نسأل أيّ سؤال. لكن الكومونة بقيت نوعاً من الميثاق المكتوب على وعينا.

مشيت في ذلك اليوم أبحث عن منيرة. لم يصعب عليّ التقاؤها، فكل منا تعرف مواعد محاضرات الأخرى وأماكن تواجدها. ولكن صعب عليّ الحديث معها. هذه البنت مجنونة حتماً. والسبب الوحيد لجنونها هو أنها لا همّ على قلبها. منيرة ليست فتاة صاخبة أو طائشة. على العكس تماماً. إنها هادئة ورزينة، ونادراً ما تنفعل. رغم أنها مليئة بالحيوية. غير أنها لا

تتردد في شيء أبداً. فوراً تنفذ ما يخطر على بالها. وفي بالها دائماً خاطر يخطر لها، بحيث لا تبقى سعة للانشغال بالمستقبل.

رأيتها في ذلك النهار الشتائي المشمس، ولتوّي أدركت أن الموضوع الذي نويت أن أسألها عنه، لا مكان له في حياتها على الإطلاق. تاجر! منيرة تتزوَّج تاجراً!

بعد دقائق انفردنا فأخبرتها بحديث أمي. وهزئت من نفسي لأني كنت سريعة التصديق إلى درجة الغفلة، واعتقدت أن هذا الزواج ممكن.

بلا مبالاة فظيعة أجابت: «أنا خطر لي فعلاً هذا الخاطر. زوجة التاجر عندها وقت طويل وحرية كاملة. وطبعاً أموال كثيرة. والتاجر طلباته منك قليلة. ساعة في السرير كل ليلة...».

هتفت بها: «منيرة! حرام عليك! أنت غير جادّة حتماً».

قالت: «كنت جادّة مدة يومين. لكن الأفندي قطع الخط لما طلبت أن تكون العصمة بيدي وعندها لم يبق لي غير القهقهة.»

كانت منيرة فتاة جميلة. وجهها عجيبة من عجائب الخلق. اجتمع له لونان غريبان وائتلفا ائتلافاً فريداً، هما لون بشرتها الحنطي الغجري ولون عينيها الأخضر.

الضجر وحده هو الذي دفعها لتغيير الحديث. التفتت إليّ كمن تذكرت حقيقة مزعجة وقالت: «أنت منقطعة عنا هذه الأيام. أين أنت؟».

خجلت من أن أحكي لها قصّتي. أحسست بشيء من المذلّة، والعار، وحتى الانحطاط، لكوني عالقة في شباك نصبتها لي أسرتي. وبدلاً من تلك القصّة حكيت لمنيرة عن انشغالي المستمر بإخوتي وأخواتي - في الدراسة، وحلّ المشاكل، وتبادل الأفكار...

عدت إلى البيت مبعثرة النفس. كنت ما أزال متضايقة من مقدرتي الفظيعة على الأذى الذي أقدّمه لعبد الصمد - ليس إشفاقاً عليه وإنما على نفسي. الإنسان المحب للجمال وللحرية يرفض أن يكون فظيعاً أو لئيماً. لكن منيرة أصابتني بمسّ خفيف من نفسها: لماذا كل هذه المبالاة بعبد الصمد هذا؟ حقيقة الأمر أن منيرة كانت بلسماً لحالتي النفسية. وحتى عندما استقصيت منها عن إمكانية الشغل في مكتب ما، هزّت كتفيها بلامبالاة وردت: «لماذا الاستعجال؟ نتخرج وبعده نشتغل!».

فعلاً. لماذا نأخذ الأمور بهذه الشدّة؟

عبر ذلك الشتاء عشت هادئة، مريحة البلادة. عدت إلى شغل البيت كالسابق، ولكن بدرجة أخفّ وأقلّ انهماكاً. وتكفّلت بمساعدة إخوتي وأخواتي في دروس اللغة والهندسة

كما تكفل عبودة بمساعدتهم في الرياضيات والعلوم. كان شيئاً جميلاً ذلك الفرح الذي جعل ينتشر في نفوسنا وفي البيت كله. حتى مجيء عبد الصمد اليومي إلينا لم يعد مصحوباً بتلك الشحنة الفظيعة من الاستفزاز والتحدّي. بل إنني وقد أقبل الربيع بتّ أتعرض بين حين وحين لحس خفيف بالإشفاق عليه. هذا الإصرار غير المعقول على هدف. هذا التصميم الذي لا يكلّ ولا يمل ولا ييأس. كل يوم، كل يوم. طول سنة ونصف. لو كان يقرأ كل هذا الوقت لأنهى مكتبة بكاملها. لو انصرف إلى تصوير الناس بكاميراته في الشوارع لتضاعف دخله يومياً. لوُجد إلى طاولة وراح يرسم مخططات هندسية مبتكرة، لخرج بتصاميمٍ تكفي لإنشاء مدينة. إن مواظبته على زيارتنا حدث خارق فعلاً.

الربيع. أجل، لقد جاء الربيع. إن الأيام تمضي بصورة فظيعة. تمضي ببلادة وبلاهة، فتنسيك أنها تمضي. رتابتها تجعلها منسية، مُغْفَلة. وفجأة تكتشف أنها سلحفاة سبقت أرنباً.

لكن المفاجآت والصدمات لا تنتهي. وهذه المرة جاءت من عبودة. الحقيقة أن عبودة كان سموحاً. لقد انتظر بصبر مطلق حتى انتهت امتحاناتي في الكلية. وفي تلك العشية، بعد آخر امتحان، وبعد خروج عبد الصمد إلى كاميراته وشوارعه، أجلسني معه في غرفته، وأطرق قليلاً، ثم نظر إليّ

بشبه ابتسامة، وبرخاوة أخوية مبهجة تمتم: «عبد الصمد يريد أن يتقدم لخطبتك. متى تريدين؟».

انغرز رمح بين نهديّ. أحسست أن صدري ينطبق إلى الداخل كما تنطبق علبة من الكرتون. ومثل غريق في أعالي البحار، تلفتُّ في داخلي أبحث عن خشبة أمسك بها فتعطيني شيئاً من رباطة الجأش، وتذكّرت منيرة.

ذلك المسّ الذي استعدته من منيرة كان خشبتي. أنتم لا تعرفون الهول الكامن في أن يكون لبنت أخ أكبر. لكني مددت ساقي إلى أمام بهدوء، وضعت إبطي على ظهر كرسي الخيزران الذي تحتي. قلت لعبودة: «أخي عبودة! والله حسبتك نسيت الموضوع من أصله!».

اختفى شبه ابتسامته. وتحولت رخاوته إلى جمود. لكن وجهه بقي هادئاً. أراد أن يتأكد أولاً، فسأل: «ما هو قصدك؟».

أحسست أنه يستدرجني إلى الغلط. قلت بهدوء غير مكترث: «أنت ملاحظ حتماً. أنا، من شهور، لا أحسّ بعبد الصمد».

عندها قامت في وجهه القيامة: «لا تحسّين بوجوده!؟».

أحسست أنني أتزحلق. قلت ببساطة: «المسألة واضحة مثل الشمس. أنا ظننت، كلّكم لاحظتم!.»

نهض عن كرسيه فجأة واتجه إلى الباب: «خلّيك هنا. لا تتحركي».

شكرت السماء لهذه الفسحة التي هبطت عليه. كنت واثقة من أنني سأنهار في وقت ما أمام عبودة. لكنني آثرت الاستمرار في موقفي حتى لحظة التشقّق تلك. هناك شيء في الأخ الأكبر يجعل كل أخت ترتعد منه. شيء شبيه بالحالة التي اعترتنا يوم اعتقلوا وائلاً. وإذا لم تنكمش تماماً وفضلت المجابهة، فهذا الشيء سيدفعها إلى صراخ وهستيريا مستمرين، كما لو أنها تقيم بهما حائطاً واقياً.

غير أنني انسكنت بالخوف. وإلى أن رجع عبودة ومعه أمه كنت قد قررت التخلي عما استعرته من منيرة، والعودة إلى سلمى الأصلية. أنا لا أقدر أن أكون أكثر من سلمى واحدة.

وقد جاءا كمحقّقين، ينقصهما فقط أوراق المحضر والأقلام. دخل عبودة بهدوء محتدم. وقف في صدر الغرفة مفتوح الساقين، وعقد ذراعيه على صدره. ودخلت أمه بعناء حزين فجلست على كرسيّه.

قال: «اسمعي يا سلمى. أنا سأناقشك بالمنطق وأمك شاهدة. أنت خدعتنا مرة في موضوع الحجاب. لا تظنّي أننا سنبلع خدعة ثانية منك. اسمعي تماماً ما سأقوله. أنت من أول هذه السنة، وسنّك ضحوك لعبد الصمد. تردّين سلامه.

تروحين وتجيئين في البيت بحضوره. أحياناً تعملين لنا قهوة، أنا وهو. وتجلسين في الصالون بينما هو في غرفتي... هذا كله له معنى واحد. معنى واحد لا غير...».

قلت بتجلّد: «معنى واحد هو أن عبد الصمد ضيفكم وأنتم أحرار فيه. وأنا حرّة الحركة في بيتي».

صرخ عبودة ولكن دون أن يهتزّ بدنه: «أنت مخادعة وغشّاشة وكذّابة. لما قال لك إنه سيأتي كل يوم حتى لا يطمع فيك أحد غيره، توقّفت عن إهانته وصدّه. من ستة أشهر، تصرفاتك معناها أنك بدأت تفكرين بعبد الصمد. لو استمررت في صدّه كنا فهمنا. أما ملاينتك، وارتياحك، وكل تصرفاتك. لها معنى واحد. نحن كلنا فهمنا هكذا. والرجل أجبر العائلة الساكنة في بيته على ترك البيت، حتى يؤثثه لك. صار عنده أمل. الآن تقولين لنا إنك كنت تخدعيننا كلنا، وتغشيننا وتكذبين علينا!».

صرخ عبودة وحوّل وجهه نحو أمه. وعندها حوّلت هي وجهها نحوي. كان في وجهها استفسار.

هزت رأسي لها هزّات متتالية، لأقول بلا كلام (يبس لساني في حلقي) إن أفكار عبودة غلط بغلط. شعرت بما يشبه الانذهال واللجم من هذا الوضع الجديد. وإذ عاينت أمي صمتي بدت على وجهها رأفة طارئة. رفعت راحتها قليلاً وتمتمت: «عبد الصمد قال لك، هو سيأتي كل يوم إلى البيت

حتى يقطع أمل كل واحد فيك. وبعد وقت قصير تغيرت معاملتك له. مثلما يقول عبودة. هو ظنّ، نحن كلنا ظنّنا. . .».

صرخت: «مستحيل! مستحيل! أنا بنتكم! أنا لست جارية في هذا البيت! أنا لا أريده! لا أريده! افهموها وريّحوني!».

وصرخت أمي: «أنت بنت ما فيك شرف ولا أخلاق. أنت بنت تعودت عالكذب والنفاق. خسارة اسم أبيك فيك. أنت خليت عظامه تصرخ في قبره. أنت وطّأت رأسي ورأسه بين الرؤوس. . أنت ما عاد فيه حس. . ولا حياء. . خليتنا نصير مسخرة بين الناس. . ورأسك هذا الذي أنت ركبته يلزمه تكسير بالعصا. . .».

لا أدري ماذا قالت أم عبودة بعدها. انتفضت عن كرسي وركضت هاربة إلى غرفتي بأقصى ما أستطيع. من الباب كانت خمسة رؤوس متلاصقة، وعشر أعين حزينة ومشدوهة تنظر إليّ بوحشة وخوف. انفتح بينها طريق لي، ونفذت منه كسهم مكسور.

جلست على سريري وأنا أحسّ أن جسمي لم يعد لي، أو أنني أنا لم أعد أنا. كان معي في الغرفة سلمى ثانية: ذليلة، مهانة، مدانة، محتقرة، عاجزة. رحت أنظر إليها مثلما تنظر بنت صغيرة إلى كتلة رخوية جعلت تتخبّط وتفرد أطرافها ـ وقد

قالوا للبنت: هذه هي شقيقتك التوأم.

لأول مرة في حياتي أحسّ بحاجتي إلى سيجارة. في السنتين اللتين مضتا وأنا في الجامعة، كل من حولي كان يدخّن. وما أكثر ما قُدّمت لي السجائر فرفضتها وأنا معتزّة بأني لا أدخن،لكنني في تلك الثواني الكئيبة الخافقة، الهاوية على عيني بالانهيارات والتطاير، تمنّيت لو أني تعوّدت التدخين، ولو أن بيدي سيجارة. كنت محتاجة إلى أن أملأ صدري بشيء ما يخلصني من خوائه وانطباقه. وبعد ذلك أمسك جسم السيجارة المحترق وأطفئه داخل جسم الكتلة الرخوية تلك.

جرجرت جسمي إلى الشباك. كان يطلّ على باحة داخلية لا تدخلها السيارات، وحيطانها بلا نوافذ. وقد اختارت أمي لنا نحن الثلاثة هذه الغرفة لكي لا ترى أعيننا أحداً من «أولاد الحرام» العابثين في الشارع الذي تطلّ عليه الغرفة الأخرى. رغم القاذورات التي تجمّعت في الباحة هنا وهناك، وتراكمت كمزابل صغيرة، وقفت أمام الشباك ورحت أنظر إلى الباحة.

هنا في هذا المكان المنغلق على نفسه اعتادت خواطري وروحي أن تجد السكينة والطمأنينة طوال ست سنوات: سنوات تحجّبي. لا شكّ أن في هذا المكان المعتم الصامت ترعرعت الشتول الأولى لحديقتي الخضراء، تلك الحديقة التي فتّحت الكومونة عيني عليها. فهذا المكان نفسه، الذي صمّم خصيصاً لحجبي عن الأعين وصون عفافي، قد شهد

مولد حريتي الثانية في روحي وعقلي، بعد أن شهد النهر والحواري مولد حريتي الأولى.

هنا حلمت وفكرت وشعرت وأحسست. ليس بين الغرفة وتلك الباحة فاصل. إنهما مكان واحد. رغم وجود أخواتي معي، لم تتأثر خلوتي بالمكان. لقد صرن هنّ الأخريات جزءاً منه أيضاً.

وها هي ذي أمي تفتح الباب وتدخل، ويدخل خلفها عبودة. فاجآني تماماً. ظننت أن الأمر انتهى بعد أن أعلنت رفضي المجدد لعبد الصمد. اعتقدت أنهما سيقولان لذلك الكابوس الرخوي كلمتين أو ثلاثاً، وينصرف.

تبينت أنني كنت واهمة. بعد توقف قصير اقترب الاثنان مني. أمسكت أمي بإفريز السرير ونظرت إليّ. كانت متردّدة. تردّدها جعلها تبدأ كلامها بمناشدة رحيمة. لكن لغتها سرعان ما حميت واستسلمت للغضب: «حرام عليك»، قالت: «حرام عليك تعملي فينا هذه العمايل. حرام، كل بنت يجيئها نصيبها وتقبل. هكذا البنت في الدنيا كلها. إلا أنت صار لك سنتين؛ علّيت قلوبنا. أنت ماذا تنتظرين؟ جيئة واحد أمير ليخطبك؟ أو واحد مليونير؟ على ماذا حبيبتي؟ قولي لي على حسنك وجمالك؟ أو صدرك الذائب؟ أو زنودك المتلتلة؟ على تربيتك وأدبك؟ على مال والدك وثروته؟ أنت لا منظر لك وأنت لا

ثروة لك ـ غير اسم أبيك، وشرفه وكرامته. وأنت ترمين اسمه في الوحل...».

وقالت وقالت وقالت. بدا لي أن هناك قيامة فعلاً، وأنها ستبدأ بانفجار أمي إلى قطع نارية مدوية، وأنني السبب.

لم أبادلها كلمة واحدة. الانفعال، الألم، القنوط، أطاح بكل أسواري وكلماتي. ثم ضاعت مني كلّ قدرة على الردّ عندما بلغ التأثر بها مبلغاً جعلها تسكت فجأة، وتطأطىء فتسند جبهتها على الإفريز وتنخرط في بكاء مرير. بكت وبكت. ثم نحبت وأنّت. وراحت تخاطب أبي بكلمات متناثرة. سألته لماذا تركها مع أربع بنات وغاب. وسألته: كيف تتدبّر أمرها مع أربع مصائب...

إنه لشيء فظيع أن يكون مخلوقٌ ما بنتاً، شيء منافٍ للطبيعة.

لم أدر لِمَ تباطأ عبودة في التوجّه إلى أمه وتطييب خاطرها. أمضى دقيقتين أو ثلاثاً وهو يثبت نظرته عليّ أو ينقلها بيني وبين أمه. ثم اقترب منها بتأنٍ وصمت. ربت على كتفها بيده وعلى خاطرها بكلماته الهادئة الحازمة. قال لها إن البكاء بهذا الشكل سيعرض قلبها الضعيف لأزمة وأن عليها أن ترتاح في غرفتها. ورأى أن انصرافها إلى هناك أفضل لها.. وللأولاد.

مسحت أم عبودة وجهها براحتيها، ثم بكميها. نهضت

واتجهت إلى البـاب. انتبهت إلى الـرؤوس الخمســة التي اصطفّت لصق إطار الباب، وأرسلت أعينها الخرساء إلينـا. اقتربت أمي من الباب فانزاحوا ببطء. ثم اختفى الستة دفعة واحدة.

وقف عبودة أمامي. وجهه ينضح برغبة في الكـلام. فمه مغلق. عيناه شاردتان على بلاط الغـرفة. أخيـراً قال: «أنت تعرفين لأي سبب لم أتزوج حتى اليـوم». ثم صمت قليلاً، وحرَّك رأسه بحيرة، يميناً ويساراً. قال ثانية: «وأنت تعرفين لأيّ سبب زواجك ضرورة ملحّة.»

صمت أيضاً. وكرّر حركة رأسه. ثم لمعت عيناه بالاهتمام: «تقولين أنت مرتبـطة. أين هو؟ خلّيـه يخطبـك خطبـة على الأقل. لا أحد منّا عنده مانع».

صمت ثالثة، وأيضاً كرّر حركة رأسه. قال: «قصص الحب الرومنتيكية، إذا لم تكتمل بالزواج، تخرب حياة أصحابهـا. الذي يحبّك بصدق، يخطبك. غير ذلك، ألاعيب ومراهقة. عبد الصمد يحبك. تفاهمي معـه، وسوّوا خـلافاتكم. هـذه العيشة لم تعد تطاق».

واستدار بغتة إلى الباب، وخرج.

في ذلك المساء سألت نفسي لأول مرة: لماذا أنا أرفض عبـد الصمـد؟ وعنــدهـا أحس بجلدي يكــزّ على جسمي،

وبعشرين علقة خضراء اللون تسرح على جلدي.

تلك كانت إحدى بدايات الحصار. الوجوه الخمسة البريئة التي ساهرتني ذلك المساء، حاصرتني أيضاً، لأن حبها صار إيلاماً. كانت أختي سهيلى تنتظر نتيجة الثانوية العامة، وهي واثقة أنها ستدخل الجامعة. قصة ثانية ستبدأ بعد زمن وجيز، لا أعرف كيف ستكون،لكن هذا البيت لا يتحمّل قصّتين في وقت واحد.

سألت أبا بشير: «ترى ماذا كان حدث لو أني خلقت في حيّ (عبدون) بدلاً من حارة (الجورة) تلك؟».

ابتسم ولم يجب. أشعل غليونه ونهض مستأذناً للذهاب إلى مكتبه. ليس أبو بشير وحده من لا يبالي. كل الناس لا تبالي. لقد التفت نحو أمّ بشير وقلت لها، جواباً عن سؤالي: «لو خلقت في (عبدون) لكان إخوتي غير هؤلاء الإخوة، وأهلي غير هؤلاء الأهل. عقلي كان سيكون غير هذا العقل».

هي أيضاً ابتسمت. قالت: «أنت تهوّلين الأمور».

قلت: «شوفي عبد الصمد. حتى الآن ما يزال يرتبك وهو يتنقّل في هذه الضاحية. لا يعرف كيف يمشي بعفوية إلا في حارة (الجورة). ويمشي بعفوية، يعني أن يقطع الشارع وقتما يريد، غير مهتمّ بالسيارات التي تنفخ أبواقها في أذنيه وثيابه. ويعني أن يقف فجأة عند ماسح الأحذية على الرصيف، رغم

أنه ذاهب إلى موعد. ويعني أن يغيّر رأيه فيدخل دكاناً ليشتري سَفَطاً من البيض، أو خُضراً، أو حاجيات لازمة للبيت. ويعني أن يصطدم به عشرون شخصاً عابراً، وثلاثون طفلاً يلعبون في الشارع بالكرة أو يتشردون، ببساطة. يعني أن يقف مع صديق له، أو ابن حارة، أو أي معرفة، نصف ساعة وهما يتحدثان، ويضحكان ويحسّان بالسعادة والعفوية والدفء. وبعدها كل واحد يمضي في حال سبيله...».

ابتسمت أم بشير برضا. قالت: «والله ياما أحلى حارتكم هذه. لا همّ ولا غمّ».

ضحكنا كلتانا. ما الذي يسعنا غير أن نضحك؟ أمّ بشير هي صديقتي الوحيدة. وأنا لا أملك أن أختلف معها. لا يمكنني أن أقول لها إن سفينة فضائية أطلقت قبل عام إلى كوكب المريخ، وستصل بعد ثلاث سنوات، في يوم معين، في ساعة معينة من زمننا نحن البشر العائشين على منحدر الكرة الأرضية.

تلك كانت واحدة من حالات الحصار. لأيام عديدة تلت صرت أرى نفسي تركيبة مشوّشة من الأغلاط والغرابات. كلما استعدت منظر أمّي، وجبينها على إفريز السرير، رأيت صوراً للفجيعة وأحسست أنني سببها. ذلك الوجع، وذلك النحيب، والجسد المتداعي وهو في الخامسة والأربعين... وواضح أنني لا أستطيع أن أموت كيما أوقف كل هذا السيل

المنهال عليها. رأيت أنني حتى ذلك اليوم لم أستطع أن أكون فرحاً لأحد ـ ولا لنفسي.

مضى أسبوعان، ربما، أو ثلاثة. لم أحاول الاقتراب من عبد الصمد. كعادته، كان يأتي إلى بيتنا في الساعة السابقة للمغيب، ثم يخرج. لم أعره أي اهتمام. فقط، لاحظت كيف يخرج وكاميراته معلّقة بكتفيه. كان هناك شيء في خروجه هكذا، شبيه بنداء بعيد ـ صورة إنسان راضٍ، ربما. أو صورة إنسان يجد متعة في شغله، والشغل هذا شيء مرهق في شوارع المدينة ومحاولة اقتناص زبون رومنتيكي يريد أن تلتقط صورته في الشارع.

ما عدا ذلك، لم أعره أيّ اهتمام. كنت أتذكّره في اللحظات التي يمكنني فيها أن لا أشمئزّ منه. وهي نادرة. أما اللحظات الأخرى، اللحظات التي كان تذكّره فيها يضرم أعصابي فكنت على الفور أضرم ناراً وأحرق فيها صوره الآتية. لقد غدا وجوداً مفروضاً عليّ، وعلى حياتي.

وعندما كنت أتعب من رفضي واشمئزازي، أو يكون شيء ما هامداً بي ومتربّداً، أو عندما كنت أصل في تداعيات خيالي إلى صور الموت التي اخترتها لنفسي يومذاك ـ عندها كنت أفكر في عبد الصمد، وأجد أن هذا الإنسان البائس الصغير، هذا الظلّ الذي ينفرش تحت شجرة بيتنا ثم يختفي، يستحقّ

رشّة إشفاق. إنني لم ألتق في حياتي كلها بـواحد مثله يثير القرف.

خلال حوالي شهر فوجئت بوخزة فضـول تخزني، مبهمـة ومثيرة للهزء: عبد الصمد هذا، كيف يفكر، وكيف يحـاور، وكيف نجا من اشمئزاز أمي وأخي؟ إن مجرد إعجابه بي، وأنا لست من الجميلات، يجعلني أمقت نفسي. فكيف يستطيعون هم أن يتحمّلوه؟

قد لا يكون أخي عبودة أفضل منه بكثير. إن اهتمام عبودة المفرط بجمع المال واقتناص فرص الثراء، يجعله أقرب إلى هذا العصر، يجعله قادراً على المشاركة مثلاً في نقاش خفيف عن الرأسمالية والاشتراكية. لكن عبد الصمد شيء آخر تماماً. إن له من القناعة والرضا ما يريحه من أيّ قلق، من أيّة أسئلة.

قلت له: إنني ضجرت من هذه السيرة كلها، ولكن يجب أن أقول له شيئاً واحداً: «حتى لو رأيتني لابسة ثياب العرس وجالسة إلى جانبك في ليلة زفاف، فيجب أن لا تصدق أنني أتزوّجك».

ولحظتها فوجئت حقاً. فوجئت تماماً ـ بهذه التكشيرة التي انطلقت من فمه، التي كشفت عن لثته، وجعلت أسنانه تبدو كأنها تعضّ على حلقة لدنة. كان سعيداً. وقال: «مـا دمت بدأت ترين نفسك في ثوب العرس، فالحمد لله، أنا متفائل، إن شاء الله ستلبسينه لأجلي ذات يوم.»

أدركت أن هذا الرجل ممسوس. ابتسمت بهزء هادىء، وبقنوط لامبال. نهضت إلى المطبخ وتركته ينتظر دخول عبودة.

انفردت بنفسي في المساء واستعدت منظر عبد الصمد بغيظ وعصبية. رأيت أنه لا بد من معاقبة هذا الشخص، وأن عقابه يجب أن يساوي حجم ثقته بنفسه ورضاه بحياته ـ شاملاً، كاملاً، مدمراً تماماً، شافياً للمرض الذي زرعه في روحي.

قلت لمنيرة يومها إن ثقته بنفسه ظاهرة ستذهل حتى عالم النفس الاجتماعي. وبعد أن أسمعتها كل أخباري، نبرت هي: «كلما ضاق أفق الرجل وعقله الفردي، تضخّمت ثقته بنفسه. يظن أنه مخلوق رائع ومتفوّق لأنه تمثّل بالكامل قيم نظامه الاجتماعي. بينما هو في الحقيقة لا شيء غير علبة من علب المصنع الاجتماعي».

ثم قلت لعبد الصمد إنني على نقيض تامّ معه في كل شيء، وإن عليه كشخص متديّن وتقيّ أن يحسب حسابه أن مثلي لن تدخل إلى قلبه فرحاً من هذه الناحية.. ولن تكون الرفيقة المناسبة في أيّ مجتمع.. ولا الأمّ التي يأتمنها على تربية أولاده.. ولا ربّة البيت التي اعتاد أن يفكر فيها... قلت له إنني جيل مختلف وإنه، هو عبد الصمد، يكبرني ليس بعشر سنين وإنما بمئة سنة.

إزاء هذا الاندفاع القويّ والهادىء، أحسّ عبد الصمد

بالحيرة والارتباك. وبدا لي أني لمست من نفسه المواقع التي يعتبرها مسلّمات.

كان شيئاً فظيعاً أن تتصاعد الحيرة والارتباك فيه إلى ذلك الحدّ. حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف من أين تنبع إيقاعاته وأين تتّجه. هذا الذي لم يبال قط بأني لا أحبه ولا يمكن أن أحبه. ولم يبال بسفوري، وصداقاتي، وخروجي للعمل، واحتمال أني أحبّ رجلاً غيره.. ولم يبال بآرائي التربوية والاجتماعية الجامحة.. انقلب رأساً على عقب فقط عندما أعلنت له رفضي أن أقبل نفقته عليّ شخصياً. لأول مرة، بدا مزعزعاً من الداخل، مثل رحّالة قطبي سلبت منه بوصلته.

وإذن فهذا هو سرّ قوته. القوة التي تتجلى في الثقة والرضا. وقد أصبت منها مقتلاً.

كان عبودة جالساً معنا على كرسي خيزران، وراحتا يديه مركوزتان على طرفيها بين ساقيه. لم يتكلم. غير أن وجهه أفلت إحساساً بالخطر. دونما إرادة منه أرسل إلى عبد الصمد نظرة تطلب ردّاً.

لم يلتقط عبد الصمد النظرة. غير أن بلبلته كانت قد وصلت إلى شاطئها. وهو شاطىء يمتلكه عبد الصمد كما لا يمتلك أحد شاطئاً. قال أخيراً: «أنا إيماني بالله كبير. الذي تقولينه فعلاً مشكلة. لكن، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

أنا إذا لم أتزوجك لن أتزوج غيرك في حياتي كلها. أنا أقبل بكل هذه الشروط التي تضعينها».

هذه المرة أنا التي نظرت إليه. لم يخطر لي أن أصحّح فكرته وأقول إني لم أكن أضع شروطاً وإنما أكشف استحالات. كلا. نظرت إليه وأنا غارقة في بحر من الاندهاش لا شواطىء له. رأيت فعلاً أن في هذا الرجل اللاشيء شعوراً بالحب لا أعرف له مثيلاً. ولقد أمضيت أياماً بعدها وأنا أتمعّن في هذا الشعور. وجدت أنه شعور جميل، بصرف النظر عن صاحبه، وكان شيئاً مقززاً أن يمتلكه هذا اللاشيء.

الاشمئزاز والاندهاش منحاني القدرة على المزاح ذلك المساء. قلت له: «تعرف؟ إذا جننت في أحد الأيام، وقبلت الزواج منك، فهل يخطر لك السبب؟».

ابتسم ابتسامته تلك، ولم يجد أن هناك جواباً مطلوباً منه. قال: «عسى الله يبعث لك هذا الجنون في أقرب فرصة.»

قلت وأنا أغالب ما يشبه الضحك: «السبب هو أن أندّمك كل طالع شمس على أنك دعوت ربّك لأصير زوجتك.»

ابتسم ثانية. وبدت أسنانه كأنها تعضّ على تلك الحلقة اللدنة. كان سعيداً. قال: «شفت ها أنت بدأت بقبول الزواج مني. معناها العقدة قرّبت تنحلّ بإذن الله. وما هذا على الله بعزيز».

مضى ذلك الصيف وأنا لا أعرف ماذا أفعل بنفسي. شكوت هذا الفراغ لرغداء، إحدى بنات الكومونة، فهزّت بوجهي كتاباً عن سيغموند فرويد كانت تقرأ فيه. قالت بـابتسامـة رحيبة: «أنت تماماً في الحالة الطبيعية التي يتمنّاها كل إنسان. العيش بدون عمل».

لم أشأ أن أشتم هذا الرأي قبل أن أعرف من هو صاحبه على وجه الدقّة. ولما أكّدت رغـداء أنه لفـرويد بـالذات، هـززت رأسي كواحدة مغلوبة على أمرها. لكن رغداء هتفت: «ماذا؟ أنت تعارضين رأي فرويد؟».

قلت: «أعطيني شغلاً أشتغله، يا ستّي، وأنا مستعدة أتخلى عن الحالة الطبيعية هذه».

هتفت رغـداء ثانيـة: «مسكينة سلمى. أنت تخلطين بين الشغل واللعب. الذي تريدينه فعلاً، الذي تحتاجينه فعلاً، هو اللعب لا الشغل. شوفي أشياء والعبي بها. هذا هو الحل». ثم مـالت نحوي وهتفت بجـدّية مشرقـة: «تعالي معي إلى مسبـح صحارى اسبحي! أو تعلمي التنس! أو تمرين جمناستيك!» ثم سكتت وفتحت عينيها بدهشة، وسرعان ما تحولت الدهشة إلى انطراب وشبه زغردة: «عندكم شاب، يزوركم كل يوم تقريباً. لماذا لا تلعبين به؟»

نظرت إليها بدهشة حائرة. آخر كلماتها كانت صعبة الفهم حقاً.

قالت: «تسلّي معه، تحرّكي قليلاً. هذا شابّ مصوّراتي، ما؟ اطلعي معه إلى النهر، إلى الشوارع، إلى قنوات النهر والحدائق، مواقف الباصات. خلّيه يصوّرك».

قلت لرغداء: «لا، لا. هذا الشاب لا يحب شيئاً مما تعدّدين».

ونبرت هي: «معقول! إذن ماذا يحبّ؟».

قلت بيأس داخلي: «يحبّني أنا».

هتفت هي: «برافو! عظيم! روحوا سهرات. روحوا صحارى».

قلت: «لا، لا. هو لا يحبّ شيئاً مما تذكرين».

تمتمت بإحباط: «لا يحب! إذن ماذا يحبّ؟».

قلت: «والله لا أعرف. أنا نادراً ما أتكلّم معه. لكن، أتصور أنه يحبّ المطبخ، وغرفة النوم...».

قالت بجدية موحشة: «معناها، تزوّجيه!».

رميت عليها نظرة مؤنّبة: «أتزوّجه لأهرب من الضجر؟».

أجابت رغداء بالجدّية نفسها: «خلّي العصمة شراكة بينك وبينه. تهدّدينه دائماً. الزواج لعبة هائلة! هائلة!».

كان خالي مسلّم قد دعانا إلى سيران جماعي يوم الجمعة على سفح إحدى الروابي المتموّجة شرق المدينة. وحسبت أن

هذا سيكون لعباً أفضل بكثير مما اقترحته رغداء، فرحبت به. لم أظهر أيّ حماس، رغم استعجالي المناسبة. لم أكن مطمئنة إلى نوايا خالي الخبيثة. لكن السيارتين اللتين أقلّتانا وقفتا أخيراً عند فسحة معشوشبة بين بستانين. ثم بدأ كل شيء واستمر على ما يرام. مددنا البسط في الفسحة. وهيأنا المناقل والشواء، والسلطات، والحمّص، والمتبّلات، والثوم... وأخذ الأولاد يلعبون حولنا ويتصايحون... وأخذنا نحن أيضاً ننسى أنفسنا وروازح عقولنا، فجعلنا نتصايح كذلك... وانعقد الدخان في الجوّ... وأحسست بجوع فظيع، فصرت أختلس بعض اللقمات من الكبّة، إلى أن اكتشفتني امرأة عمّي وفضحتني...

ظهر عبد الصمد. انشقّت الأرض وأخرجته. كان وحده. لكن كهول العائلة لم يفاجأوا بمقدمه. وحين شاهد الصغار الكاميرات المتأرجحة من كتفيه ركضوا نحوه صارخين، مطالبين بالتصوير. تجمّعوا حوله وشكلوا دائرة حول مشيته.

لقد طلبوا إليه أن يأتي، بلا شكّ.

انهمكت في شغلي. ورحت أراقب دخوله بيننا باستتار تامّ. كنت الوحيدة التي لم تجد هذا الدخول طبيعياً. وهو قد بات مألوفاً ومعروفاً لكل واحد من أفراد العائلة. تحرّك بي غضب كظيم، فهذه الترتيبات لا توحي بغير الدناءة. وطبعاً لم يكن بوسعي فعل شيء، فازددت غضباً.

وجدتني مرة أخرى في الوضع المهين الذي استدرجتني أمّ

عبودة إليه قبل حوالي سنة: بنت تعرف تماماً واجبات المرأة في المجتمع البطركي. وتتقنها. بنت غارقة تماماً في مراحل صنع الأكل لذكور العائلة بحيث تستحق أن يتزوجها أحد أصدقاء العائلة.

كنت عاجزة عن أن أفعل أي شيء. كنت واحدة من ثلاثين. وعندما بدأ عبد الصمد يلتقط الصور التذكارية، تجاهلت كل شيء. مضيت إلى أحد المناقل، حاملة صفيحة معدنية رقيقة، وجعلت أمروحها فوق الفحم ليشتعل بسرعة.

أخرجتني من استغراقي مع الفحم والدخان أصوات متقاطعة واحتجاجات. لم ألتفتّ: انتبهت فقط. كانوا يلحّون على عبد الصمد بالبقاء. الكبار والصغار. لم أصدّق. تحولت إلى جهة المنقل الثانية دون أن أتخلّى عن انهماكي. لم أنظر إليهم مباشرة، لكنني صرت أراهم. سمعت الإلحاحات تتوارى ورأيت صمود عبد الصمد في وجهها، ورأيت حتى ابتسامته وتلك الحلقة اللدنة التي تبدو حول أسنانه.

لم يكن أحد ليرفض دعوة ثلاثين شخصاً إلى البقاء، لمجرّد أن الشخص الحادي والثلاثين لم يعبأ بدعوته أو الانتباه إليه. لكن عبد الصمد رفض. أحسست بالامتنان. كنت بحاجة إلى هذا اللعب بين البستانين، وإلى استمراره بصفاء وهناء. أحسست أيضاً أن هذا الرجل اللاشيء قادر على الإحساس بمشاعر الآخرين ومراعاتها.

تركنا. هبط عن الربوة. وبعد قليل غاب. وإذ أيقنت أنه متّجه إلى الطريق العام ليركب الباص، أطلقت تنهّدة ارتياح، وشكرته من كل قلبي.

لا أعرف متى وصل عبد الصمد إلى منطقة المهادنة في نفسي. لا أعرف كيف عبر جدران الاشمئزاز والقرف الإسمنتية التي نهضت بيني وبينه. أحياناً، يبدو واضحاً لي ومؤكداً أنه لم يعبرها قط، وإنما اعتلاها وجعلها تضيق وتقترب به من تلك البؤرة في نفسي (وكل نفس) التي تنشأ فيها التعودات والألفة والتآلفات، حيث لاقته هناك سلمى أخرى غير سلمى التي هي أنا.

لقد كرّر خالي الثاني، والثالث، ثم عمي، وأخيراً نحن، الدعوة إلى سيران مماثل. وفي المرة الثانية حضر عبد الصمد ولم يغادر. كان مستحيلاً أن يغادر. فعندما أخذت البُسُط تتغطّى بصحون الأكل، وصل هو حاملاً تأشيرة البقاء معنا: الصور التي التقطها في السيران الأول.

الحقيقة أن ردّة الفعل كانت عيداً. كنت في الكومونة أتصفّح الصور التي التقطها وائل لنا، كما يتصفّحها غيري. لكن النقد الموجّه إليها كان أضعاف الإعجاب والتقريظ. أما هنا..! كم أتمنى أن أقرأ بحثاً أو دراسة عن فعل الصور في النفوس، لماذا ينطرب الناس لرؤية صورهم، وما الذي تثيره في أعماقهم؟ أما كيف يعبرون عن حبّهم للصور فليس مشكلة

معرفية إذا كان لأي واحد عائلة مثل عائلتي.

كان مستحيلاً صرف عبد الصمد مباشرة بعد التفرّج على الصور. أنا وهو فقط فكرنا أن هذا ممكن. لكن الباقين، وبصورة بالغة العفويّة، أدرجوه في سياق لحظتهم وحركتهم، كأنه باقٍ بالفطرة، ولا حاجة حتى لدعوته إلى البقاء. ولحظة لمس خالي مسلم وأخي عبودة وقوفه المنكمش، الموحي بعزمه على انصراف غير مرغوب فيه، أسرعا إليه ودفعاه إلى داخل «السياق»: أجلسوه على البساط المخصّص للرجال.

كان وائل يقول: إن الكم إذا تراكم يصير نوعاً. من يدري؟ ربما كانت بعض التعلّقات تتكون أيضاً بهذه الطريقة. إن نفس الإنسان شبيهة بالأرض التي يعيش عليها. هناك تربة رسوبية يمكن أن تجرفها بألف وسيلة ووسيلة، ويمكن أن تنقلها بكل سهولة. وهناك تربة صخرية لا سبيل إلى زحزحتها. وتربة بركانية انفطرت وتكوّنت إلى الأبد ـ أشبه ما تكون بالعواطف البشرية.

أواسط ذلك الخريف، أضيفت إلى مشاعري البركانية ضد عبد الصمد مشاعر رسوبية تجاهه. والحقيقة أنني ارتحت إلى الترسّبات التي تلقّتها نفسي من مشاركاته في نزهاتنا يوم الجمعة، مثلما ارتحت لغثاثة مشاعره القويّة العميقة تجاهي. إنه لشيء ثقيل ومرهق أن تكون دائماً في حالة توتّر وعداء. قلت لمنيرة إنه لا داعي أبداً لأن يبقى دمي محروراً

وفمي مشوّشاً، بينما يمكنني أن أتمسك بموقفي دون ضجيج. لا أحد يستطيع أن يتحمل الغضب الدائم. إنه شيء يهدّ الروح.

لم أكن واثقة أني قلت لمنيرة كل الحقيقة. لا أحد يقول لأحد كل الحقيقة. شيء ما يظل دائماً متقطعاً وخبيئاً، لأن الناس تخاف أن يكشف التواصل الكامل عن ضعفها أو خوفها. لكنني يومها أردت فعلاً أن أقول الحقيقة كلها بشأن التعودات والتآلفات مع المدعو عبد الصمد - لا لكي تعرفها منيرة وإنما لكي أعرفها أنا.

عندما تغير الحديث، كما هو الأمر في كل حديث، قالت منيرة إنها «يمكن» أن تتزوّج. نظرت إليها باندهاش فظيع، لا لأنها ستتزوج بل لصمتها عن الخبر كل هذا الوقت.

«أنا نفسي غير مستقرّة تماماً على ضرورة الزواج...».

قاطعتها باستغراب: «كيف، غير مستقرّة؟ ماذا تفعلين بنفسك إذا لم تتزوّجي؟».

نظرت إليّ مستغربة بدورها: «أنت مجنونة؟ قولي ماذا أفعل بنفسي بعد أن أتزوّج. الزواج مقبرة».

هزرت رأسي بيأس: «أحياناً، أراه الطريق الوحيد المفتوح للخلاص من هذا الموت. عيشة تخنق الروح لكن، منيرة، من ستتزوّجين؟».

ارتفع حاجباها بدهشة: «هاشم! ألا تعرفين؟».

لم أكن أعرف. توقّعنا ونحن في الكومونة شيئاً مثل هذا. لكن منيرة فتاة لا خاتمة لها. كيف نتأكّد؟ ثم، أين هي الكومونة الآن؟ تقريباً في طور التلاشي. مؤكّد أنها لم تعد غير ذكرى.

«تماماً»، قالت منيرة: «أنا خائفة من هذا التلاشي. كنت في الكومونة. تشتّتنا. أنا خائفة آخر كل شيء وينشف البحر. قلت لروحي: لم يبق لك غير هاشم يا بنت، فتزوّجيه».

نعم. للمرة الثانية في حياتي أحسّ بجسم حادّ ينغرز بين نهديّ، ويطوي معه صدري إلى الداخل. لماذا يتكلم الناس عن طفولة واحدة في حياتهم؟ لا شك أن طفولتي الجامعية، تلك السنة الأولى، كانت أوشم لروحي من طفولتي العائلية، وربما من طفولتي مع النهر والحارات. إذ من يمكنه أن ينسى طعم الحرية؟.

كان قد مضى قرابة عامين على وائل وهو غائب عنا. لو ظل طليقاً، هو والآخرون، لكان نهر آخر قد حفر مجراه في حياة كل واحد منا. قد يبدو الأمر نكتة، أو مفارقة مُرّة: اعتقل وائل، وبقي عبد الصمد! بينما عبد الصمد هو الأخطر على الحياة.

كانت أختي سهيلى في كلية الآداب الآن. ليس فخراً كبيراً أن تكون طالباً في كلية الآداب. لكن هذا بالنسبة لسهيلى

(وللعائلة) يكفي لتوقع عريس أفضل ـ هذا العرس الذي يجب ألا يتأخر ظهوره إلى ما بعد السنة الثالثة في الكلية. وإلا ستضطر سهيلى للرسوب.

كنت أنا في السنة الثالثة. المهلة الاجتماعية المحدّدة لي تقترب من نهايتها. كل الذين يهمّهم أمري قالوا لي ذلك ـ بطرقهم الخاصة. ابتسامات أخواتي المشحونة بإيحاء غامض ومعاني مستترة. ونظرات عبودة المحملة بالتوقّع والترقّب. وكلمة «يا عروس» التي بدأت توجه إليّ من هنا وهناك. وفوق هذا كله وقبل هذا كله، أمارات أم عبودة وتصرفاتها، التي أشارت كل مرة إلى أنها تتحمل مجرد تحمل هذا الطلب مني أو ذاك المزاج، لأنها قريباً ستتخلّص من كل طلباتي ومزاجاتي.

ودائماً كنت أقابل صمتهم بصمتي، وعبارات وجوههم بصمم وجهي. وأنسحب إلى غرفتي لأستقل بما في ذهني من أفكار، تاركة لهم أن يستقلوا بأفكارهم. إن كلمة «لا» موجودة دائماً في فمي.

في رأس السنة أطبقت عليّ دنيا بأكملها وخنقت جوارحي. فبعد خطبة منيرة وهاشم، أحسست أن طفولتي الثانية قد انصرمت إلى الأبد. أحسست أن مقوماتها وشخصياتها قد اختفت من الوجود، أو من حياتي على الأقل.

كثيرون هم الذين يقرنون مشاعرهم وحالاتهم النفسية

بالفصول. وعموماً فالشتاء سيّىء السمعة في هذا المضمار. لكنني في تلك السنة الثالثة عشت أسوأ الشتاءات، بعد أن عشت أعذبها في السنة الأولى.

تذكّرت أبي كثيراً. لا عبر حبّه لي ورعايته وحنانه، وإنما، ويا للغرابة، في مشاهد موته ودفنه. هو كان كثير الغياب عن البيت، فثمانية أفواه تأكل، وسبعة عقول تطلب العلم، وتسعة أجساد تطلب الكساء، كانت هاجسه المقيم. لكنه عندما قرر أخيراً البقاء المستمر في البيت، بدا كأنه يستجيب استجابة لاواعية لنداء الموت، كأنه شاء أن يمضي معنا إجازته الأخيرة.

تصورت وائلاً أيضاً على نقالة، مسلماً روحه أو على وشك أن يسلم روحه. وكلما وقفت وراء نافذتي، وخمد جسمي هناك، تاركاً العنان لخيالاتي، تبدّت لي تلك الباحة الخلفية المحاطة بالجدران إما مثل مستنقع، وإما نوعاً من المقبرة التي سينقل إليها وائل وأمثاله.

بعد أن أجبرنا الطقس على إيقاف سيراناتنا، تزايد جلوسي إلى جوار النافذة. حتى دخول أخواتي للدراسة أو النوم في السريرين الآخرين، لم يعطلني عن ترتيب كتبي ومذكراتي على فسحة النافذة، وإرسال خواطري إلى تلك الباحة. كانت أخواتي وجوداً معطلاً بالنسبة لي، وجوداً موقوفاً. أنا أيضاً كنت كذلك. أعني جسدي، ورغباتي، وحاجاتي، وكل هذه

الأمور، كانت كأنها مركونة في زاوية منسية من الباحة.

كنت أضحك من نفسي أحياناً وأنا أتفرج على هذه الشيخوخة السريعة. حتى أخواتي صرن يعاملنني كسيدة وقور. كنَّ يجلسن في غرفتنا ويبتسمن بحشمة وتعظيم، كأنني مقبلة على أمر جلل. وكان في حياتي اليومية متسع كبير لهن كي ينسحبن من طريقي إذا تواجهنا في البيت، يسكتن إذا لمسن رغبتي في الكلام، يهدأن تماماً إذا حللت معهن في غرفتنا، يُرجعن أياديهن عن صحن الطعام المشترك إذا مددت يدي إليه، يطلبن مني صنع صينية كنافة...

حتى أمي امتدحت حكمتي وشكرت الله لأن رأسي لان أخيراً، وشاهدت الواقع الصارخ، وهو أني لست ملكة جمال، وبالتالي فإن الزواج خير ضمان لمستقبلي. هذه المرة لم يكن سكوتي امتناعاً عن الحديث، بل عجزاً. أنا فعلاً لست جميلة. صدري الصغير يجعلني بأكملي صغيرة - بما في ذلك إحساسي بنفسي. مثلما أن زنديّ الضخمين يحسّساني بالترهل والعجز. كل أعمال البيت اليدوية التي مارستها لم تفلح في تخفيف حجمهما. لا مسح ولا غسيل ولا تحريك كنبات وأسرة وخزانات.

ثم جاءني خبر زواج منيرة وهاشم فأخملني تماماً. كان خبراً سعيداً، طبعاً، ولكن قاصماً. مهما تحرّرت المرأة، ومهما انتصبت قامتها بقوة الحرية، تظل كلمة الزواج قادرة على

عجنها أو زعزعتها. ومنذ ذلك اليوم، صار ديدن مخيلتي، وأنا أجلس مواجهة للباحة، أن أستعيد صور أبي، وصور النقالة، وصوراً لزواجي!

نعم. مساء بعد مساء، وأنا منهمكة كما هو مفترض في شغل الخرائط والمذكرات، تصوّرت نفسي عروساً، كما يسمّونني، تدخل إلى تلك الباحة وترفع ذيل ثوبها الأبيض لئلا يتسخ بالقمامة المتجمعة هنا وهناك. أحياناً أدخل وحيدة، وأسرع غير مبالية بما تدوس عليه قدماي حتى أصل إلى منتصف الباحة. وأحياناً يدخل معي حشد كبير من الأهل ونبدأ ندور ونلعب ونقفز حتى تتسخ ملابسنا ونعرق ونلهث ونجلس على الأرض.

كانت هناك فجوة في كل تلك الصور، فجوة حرصت تماماً على ألا أراها، ولا أملأها. كلما ذكرني بها كلام لخالي أو لأمي في الصالون، أو في بيت خالي، انبترت من ذاكرتي تماماً وأنا أدخل غرفتي ـ وأطلقت لنفسي العنان بعيداً عنها.

لكن خالي عزم أخيراً على ملئها. استدعاني إلى جانبه في الصالون، وكنا معظمنا هناك، فجئت إليه محتمية بوجود الآخرين وحركاتهم وأصواتهم.

مد ذراعه وطوق بها كتفي بحنان، وشد على زندي. وهمهم: «هه! عروستنا الحلوة، قولي لنا متى نفرح بك».

لم يفاجئني الطلب. فقط نزع عن بصري براقع كثيرة

حاولت في ذلك الشتاء أن ألوّنها وأشكّلها، وأسدلها على عيني.

قال مستبشراً: «شايف أنك سكتّ». وسكت هو بدوره. ومثل من خشي أن يعطيني سكوته فرصة للكلام، وأن يكون هذا الكلام رفضاً لمشروعاته، سارع إلى القول: «تعرفين، نحن كلنا نحب عبد الصمد ونحترمه. والحقيقة، نحن طال انتظارنا لعقد قرانك، يا خالي، وأظن أنك زوّدتيها حبتين في دلالك».

أحس خالي عندها أنه قد لجمني، فأعطى لنفسه فسحة زمنية للتنفس. ثم مضى إلى القول: «أنا أعرف. البنت الحسنة التربية، لا تقول شيئاً. وهذا أملي فيك دائماً. على أي حال، أنا من كل قلبي أقول لك: مبروك. وعلى بركة الله. عبد الصمد شاب ممتاز، خلوق وابن أصل».

ونهض فودّع وانصرف.

عندما أغلق الباب وراءه، انتبهت إلى أني لم أتكلم. لكني كنت واثقة من أن كلمة «لا» ما تزال في فمي. وهي ستظل «لا» كبيرة ودائمة وغير متزعزعة.

في غرفتي أطبق علي مرة أخرى ذلك الحصار. جلست على السرير وكل شيء بي متهدل ومتهدج، ولكن لم أشك مع ذلك بأنهم لن يحطموني لمجرَّد أن صدري صغير، أو لأن لي

أخوات صغيرات. ولن أترك الأيام تجرّني معها مثلما تجرّ الخيول عربة مخلعة.

ثم جاء ذلك اليوم. أول أيام الربيع. وجاء معه خالي وعمي وعبودة، ومعهم المأذون وعبد الصمد ـ بدون كاميراته. تمنيت خلال تلك الفترة المنصرمة أن يفاتحني أحد ـ أمي أو عبودة ـ بموضوع عبد الصمد، لأقول إني لن أتزوجه. لكن أحداً لم يفعل. وبقيت «اللا» داخل فمي.

اجتمعوا، تجمهروا في ذلك الصالون الذي لا تدخله الشمس. تصايحوا وتراوحوا، كنت كواحدة ساقوها لتتفرَّج على مسرحية صاخبة تمثّل هي فيها دور البطلة. ورأيت سلمى تصعد إلى المنصة، وسملى تتفرج عليها، ونصف غيبوبة يطيح بنصف عينيّ ونصف أذنيّ ونصف عقلي.

وعندما مدَّ خالي يده إلى يد المأذون وأعلن الاثنان عزمهما على قراءة الفاتحة، صرخت صرخت: «خالي!» عادت إليَّ سلمى التي على المسرح، وصرت سلمى واحدة، ابنة محمد بوشهده، ابنة النهر وحواري المدينة. وصرخت: «خالي!» ونهضت واقفة. ولم أدر ما الخطوة التالية لي، فركضت إلى غرفتي.

لحق بي خالي للتوّ. التقطني من زندي وسحق لحمي. ورفع قبضته أمام وجهي وسبابتها محدودة. صرخ بأعلى صوت لا يسمعه الجمهور في الصالون: «اسمعي! هذا الدلع، أنا ما

عدت أتحمله. تعالي معي فوراً لنكتب الكتاب. الرجل باعٍ كاميراته ليفرش بيتاً لك. تزوّجيه وانتحري بعدها. وإلا، قسماً بالله لأجعل حياتك أمرّ من المرار! يا الله!».

خرجت من غرفتي ومضيت أمامه إلى الصالون. جلست على الكنبة المتصدرة. إلى يساري خالي. وإلى يساره المأذون، وإلى يساره عبد الصمد، وإلى يساره عبودة. وإلى يميني أم عبودة، وإلى يمينها إخوتي وأخواتي. وقرئت الفاتحة.

(٣)

هزّت أم بشير رأسها كأنها تسأل: أين اختفت تلك «اللا».

ابتسمت ولم أجب. أول انتباهي إلى صيرورتي بدأ أثناء بحثي عن عمل. فذات يوم وقفت في بهو أحد مكاتب العمران أنتظر رداً من رئيسه. رأيت الجدران مزدانة بلوحات قرآنية: آية الكرسي، سورة الفلق، هذا من فضل ربي... وبلا وعي تمنيت لو أنني وضعت على شعري حجاباً لكي يقبلني صاحب المكتب. جزمت في تلك اللحظة بأن لا فرص لي عنده وأنا بهذا الشعر المفلت والزندين العاريين.

انفتح باب مكتب المدير، وأطل عليّ من بدا لي أنه المدير نفسه. كان يحمل إضبارتي بيد تمتدّ نحوي، بينما جسمه يتّجه إلى غرفة أخرى، ولسان حاله يقول: متأسّفون، لا شغل

لدينا. لكن كلمـات مختلفة تكـونت في عينيه ووصلت مـع كلمات يده. وأخـذت كلمات اليـد تنحسر مـع اليد، بينمـا تسارعت كلمات عينيه في الوصول، وانهمرت كسهام صغيرة متكاثرة. وقف، وأمطرتني عيناه. أرادتا أن تسفكا دمي.

لم يقل: متأسّفون. قال: «مع أنك لا خبرة عندك، لكن ارجعي لنا بعد أسبوعين. عندنا مشروع جديد يمكن،يمكن أن يبدأ بعد شهرين».

تلك كانت إحدى المتاهات بالطبع. فالمشـروع الحقيقي كان خاصاً بالمدير وبي. أو على التحديد بزنديّ اللذين رأيت أخيراً، ولأول مرة في حياتي، من يراهما جميلين ويشتهيهما. لكنني مع ذلك فرحت. رأيت سهامه الصغيرة مثل الإبر الطبّية الصينية. أعطتني جرعة للشفاء من جروح قديمة لا تـطيب. تفاءلت خيراً. قلت: عسى الله أن يفتحها أمامي عن طـريق زنديّ بعد أن انسدّت عن طريق شهادتي، وأنا مستعدّة لتحمّل عيني المدير سنة كاملة. إن جسدي لن يخسر شيئاً إذا داهمته جعبة من العيون.

لكن الـذي توسّمتـه خاب وأحبط تمـاماً. أعجب المـدير بزنديّ فقط وليس بليسانس الهندسة الذي حصل عليه هذان الزندان. وبات مؤكداً بعـد لقائين آخـرين أنه غيـر متحمّس لصفقتي الصغيرة ما دام شرطها الاكتفاء بجعبة العيون.

أحسست بالعار. وقلت: غير معقول يا سلمى! قلت: لا

تتركي الحصار يفعل فيك فعله، فيحقرك في نظر نفسك.
وقلت: تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها.

حرّة.

المرأة الحرّة هي التي تحافظ على عفافها ولا تسمح لغير زوجها بأن يطأها. أما الأنواع الأخرى من الحرّية فلا قيمة لها. ما دمت محصّنة منيعة، فأنا حرّة.

أمكنني يومها أن أعي تلك التحوّلات وأفهمها. أمكنني أن أرى أيادي خفية رهيبة تعيد تشكيل طبع البشر وفق ظروفها وضروراتها الخاصة. وتذكرت الكيمياء التي تكونت في داخلي أيام الجامعة وجعلتني أتزوج عبد الصمد. وتبدت لي كيمياء المدير شبه خالية من أي تركيز وكثافة، ومثيرة للسخرية، إذا ما قورنت بالكثافات الرصاصية الطامسة التي تندهن بها الحيطان الجوانية لحرة لا تأكل بثدييها. فالمعنى الصغير لحادث صغير قد يكون أحياناً مفتاحاً لباب ضخم تغيب خلفه معانٍ هائلة وأحداث كالجبال.

مع تكرر تجربة الزندين هذه ـ بأشكال مختلفة، وتنوعات ـ صرت أتساءل: أية حرية أعطانيها ثدياي الصغيران القبيحان هذان؟ ماذا فعلت بهما طول هذه السنين؟

سأكتب لكم الآن قصتهما ـ هذه القصة التي لم أستطع أن أحكيها لأم بشير. أم بشير حكت لي كل شيء تقريباً. وكانت

حكايتها بسيطة جداً. فعندما تزوجت أعطت لأبي بشير كامل حقوقه في جسدها. وعندما عاينت رضاه، رضيت هي الأخرى ـ فرجلها لم يكن لديه ما يشكو منه.

أما قصتي فليست من النوع الذي يمكن أن يُسِرّ به أحد لأحد. إنها قصة تعشش في العادة داخل جدران المحرمات، ويجب أن تبقى هناك فلا يقلق راحتها أحد. المحرمات هي دروع النفوس. هي الجمجمة الحقيقية لعقولنا. إذا انفكّت جدرانها انشطرت الأدمغة وسالت على الرمال. ولكن لماذا الفذلكة وكثرة الكلام؟

ليلة الزفاف. سأترك كل القشور: الفرح والرقص والناس والصور، في ذلك البيت الصغير الذي تركته أخيراً، الذي كان شرنقتي، ورفض الاحتفاظ بي مدة أطول مما تقرره «الطبيعة».

ليلة الزفاف. ركبنا سيارة الزفاف. وراءنا أربع سيارات أخرى! يا للبذخ! درنا عدداً من شوارع المدينة. ومررنا أكثر من مرّة بجوار النهر والأزقّة القديمة. أخيراً وصلنا إلى بيتي. ترجلنا من السيارات ودخلنا، وسط غيمة من الأصوات والصيحات. وإلى أن وصلنا إلى الباب في الطابق الثالث كان الرجال من المحتفلين ما يزالون يرددون في الشارع: «شنٌّ إگْليله. شنٌّ إگْليله. الله يعينه على هالليلة!..».

ليلة الزفاف..

لم يكن بيت عبد الصمد بارداً ولا حاراً في ذلك الصيف

الذي لم يكن كغيره من الصيوف. ولم أكن قد دخلته بعد (رغم كل المحاولات المستميتة من قبلهم، ورغم نقل ملابسي وحاجياتي إليه منذ فترة). ولم تراودني رغبة في رؤيته وأنا ألج المدخل الصغير، المنفتح يميناً على مطبخ، ويساراً على غرفة استقبال. ولم أستعجل الدخول. لأني لم أعرف ماذا أفعل بعد كل خطوة خطوتها: هل سأقف أم أخطو خطوة أخرى.

لم أشعر أنني هناك.

رأيت أول كنبة فمشيت إليها بما يشبه السرعة، بعد تلك الخطى البطيئة. جلست. نظرت حولي، لا على التعيين. لم أدر ماذا أفعل. ولم أرد أن أفعل شيئاً. لم أكن أنتظر شيئاً. وانتبهت إلى أنني صرت أشبه بزائرة تترقّب فنجان القهوة.

انتبهت إلى أن عبد الصمد قد غاب عن عيني. ثم طنّ الصمت في رأسي. عبر لحظة خاطفة كالومض، أردت أن أخرج من البيت. كنت أعرف الطريق... أخرج من البناية كلها، إلى أي مكان في ذلك الصيف.. إلى النهر، ربما، بمياهه الدافقة الآن بعد ذوبان الثلوج، مياهه التي تذهب بعيداً، بعيداً، ثم تصل أخيراً إلى البحر.

ظهر عبد الصمد. جاء من المطبخ حاملاً صينية عليها فنجانا قهوة. «أعرف أنت تحبين القهوة»، قال مبتسماً تلك الابتسامة، «مع أن المفروض أن نشرب شراباً».

أحسست ببعض الحرج. كنت فعلاً أترقب القهوة، ولكن لم أشأ أن أكون ثقيلة الوطأة. أوشكت أن أقول له إنه ما كان مضطراً لكل هذا العناء. غير أني آثرت الصمت. يجب ألا أحشر أنفي في أمور الضيافة. إنه على كل حال فنجان قهوة لا أكثر.

كان الصمت كثيفاً، وخاصة في الخارج. وقلت لنفسي إنه سيكون خروجاً مربكاً في هذا الليل. وسمعت المسمى عبد الصمد يقول شيئاً عن غرفة الاستقبال المفتوحة على الصالون.. شيئاً مثل بناء جدار فاصل بينهما، أو تركيب باب أكورديون.. ثم تأجيل ذلك حتى يشاورني ويعرف رأيي.. يا للغرابة!

نظرت إليه وأنا أكتم دهشتي. ومرة أخرى فضلت ألا أحشر أنفي. قلت له إنني شخصياً أتمنى لو تبنى البيوت بدون أية جدران في الداخل على الإطلاق. وسرعان ما جاءني جوابه المنطرب، مع ابتسامته تلك: «كيف هذا! وغرفة النوم؟».

أحسست بيد شجية تهزني وتزيل عن عيني غشاوة. نظرت وإذا بي مرتدية ثوب الزفاف. رأيتني خاثرة العقل. وبحركة فطرية مددت يدي إلى رأسي. ولمست الشكلة هناك وقطعة الدانتيل.

هتف عبد الصمد بخشية مرحة، وهو ينظر إلى يدي على

رأسي: «ليس هنا!» ثم أضاف «أنت لم تتفرجي على البيت. تعالي تفرجي على البيت».

كانت الغشاوة قد انسدلت مرة ثانية على عيني، فتحيرت على ماذا أيضاً سأتفرج في هذا البيت قلت: «البلكونة حلوة، كأنه..».

لم يفهم أني فضلت تناول القهوة في البلكونة. نهض. مد لي يده: «قومي نتفرج على البيت».

لم أدر ماذا أفعل. لم تكن غشاوة وحسب. وإنما نوع من التعطل. إذ فجأة أمسيت لا أفهم شيئاً وإذا فهمت فبلا مقدرة على فعل شيء. رغم هذا تحاملت على نفسي وقمت. عندما حللت في بيت منيرة قبل عامين ونصف، تلبّستني الحالة نفسها. أحسست يومها بضرورة التخفيف من ثقل وجودي إلى أقصى حد، رغم أن الأربعة الذين حولي كانوا أصدقائي، لا غرباء.

قال عبد الصمد: «ما لك يا سلمى؟ أنت مستوحشة بزيادة. هذا بيتك!» ومد يده إلى يدي. أبقيت يدي لصق جسدي. ولكي لا تصل يده إليها، تحركت إلى الأمام. كلماته وصلتني باردة. بل إنها تجمدت حولي ولم تصل إلا أصوات تشبه أصوات الرياح في عاصفة ثلجية. مشيت كأني أخترق زحمة من البشر. دخلت باباً، ثم ممراً صغيراً، ووجدتني عند غرفتي نوم، بينهما حمام.

في تلك البرهة اقترب عبد الصمد مني اقتراباً خارقاً. ودون أن أدري ما أفعل، دفعته عني بحركة دفاع غريزية فترنح إلى الخلف، ولولح بذراعيه كي يحفظ توازنه.

التعطل والغشاوة، وكل حالات الخثر هذه، انزاحت مني فجأة، لأنني فجأة رأيت نفسي بهيمة محاصرة. فجأة وعيت لسلمى أخرى، حضرت لا أعرف من أين. رأيتني حيوانة وقعت في وهدة من الأرض، وانطبقت فوقها شبكة معدنية، لكنها صممت أن تدافع عن نفسها داخل تلك الجدران القصيرة الضيقة. فقط، كان لا بد من الانتباه إلى عبد الصمد، فقد اشتعلت عيناه، ولم يبد أنه عازم على تقديم صورة للعريس الذي نشاهده في أفلام السينما والتلفزيون.

مرت خمس أو ست ثوان وأنا أواجه ذلك اللهيب في عينيه، قبل أن أفهم أنه لهيب فرح وتحدّ. بل ولعله كان هكذا منذ البداية، بينما ظننت أنا أنه لهيب غضب لكرامة مهدورة. مرت ثوانٍ أخرى وأنا مشوشة، ثم ظهرت ابتسامته فتيقنت.

بدا عبد الصمد مستعداً للحركة، وراغباً تماماً في إثبات رجولته وتفوقه وقدرته على الظفر بي بالقوة وقد اختصرت حركتي العنيفة مقدمات مزعجة وأعفته منها. اللباقة، الليونة، الدماثة، كانت مناوشات محارب لا يعرف كيف يبدأ باختراق صفوف عدوّه. الآن، وقد بادرته بالهجمة الأولى، بات في حلٍّ من المقدمات.

تقدم مني برباطة جأش، وبابتسامة كشفت عن لثته الكاوتشوكية، وبانطلاق وعفوية، دفعته، فتوقف لحظة واحدة، ثم تقدم. دفعته. توقف وتقدم. لم يختف الكاوتشوك. على العكس، بدت ابتسامته وكأنها ستستمر إلى الأبد، ومعها ثقة متلألئة، وحس بالظفر والاجتياح. سيماؤه تلك أذهلتني، وأخملتني. ما الذي يحفز فيه هذه السعادة وهو يتقدم كالمغتصب نحو امرأة ترفض إعطاءه جسدها؟

أتاحت له لحظة انذهالي فرصة أكبر لتضييق المسافة بين كل دفعة من يديّ ودفعة. ظل يقترب، يقترب. يرجع خطوة ويتقدم خطوتين. ويقترب.

ثم أدخل يديه بين ساعديّ الممدودين لدفعه ففتحهما وأطاح بهما جانباً، اليمين إلى اليمين، واليسار إلى اليسار. وللتوّ انتصب جسمه في المكان الذي كان ساعداي ممدودين فيه، وبعدها صارت يده حول ظهري وخاصرتي. كانت النشوة الشبقة تشع من عينيه. شدّني فأطبق صدري على صدره وأحسست أني قد غصت فيه. كم هو بائس ألا يكون صدر المرأة كبيراً، فيجعلها آنئذ على مسافة أبعد من خانوق الرجل!

غريب عقل الإنسان. حتى وهو يتلقّى ضربة سيف على العنق، يظل في لحظة هاربة قادراً على التفكير بأشياء أخرى. والشيء الآخر الذي خطر على بالي في تلك اللحظة هو أن

صدري الصغير سيجعل حركتي أسهل إذا ما تمادى عبد الصمد وأصر على اغتصابي.

عقله هو كان يعيش لحظة مختلفة تماماً، لها شَيْؤُها الآخر هي أيضاً. ففي حمأة ذلك العنف، وفيما رأسي يهوي على كتفه بقوةٍ شدّه لي، رأيت عينيه تغمضان، وتحسست أنفاس فمه تطفو على وجهي الأيمن. لم تمض ثوانٍ إلا وتحقق حدسي. فبينما راحتاي تشدان بصدره إلى الخلف، امتدت يده الأخرى إلى رقبتي وحاولت فتح سحّاب فستاني.

لم أعد أدري ما تفعل يداي وركبتاي وأسناني. حركتها كيفما اتفق. حركتها في كل الاتجاهات، وبجميع أنواع الحركات.

ماذا حدث بعد ذلك؟

هناك فجوة في الذاكرة. لا شيء يطمس الذاكرة مثل العنف: إنها قلم يسجّل، وهو ممحاة تمحو. لا يكفي أن أقول إن معركة جهنمية نشبت بيننا. لأول مرة في حياتي أضرب وأركل وأعضّ وألطم. هناك مئات التفاصيل التي لا أعرف كيف بدرت مني، ولا كيف أضعها في أوقات حدوثها. كنت في الحادية والعشرين، وكان عبد الصمد في الحادية والثلاثين. وبوسع كل منا أن يُخرج من العنف الحدّ الأقصى الذي يمتلكه الإنسان. غير أنني لا أذكر ما حدث.

أذكر فقط التفصيل الأخير لفوران العنف: يدا عبد الصمد

تمسكان بزندي وتطوحان بي، ليخلص من عضّتي لترقوته، فأطير إلى الخلف وأصطدم بالجدار، بينما يتطوح هو من شدة عزمه. لطمت بالجدار. همد جسمي عليه برهة، ثم هوى على الأرض. وتماماً حدث الشيء نفسه لعبد الصمد.

كانت رئاتنا كالمضخات. أصوات الشهيق والزفير التي أطلقتها أفظع من أصوات الإنذار في سيارات الشرطة. وكان صدرانا مثل سقالتين تعلوان وتهبطان بين طابقين.

مسافة لا تقل عن مترين فصلت بيننا. أحسست بأمان هائل. سيكون على عبد الصمد أن يستنجد بالغيلان على الأقل كي يمكنه الاقتراب مني. وتلك كانت سعادة. كل ذلك الزحير في حلقي، والتميّع في بدني، أخذا يقطران سعادة وضراوة. فهذه هي المحطة الأخيرة: هنا لم يعد أيّ تنازل ممكناً. ولم تعد ثمة سلمى غير سلمى التي أسفرت واشتغلت، وأطلّت على الحب. سنتان كاملتان وأنا أصغر وأنكمش، أترك أرضاً فيسارعون إلى احتلالها. الآن وصلت إلى الأرض الأخيرة، إلى التنازل الأخير الذي لن يكون بعده تنازل. وسيندم عبد الصمد بوفرنين.

نظرت إلى حالي. كان الفستان الأبيض قد صار خارطة. وأحسست بشعري منفلشاً حول أذني وجبيني. مسحت عليه بأصابعي. أحسست ببرودة تلفح إبطي فنظرت، وإذا كمّا الفستان منخلعان من الكتف إلى الإبط عند الظهر.

نهضت لأتفقد الفستان وأرى إلى تمزّقات أخرى يمكن أن تكشف عن جسمي. لكن جسمي لم يرض بالنهوض. صار أشبه برحى الإسمنت في رافعات الأبنية. تحاملت عليه. كان يجب أن أنهض. وعندها أخذت إبر تنطلق فيه بغزارة المطر، وتخترق لحمي كشهب نارية.

وها هو عبد الصمد أمامي، وجهاً لوجه. مبتسم، وتلك الكتلة اللدنة ممطوطة حول أسنانه. رفعت سبابتي بوجهه: «لا تقترب!» صحت به. وكان وجهه مشطباً ومدمّى.

قال: «لا بد من قطع رأس القطة». وكانت يده قد صارت حول خصري.

بدأ العراك من جديد. دققت ذراعيّ عمودين في صدره. وبدأت المناوشات الصغيرة وبسرعة البرق صارت التحاماً وحشياً.

رغم الشهادات الجامعية والحياة الجامعية، والثقافة، والتلفزيون، ولجنة العفو الدولية، والأمم المتحدة وحقوق الإنسان.. صرنا كلانا في الوضع التالي: رجل يعتقد أنه بموجب ورقة مختومة يمتلك الحق المطلق في أن يفضّ بكارة امرأة، وامرأة تعتقد أنها تمتلك الحقّ المطلق في منع هذا الرجل. لا دبلوم المحاسبة الذي حصل عليه قبل سبع سنوات، ولا السنة الأخيرة التي وصلت إليها في كلية الهندسة، كان لهما أية فاعلية.

لا شكّ أن أمي، أو أمه، أو ربّما كلتاهما معاً، أوصتاه بقطع رأس القطة في أول ليلة، بل وربما شارك خالي في تقديم النصيحة. لقد فعلوا لأجله كل ما استطاعوا فعله. لقد روّضوا له المهرة حتى جعلوها تدخل حظيرته من تلقاء نفسها. والذي بقي مسؤوليته هو وحده. وإذا لم يثبت رجولته من أول يوم، فهو لن يثبتها أبداً.

أظن أني يجب أن أذكر هذه الأمور التي لا يذكرها أحد. يجب أن أقول إن البشرية ما تزال ترزح تحت وطأة محرّماتها. ليست إليزابيت تيلور هي كل نساء العالم، فالنساء ما زلن يرزحن تحت وطأة استباحاتهن. ولا يقل لي أحد شيئاً عن الشهادات، ولا عن الملابس القصيرة، والسهرات الصاخبة، وميادين العمل. . .

حسناً إذن. بدأ العراك من جديد. بادىء الأمر كان همّ عبد الصمد هو ظهري: السحّاب. لذلك صار همّي أنا أن أمنع يده من الوصول إلى هناك. وبالتدريج صار كل منا يزيد من كمية العنف والوحشية لكي يهزم قوة الآخر. صارت اللطمات أسرع وأوجع. تماسكنا بالأيدي مرة واحدة، لكنه أسرع يفلت مني لئلا أوقف حركة يديه.

كذلك صرت أتخلّى بالتدريج عن حساباتي الذهنية، وخاصة حسابات العاقبة، وحجم الأذى على الطرفين. ورأيتني أضرب وأضرب. وتخلى عقلي عن حساب أين ستقع الضربة

التالية. بقيت شبه منتبهة فقط إلى الجدوى: كان يجب ألا أضرب ضربة خائبة فأهدر قوتي بلا مقابل.

لا أدري متى أمسك عبد الصمد أخيراً بشعري. صرخت. حتى تلك اللحظة، كان ما يزال محتفظاً على الأقل ببعض حسابات عقله. لعله تعب هو أيضاً. التقطت يده شعري، وفوراً صرخت وصار جسمي كله رهينة قبضته. أحسست أن فروة رأسي ستنخلع. صرخت ورحت أشتمه بالنعوت وبأسماء الحيوانات. مد يده الأخرى إلى ظهري. لم أدر كيف غاص مرفقي في بطنه. صرخ. انقض علي. كان ما يزال ممسكاً بشعري. وهوينا على الأرض.

سقطت على وجهي، وسقط هو فوقي. تعبّطني وراح يقبّلني بوجهي ورقبتي، ويدسّ يديه تحت صدري. انفتحت في واعيتي فجوة. مجرّد ما أحسست به فوقي، طار صوابي. لم يبق في رأسي سوى فكرة واحدة: إن مرفقي سلاح فعّال. وتسلطت الفكرة عليّ تماماً. لم تبق في عقلي ذرّة لم تنشغل بكيفية استعمال مرفقي. وقد أعطاني انشغال عبد الصمد بتقبيلي وضمّي فرصة لتسديد مرفقين فظيعين إلى خاصرته.

تلك الضربتان أوصلتا عبد الصمد إلى أقصى درجات عنفه. هو الآخر رمى بعقله في واد سحيق تسكنه الوحوش الضارية والأبخرة السامة. صار كلما وقفت على ركبتي يلكمني في بطني فأقع على الأرض. وكلما وقعت على الأرض التقط

بيده صدري، وبيده الأخرى خدّيّ لكي يقبلني من فمي، أو هوى على خدي بالصفعات. وعندها أغرز مرفقي في بطنه كالحربة، أو في صدره، أو وجهه، فيصرخ، وأبتعد أنا، أقف على قدمي، فأراه أمامي...

من أين جاءتني تلك القوة؟ أنا التي أخاف من كتكوت صغير إذا نفر بوجهي! ولم أمارس في حياتي كلها أية رياضة. ولم أركض كيلومتراً واحداً منذ عشر سنوات. ولم أتعب في أكثر من غسيل الملابس الوسخة... من أين جاءتني هذه القوة كلها؟

أنا لم أهزم عبد الصمد. وكان مستحيلاً أن يهزمني. أعتقد أن فكرة ما جعلته يتوقّف، وليس الإنهاك واللهاث والوجع - كل هذا لم يكن أي منا يحسّ به. كنت مطروحة في الركن الأقصى للغرفة غير قادرة على النهوض، ولكن متحفزة تماماً للركل بقدمي. ورأيته يهدأ وهو متكىء على راحة يده اليمنى ونصفه الأسفل متعرج على الأرض. مطرق، عيناه ولهاثه وعرقه تنصبّ على البلاط.

حسبتها هدنة أخرى. لبثت ألهث وقد صارت قصبات صدري أخدوداً من الرمل، يعبره سيخ محمّى من هواء الصحارى.

لم أتحرك عندما رأيته ينهض. شيء ما في امتناعه عن

النظر إليّ جعلني متأكدة أنه لن يستأنف القتال. وقف على مهل. والتفت ماشياً نحو الباب.

جبل من الجليد تفجّر في أعماقي. تفجّر مليون نثرة. وطارت شظاياه في جميع أنحاء جسدي. أحسست بآلام مبرحة، وبما هو أكثر: بأن كلّ هذا الكابوس الذي أعيشه نوع من اللامعقول الذي سينجلي بالتأكيد وإلاّ خنقني. أنا سلمى - التي حلمت بإقامة عمارات، وتصميم حدائق، وحلمت بإجازات تقضيها في إيطاليا، وبحبيب معظم مواعيدها معه ستكون في بيتنا... سلمى هذه لم أعد أملك ما أقدّمه لها سوى هذا الجبل المنفجر الذي اتخذت شظاياه دروبها عبر عينيّ المغمضتين.

بعد قليل تحاملت ونهضت أنا الأخرى. كان البيت غارقاً في سكون المقابر. لم أدر أين وقعت الساعة من يدي. تجرجرت إلى الباب وأغلقته. رجعت إلى النافذة وفتحتها. رأيت أضواء المدينة البعيدة. تأكدت أن بيت عبد الصمد يقع في منطقة سكنية ما على تخوم المدينة. ولكن كم الساعة؟

تهالكت على السرير. أخذ الإنهاك والوجع يرسلان شواظهما في رأسي. هنا وهناك في جسمي أنّت مواقع، أو صرخت بالألم. وأحسست في أرومات شعري دبيباً كوخز الإبر.

من مكان بعيد وصلني نداء: «الله أكبر. الله أكبر!»

كبّرت. قرأت الشهادتين، وتمتمت «يا رب! ساعدني!».

أصخت السمع. خطر لي فجأة أن عبد الصمد سيفتح الباب ويهجم عليّ. تجرجرت إلى الباب، ووضعت أذني عليه. كان الصمت كثيفاً إلى حدّ القلق والريبة. بهدوء، فتحت الباب قليلاً. هبّت عليّ موجة من ذلك الصمت. خفت. خرجت إلى الممرّ، فإلى فتحته مع الصالون. ومددت أنفي.

كان عبد الصمد يهيّىء نفسه للصلاة. السجّادة المستطيلة الصغيرة أمامه، وهو يسوّيها على خط الشمال/ الجنوب. ارتددت إلى الخلف بحركة لاإراديّة. ثم دفعني الفضول. اقتربت ومددت أنفي ثانية. أجل. إنه يصلي. وها هو عاقد اليدين إلى الأمام.

عدت بسرعة إلى غرفتي. أغلقت الباب. وجدت له مزلاجاً صغيراً فدفعته داخل حلقته. ارتميت على السرير. في مرآة التسريحة، رأيت شكلي وأنا أهوي. نهضت.

أين ملابسي؟ فتحت الخزانة إلى اليمين. فتحت الأدراج. فتحت بابَي التسريحة. أخيراً وجدت بيجامة حريرية تحت وسادة السرير.

كان فستان الزفاف قد بات في ذمة الذكرى. نزعته عنيّ ورميته على البلاط. وأعتقد أني قبل أن أرتدي البيجامة..

على الأقل، قبل أن أصل إلى السرير وهي عليّ. . كنت قد غفوت.

أفقت بعد الظهر. لا شك أني، لو تناولت عند الفجر شيئاً من الطعام، لما أفقت حتى اليوم التالي. ولكن، كلا. الحقيقة أن الخواء في جوفي شَابه معصرة، غير أنه لم يكن وحده سبب إفاقتي. أحسست أيضاً بحراب ذات حدّين تعبر سائر أنحاء جسدي، ولولاها لما كنت أفضل حالاً من جثّة هامدة.

تفحّصت الغرفة حوالي دقيقة. ثم تذكرت أين أنا.

إنه اليوم الأول من زواجي. وأنا في بيت الزوجية.

لبثت نصف متمددة على السرير، أفكر لبعض الوقت في ماذا ستكون خطوتي التالية. في القصص التي قرأتها، تقرر البطلة قراراً كبيراً ومصيرياً. فإما ترك البيت (وقد قمت فلبست فستاناً عادياً لهذه الغاية)، وإما القبول الباكي بهذا القدر التعيس مع رفع الراحتين نحو السماء طلباً للعون ولإنزال أقصى العقوبات بالذين كانوا السبب.

الحياة الحقيقية ليست هكذا. في الحياة الحقيقية أنت لا تتخذين قرارات حاسمة ومصيرية. هناك نوع من الزوغان تقدمه لك اللحظة الراهنة للحياة اليومية. هناك ترتيب ما للحياة، إرادي وغير إرادي، يجعلها تمضي ثم تمضي، يجعلها تنصبّ على هذا الشأن الصغير، أو تلك الحالة

الصغيرة، أو هذا الاهتمام العابر، أو تلك المفاجأة العابرة.. أو الزيارة العابرة، أو الحديث العابر، أو الانشغال الصغير العابر.. أو حتى على الزوغان من المشاكل الكبيرة.

توقعت أن عبد الصمد سيقول لي، عندما أخرج إلى الصالون، إن حياتنا معاً مستحيلة، وإننا يجب أن نصل إلى حل قاطع وسريع. كان بديهياً بعد عنف الليلة الماضية وهمجيتها أن كل إنسانية بيننا قد دُمرت، ولذا فسنجلس معاً كاثنين من العقلاء المتعلمين ونتصرف بموجب استحالات حياتنا.

لبست الفستان وخرجت حافية إلى الصالون. أحسست جسدي مفككاً، وكل حركة منه ترسل فيه حربة. ساعة الحائط أشارت إلى الثالثة. وفي الشرفة أشارت جلسة عبد الصمد إلى أن الساعات التي أمضاها هناك كانت بطيئة للغاية.

بحثت عن ممشاة أنتعلها. أين توضع الأحذية في هذا البيت؟ لم أجد شيئاً في الصالون. عدت إلى غرفة النوم. وطبعاً لم أجد شيئاً. تزايد وجعي من الحراب، وإحساسي بالتهالك، ثم بانفراك في معدتي كأنها يلتف بعضها على بعض. مشيت إلى المطبخ الذي شاهدته ليلة البارحة. كان مطبخاً سيّىء التنفيذ سيّىء التصميم. رأيت على الرخامة أربعة صحون مليئة بالطعام، وصرة خبز. كأنني في واحدة من قصص ألف ليلة وليلة.

هل آكل في بيت عبد الصمد؟ هل آكل من طعام دفع هو ثمنه؟ إن هذا اعتراف وقبول. تسليم. وماذا أفعل إذا لم آكل؟ أنا لا أستطيع مجابهة العنف بالعنف مرة ثانية. فلأمتنع عن تناول طعامه على الأقل، لأن المقاومة السلبية هي وحدها التي بقيت لي.

قررت ألا أتراخى. سأتناول رغيف خبز فقط. ولن أمد يدي إلى الصحون المليئة (بالحمّص والفول والكبد المقلي والمخللات).

«صباح الخير» من عبد الصمد، الذي دخل فجأة، أطارت كل شيء من رأسي. جمدت بأرضي. ثم رأيته يحاذيني وينحني. أمام قدميّ وضع خفاً ذا كعب اسفنجي. تراجع خطوتين واتكأ على إفريز المغسلة.

لبست الخف. وبعدئذ لم أدر ماذا أفعل.

«تحبين أن نأكل على الشرفة؟».

في بيتنا، أعني في بيت أم عبودة، لم تكن عندنا شرفة. وقلت لنفسي إن وجودها هنا ربما كان أفضل لأن نجلس ونتفق على حل للمشكلة.

نظرت إلى الخف ورأيتني مقيدة القدمين به. خلعته من قدمي. والتفت عائدة إلى غرفة النوم.

اندفع عبد الصمد واعترضني. تقدمت كأن أمامي شخصاً لا

علاقة لي به. وأخذ هو يتراجع أمامي: «أنا آسف»، قال: «أنا أخطأت. هذه الأفكار العتيقة.. خلص انتهت...» وقال كلاماً آخر ودعاني إلى الطعام. وأقسم أيماناً، وأعلن أن كل شيء سيتم وفق ما أريد.

وقف بباب الصالون وهو ما يزال يتكلم. أخذ يهز بيديه وذراعيه، والخف يلولح بيده اليسرى. بدا متلهفاً لإيقاف دخولي إلى غرفة النوم، أو تأجيله حتى يظفر مني بالمغفرة. داهمني مدّ من البكاء لحظة أحسست أني في مأمن من العنف، انفلت ضعفي وتكاثف في عيني. مثل الموج فاض عليّ ذلي وقهري الليلة الماضية. واحتقن ذلك الموج في عيني وصدغي.

لم أبكِ. أحاسيس الذل والقهر تحولت بلمح البصر إلى مشاعر غضب، والغضب جفف عيني وجسدي. لا، لم أبك. جاءتني رافعة الغضب فانتشلتني من وهدة البكاء.

عبد الصمد هو الذي بكى. التصق زنداه بخاصرتيه. امتد ذراعاه إلى الأمام. وانفتحت يداه نحوي، وإحداهما تحمل الخف. راح فمه يتكلم وعيناه تغرقان بالدمع. لا أتذكر ماذا قال. ولا أريد أن أتذكر. الشيء الوحيد المهم هو أنه دمغ نفسه في نظري إلى الأبد. لا لأنه بكى. عقلي ليس من النوع الذي يحتقر بكاء الرجال. وإدانتي لعبد الصمد لم تصدر

لكونه قد بكى. بل لأن ضعفه هذا كان اعترافاً بالظلم. والظلم هو أقوى آلام البشر.

سمح ضعفه لجسدي بالإفراج عن أوجاعه. كان جسدي يئن بمعنى الكلمة ـ الآن وقد تأكد أنه لن يواجه حملة عنف ثانية. وكانت فيه مخارز تتحرك ببطء وبسرعة، على التوالي.

أشرت بيدي أطلب منه ابتعاده عن طريقي. قلت: «أنا تعبانة. أريد أن أرتاح».

دخلت غرفة النوم ورددت ورائي الباب. تمددت على السرير. انحسر فستاني عن ساقي. في تلك اللحظة تذكرت أن عبد الصمد هو زوجي الآن. زوجي. أنا التي ما زالت دوائر نفسي مغلقة تماماً ولحم جسدي نائماً تماماً، صار لي زوج. وتذكرت أن هذا الزوج يريد أن يفكك محيط دائرة أو اثنتين من نفسي ويدخل. ويريد، حتماً،أن يمتلك لحمي. هدأ وجعي لأن قشعريرة ثلجية جمّدته، وتجمّدت فيه، ورفضت أن تنحسر. تذكرت أني الآن لست مجرد سلمى بنت محمد بوشهده، وأني زوجة عبد الصمد بوفرنين. مدام بوفرنين!

انطرحت على وجهي وأسلمت صدري للبكاء المرّ. لقد وقع الخطأ وفات الأوان. لو لم يقع ذلك الخطأ لقلت إنهم زوّجوني بالقوة. حتى آخر لحظة كان بإمكاني أن أقتلع «اللا» من حلقي وأسمعها للمأذون. بقيت الصرخة داخل حلقي. وفيما بعد نزلت إلى رئتي وقلبي. ولم أقل: لا. إذا كابرت

الآن وتابعت التحدّي، فماذا سيحدث؟ بيت أم عبودة لن يقبلني أبداً. إلا جثة هامدة. ولن يقبلني أي صاحب عمل في عمله. لو أستطيع فقط أن أشتغل.

استسلمت عيناي لبكاء مرسل طويل. إنني الآن زوجة، ستّ بيت. أحسستني قادرة على أن أملك بالدمع كل بركة الصمت والسكون التي هويت إلى قاعها.

انفتح الباب ودخل عبد الصمد. كان يحمل صينية عليها صحون الطعام. هببت عن السرير. وهتفت: «ما هذا!» توقف ونظر إلي بدهشة. ثم اعتكرت ملامحه وقد تيقن أني مصممة على الإضراب عن الطعام.

هتفت: «نأكل في غرفة النوم! كل شيء سيتّسخ».

لم يتراجع، بل تقدّم. انتفضت وقمت إليه. قلت وذراعي تشاركني الكلام: «في الصالون في الصالون! أو البلكونة!» وقد خطر لي أنه لن يرهقني هناك بحديث يسمعه جيراننا الأقرب. ابتسم هو بسعادة.

وهكذا تناولنا الوجبة الأولى معاً. كنت منهكة بالكامل، ولم يخطر لي أي مغزى لما فعلته.

حتى مجيء الليل لم تحن مناسبة لمناقشة «المشكلة». كانت «المشكلة» تضطرم وتتقلب في ذهني، بينما حواسي الخمس ولساني وقدماي أشياء أخرى تماماً. تبادلنا لغة

متقطعة، مبتسرة، بلهاء. لكن مسافة عنيدة ظلت قائمة بين اللغة والمشكلة.

ثلاثة أيام أخرى. في الليالي نمت وحدي وأوصدت علي باب غرفتي. وفي النهارات تحركنا في البيت بلا هدف. في الغرفة كنت أتفرج على جسمي، وأتفرس في الكدمات الزرقاء المتفشية عليه، والانتفاخات التي خلفها العنف. كان عنقي منظراً مفزعاً، وكان ظهري مثل جرح متقيّح. بصورة خاصة آلمتني مفاصلي، وعمودي الفقري.

لم تنقص المسافة، تدبّرت مئة مناسبة. غير أنه لا اللغة حضرت ولا اللسان اشتدّ للحديث. وبدلاً من حوار وجيز عن مستقبلنا، تشتّتنا في حركات وأفاعيل صغيرة ثلاثة أيام. في الحقيقة، كان شيء في أعماقي، وفي بدني أيضاً، محتاجاً للسلام، وللراحة من الضغط والحصر.

وكان عبد الصمد حريصاً بالكامل على الهدوء والوداعة. كان أقرب إلى الخادم منه إلى الزوج - يلبي كل طلب، يستوضح عن كل رغبة، يقوم بالأعمال الأصعب في المطبخ. . . كان أمامه واحد وعشرون يوماً (إجازة زواج وإجازة عادية معاً)، ولا شكّ أنه اتفق مع الجميع على ألاّ يأتي أحد لزيارتنا. . قبل أسبوع مثلاً.

كنت ما أزال محصنة ضده بأسوار اشمئزازي القديم منه. لم يخطر على بالي أبداً أن ارتدائي قميص البيت سيكون له

أي معنى سوى الاستمرار في عادة راسخة. ثم اضطررت إلى الملاحظة، على الأقل ـ ملاحظة أن عبد الصمد يقترب مني، وبكل عفوية ويسر، فيحاذيني، أو يوشك أن يتلامس معي، أو حتى يمسك بيدي لسبب أو لآخر. . ملاحظة أن نظراته تسقط على رقبتي وزندي، عليّ بأكملي كشهب مشتعلة، وأن وجهه يظل كظيماً مرتبكاً عندما تنغرز عيناه في لحمي ويضطر إلى الحديث معي.

انتباهي الأول الكامل إلى مقاربات عبد الصمد هذه أرسل دوخة صغيرة في رأسي: هي خوف، هي غثيان. . لست أدري. هي أي شيء سوى كونها مستحبة، ناهيك بكونها مبعثاً على الرضى والغرور. طبعاً أنا معتادة على نظرات الغرباء. وفي مدينتنا لا شغل للرجال سوى البحلقة والتفرس في البنات اللواتي لا يستطعن أن يفعلن شيئاً ولا أن يتعاملن بالمثل. لكن نظرات وائل لم تكن هكذا. وائل نظر إلي كأنني شغيلة، مهندسة مثلاً، رفيقة عمل. . أجل رفيقة عمل يثق بها ولكن لا يسنّ نظراته على لحمها.

في النهار الثالث تكهربت نفسي تماماً. أصبحت شهوة عبد الصمد حضوراً رازحاً. مع وائل لم أشعر أبداً بهذا الحصار. وما أكثر ما اغتظت منه لأنه لا يوليني اهتماماً بالقدر الذي يكفي لارتياحي إلى شكلي وجاذبيتي. أما هنا، في ذلك البيت، فقد أحسست بالانغلاق وبأن هواء البيت الراكد أخذ ينث رائحة العطن والتفسخ.

لم أعد أذكر في أي ليل دخل عبد الصمد غرفتي وجلس على طرف السرير. كان يرتدي بنطلون البيجامة فقط، وعلى صدره شيّال. أحسست بحرج، كأن ستري قد انكشف. جلس ووجهه خالٍ من الكلام، أللهمّ إلاّ إذا اعتبرنا تلك الابتسامة الفظيعة العريقة كلاماً. غير أنه حفل، احتقن، بالشهوة، بالرغبة الصماء العمياء أن لا يضيع مزيداً من الوقت قبل أن ينعم بي.

لغة الجنس هي اللغة الخرساء الوحيدة التي يمكن فهمها بسهولة. كل عضلة، وكل لمحة، ترسل إشارة من إشاراتها. وبالنسبة لي، الفتاة التي لم يكن الجنس يوماً كتاباً مفتوحاً لها ولا درباً مطروقاً، تأتي الإشارة فتخمل عقلي وحركتي.

لم يطلب عبد الصمد الجنس. جلس وحسب. ثم سألني إن كنت نعسانة، وأجاب هو عن نفسه فقال إنه غير نعسان.

لملمت قميص النوم على صدري. قلت كي أتخلص منه: «أنا نعسانة». وعبَّرت أكثر عن نعسي فتثاءبت ثم تمطيت. وإذ لمحت وجهه، سقطت نظرته على إبطي كعتلة ذات شفرات.

ابتسم ورسم بحدّ كفه حيزاً طولياً من السرير يعادل الربع، وكان يقول: «أنا يكفيني هذا المطرح. أنا مثلك بحاجة إلى النوم».

نظرت إليه بفزع: «كيف! تنام معي في سرير واحد!».

لم يبتسم. تصلب وجهه تماماً. وخرج صوته بلا نبرة: «نحن متزوّجان. مضى أسبوع علينا».

لأول مرة أرى عبد الصمد شخصاً آخر. رأيته شخصاً مغايراً للمتأبط كاميراته والداخل إلى بيتنا، والوجه غير الوجه المبتسم بمسالمة هادئة وصوت نصف مسموع، والقامة غير القامة المعتدلة التي تهتز قليلاً أمامك بفعل الحرج والارتباك. رأيته عبد الصمد الذي هرس لحمي وعظامي ليلة الزفاف، والمستعد لأن يهرسها ثانية بعد أسبوع رغم أصوات الوجع التي ما زالت تصدر عنها.

لم أكن خائفة منه، فأنا لم أشعر أنه كان أقوى مني ليلة الصراع البدني تلك. بوسعي أن أطرد مني تلك الكيمياء التي تجعل الأنثى ضعيفة، وأن أجابه العنف بالعنف، وأصارع تماماً مثلما كنت في الصغر أصارع عند النهر وفي الحارات.

نفرت فقط من العنف. من الدخول الفظيع، المهين، المحقِّر، في دوّامة العنف، وفي دوّامة الحَيْوَنَة وضرب الجسد. ولأني وثقت أن دهراً سيمضي ولن يظفر عبد الصمد مني بطائل فقد اخترت درب المسالمة. هذه المرّة، جسدي كلّه سيلفظ كلمة «لا»، من جميع مسامّه.

اندسست تحت الغطاء، وأدرت ظهري لبقية السرير.

اندس عبد الصمد تحت الغطاء. رأيتني أتكتل داخل

جلدي في سكون مطلق لا حدّ له. مثل الصورة التي نشاهدها للجنين في رحم أمه. حاسة السمع سحقت بقية حواسي كلها. لم أعد أرى ولا ألمس ولا أشم.. فقط أتنصت. أصخت، وسمعت أنفاسه، وكانت محتقنة. ظلَّ يتنفس دهراً. لكنني عندما سمعت منه صوتاً آخر أحسست أن ذلك الدهر مر كثوانٍ فقط. صوت كالهسيس، كانسلال على عشب جاف لجسد لدن ناعم. وعندها صرخت.

ليس بسبب حاسة السمع، وإنما اللمس. لقد وصلت أطراف أصابعه إلى زندي.

هذا الزند الذي جعلته أم عبودة نبراس البشاعة والقبح. هو نفسه الذي وصفه عبد الصمد بعد سنة من زواجنا بالبشاعة والغلط. هو نفسه الذي قال عنه عبد الصمد ذات ليل إنه يثير الشهوة الجنسية. هذا الزند صار مدخلاً إلى جسدي.

صرخت. التفتّ إلى عبد الصمد بغضب وأنا أنهض فأتكىء على مرفقي.

اتكأ هو على مرفقه بهدوء. ورد على صرختي وغضبي بهدوء: «خلص، عاد. بودّنا نخلص من هذه المشكلة».

وإذن فهو مثلي يريد أن يخلص، ولكن المشكلة هي التي تختلف.

انطرحت على وسادتي من جديد. وفوراً وصلت أصابعه

إلي. انتفضت من جديد. هذه المرة لم يتكلم. أحسست بعينيه في العتمة ترمقانني بهدوء وانتظار. ميّلت رأسي فوق كتفي بازدراء، وقلت: «تأكد يا أخي العزيز أني لن أكون لك في يوم من الأيام. هذه مسألة منتهية. وإذا أردت الطلاق، فأنا مستعدة، وفوراً».

قبل أن أهوي على وسادتي نبرت: «ولا تمد يدك إلي مرة ثانية».

كانت أصابعه قد وصلت إلى زندي. يبس جسمي.

رأيت انحطاطاً ورخصاً أي رد مني على هذا الانحطاط والرخص. رأيتني خلال عام قادم كامل أدفع أصابعه عن لحمي، فيعود هو ويلامس لحمي بأصابعه. رأيت العملية كلها جحيماً، سقوطاً من النافذة في تلك الباحة الخلفية بمزابلها المستنقعة ورائحتها النتنة. وتذكرت أهلي.

كانت راحة يده مستقرة بكاملها على زندي. ولأني هدأت، تحركت هي. تحركت مستريحة، شغوفة، نشطة.

شدت على لحمي ثم أرخته. ومسحت عليه ثم شدت وأرخت، ثم شدت. السرعة، ومعها توتر متزايد. ثم نزلت إلى مرفقي. لماذا مرفقي؟ وحطت على خصري. هدأت. كانت ثقيلة. لم أتزحزح.

بخفة، بوزن كالريشة، تحركت من جديد. علت من

خاصرتي إلى نتوء الحوض. هكذا دفعة واحدة. ثم تسلقت وانساحت.

طعنت عبد الصمد بمرفقي في صدره، والتفتّ إليه. صرخ متألماً وشتم أبي. وصرخت أنا: «قلت لك، لن تنالني».

جلس في السرير. بهدوء هائج قال: «أنا معي عقد زواج، شرعي وقانوني. وسآخذ حقي حتى لو استعنت بالشرطة. المجتمع كله معي. والدولة معي». كان ينظر إلي بحمّى مغلفة. وقال: «خلصيني من دلعك ومراهقتك، أنا ما عدت أتحملك».

قلت: «لن أسمح لك باغتصابي يا عبد الصمد بوفرنين، ورحمة أبي. لن تنالني إلا وأنا جثة...».

ردّ هو بهدوء صارم: «أنا لا أغتصبك. أنت زوجتي، وسأنام معك هذه الليلة. أنت وافقت تكوني زوجتي. أرجوك سلمى، لا تخرجيني عن طوري».

صرخت: «لا، اخرج عن طورك. وقم واضربني. قم. اسمع لأقول لك: أنت لن تنال مني شيئاً لو عشت عمر الاسمنت. أنا وافقت كالحمارة، وأنا الآن لا أريدك. أنا يا أخي لا أحبك. لا أحبك. افهمها وخلّصني».

ارتميت على السرير بوضعي السابق، والتحفت.

صمْت. فقط، أصـوات تنفسنا. وصمت الليـل ليس أي صمت.

ثم صوت الانسلال ذاك، اللون الناعم، على عشب جاف. ويده على زندي مرة أخرى لم تضغط كثيراً. لم تتحرك كثيراً. فقط، طلعت ونزلت. بمقدار سنتمترين في كل اتجاه.

من ناحيتي، تخشبت على السرير. وبعد برهة، نزلت يد عبد الصمد نحو خاصرتي والأمكنة السابقة.

بقيت متخشبـة. وصـل جسـده إلى جسـدي ـ خشخشـة واحدة، حركة واحدة، وإذا به يصل ويلفح جسدي بوصوله. لم يلامسني. وصل فقط. كان خائفاً من مرفقي.

مئات السلاحـف بدأت تزحـف على جسمي وتتشبث بـه. وانفتل رأسي بدوار خفيف. مددت أصابعي خفية إلى حلقة الفراش وقبضت عليها. هكذا لن أقع إذا دخت، وهكذا لن ألتفت إذا جذبتني يده.

لم تجذبني يده؛ وصلت إلى ركبتي. أمسكت بقميصي ولـم تمسك بلحمي! سحبت القميص إلى الأعلى ـ ببطء وروية. أحسست أنني أنطرح عاريـة في مركـز المدينـة، وفي رابعة النهـار، وأن آلافاً من القـوارض أخذت تحـك أنيابهـا على جلدي.

وصلت يده بطرف القميص إلى مرفقي. أما أنا فمسمرت

مرفقي على كفلي. شدت يده القميص. شددت مرفقي. لأني قاومت، اندفع فيه مزيد من القوة: نترت يده القميص. شددت مرفقي. انزلق القميص من تحت مرفقي. شددت زندي على خاصرتي. سحبت يده القميص ووصلت به إلى إبطي. وصار هو الآن مضطراً إلى العنف كي يخرج القميص عن جسمي.

أخذت يده تشد وتضغط وتسحب.

عندها انطلق من صدري ذلك الصراخ - من سائر أنحاء جسدي. ذلك الجعير المتحشرج، النشيج العوائي، الذي تشقق في حلقي وانشعب. مرة واحدة فقط في حياتي أعولت ذلك الإعوال: في يوم من الأيام الأولى لوفاة أبي. بكيت عندما أخذوا وائلاً، ولكن ليس هكذا. بكائي مع عبد الصمد كان مرثية لحالي، أنعقها على قبر كرامتي وحبي ووجودي. وكان تصويتاً كالذي تطلقه الدجاجة دقيقة ذبحها.

لا أحد يستطيع أن يكون قوياً طول الوقت. كنت أعرف تماماً أن فطرتي عاجزة عن متابعة العنف. مستحيل أن نظل نتعارك ونتطاحن، ويفتك أحدنا بالآخر، لكي أمنعه من مقاربتي مستحيل. اليوم الأول أنهكني واستنزفني أسبوعاً. وبعدها صار كابوساً مرعباً لا أجرؤ على تكراره. ذلك العنف هدمني. لم يقطع رأس القطة، لكنه لوى عنقها حتى أوشك أن يحطم فقراته.

لم أعرف أن الرجال لا يهمهم قبول المرأة بهم بينما هم

يهمّون بممارسة الجنس معها. ظننت أن وقتاً ما سيجيء، وسيستحي عبد الصمد على دمه، سيحس بكرامته تخزه وتوقفه. فقط اللواتي يأكلن بأثدائهن لا يهمهن من ينام معهن. ظننت هذا الموقف مقصوراً على ذلك الصنف من النساء. أما الرجال فلا بدّ أن يهتموا بشعور المرأة تجاههم.

صرخت ونحبت لأني رأيت نفسي في ذلك الوضع. شهقت وبكيت لأني رأيتني تلك المرأة التي يجب أن لا يهمها من ينام معها. أعولت وعضضت وسادتي وجعرت لأني صرت تلك المرأة المرأة التي تُطعم ثدييها، وتأكل بهما.

ليست قوتي البدنية المنهارة هي التي منعت عبد الصمد من نزع قميصي عن صدري ورقبتي. شيء آخر فعل ذلك: جعل زنديّ على إبطيّ مثل قضيبين من الحديد في عمود إسمنت. شيء موجود في البدن وليس بدنياً. كان قميصي حصني المنيع. وقد صممت أن أمنعه من الانهيار.

كان عبد الصمد قد بدأ يصير زوبعة. وهذه الزوبعة لامست لحمي كله. هو لم يرغب في مزيد من العنف. ولا في مزيد من التنازل لي أيضاً. ترك القميص. كان القميص قد تجمع في دائرة صغيرة حول ظهري ونحري. الباقي أمسى عارياً.

ماذا يهم عبد الصمد إذا حُرم عشرة بالمئة من جسدي؟

بلمح البصر مد يده إلى المعور. وبلمح البصر مددت يديّ أنا الأخرى. وبدأ العراك الشرس.

لكن عبد الصمد لم يعد يطيق المقاومة ومقاومة المقاومة. بلمح البصر صار ملتصقاً بي. كان عارياً تماماً. يا للهول! متى؟ كيف؟ عار تماماً! وأمامه لصق ورائي. وهو فعلاً لم يعد يحفل بالقميص. بلمسة صغيرة متأنية جعل نهديتي تنفكّ، وبنترة واحدة دفعها نحو كتفي الأسفل.

صار مهموماً بالتقاطي وحسب، بالانجرار علي. وأنا لم أعد أعرف أي شعور أشعر ولا أي إحساس أحس، أو كيف أدير عقلي ورأسي. ماذا يفعل الإنسان إذا هاجمته الأفاعي والثعابين من ثمانية اتجاهات؟ كيف تكون حالته؟

لم أستطع الاحتفاظ بيدي ممسكة بحلقة الفراش. خلعها عبد الصمد. وأخذ جسمه وأطرافه تتسلقني من كل صوب، وأفعوانه يلطم بي ويلطم ويندس.. والوحش في داخلنا يدفع مخالبه إلى الخارج.

كان لا بد من العراك. لطمته بمرفقي على رقبته فترنح وصرخ، وشتم أبي. بلمح البصر عاد يتسلقني ويزحف علي. دفن رأسه في عنقي. شددت أذنيه بيدي حتى خلت أني قطعتهما. صرخ وهز رأسه ليخلصهما، وعاد إلى ما كان عليه. ضربته بمرفقي، عضضته، ركلته،غرزت فيه أصابعي، هززته

عني. ولكن لا فائدة. كان قد تكلّب علي وتصمغ بي. تركني أفعل ما أشاء وأخذ ينزع معوري.

في خضم ذلك الجحيم أحسست بلحم فخذي ينقطع بالسكين. وبلحم الفخذ الآخر. وببرودة نسبية تسري مكان معوري. لم يعد لدي وقت لتلقي الانفعالات. هاجمني الأفعوان، وهاجمتني اليدان والذراعان، وهاجمني الفم، والصدر. . . الأصابع بصورة خاصة، وعظمتا فخذيه. . . رباه! رباه!

هكذا صرخت. رباه! رباه! وأحسست بسائل لزج دبق ينقذف مكان معوري. اضطررت للحركة فانصمغ الوهن على جسمي. لم أكن لحظتها قادرة على أي إحساس مفرد، وعبد الصمد يحطمني ويكتم أنفاسي.

ثانية بثانية عشت ذلك الهول. قهر تراكم في نفسي منذ البداية ووصل ذروته في تلك اللحظة. قرف تراكم في حلقي من البداية كقشع زنخ قطع أنفاسي في تلك اللحظة. وقوة شر هائلة انفجرت بي تلك اللحظة وقذفت بعبد الصمد.

وفي تلك اللحظة أيضاً علا زحيره وصار صراخاً، وعلا جسمه عني، وشتمني شتيمة دينية مرعبة، و«حرمتني لذتي!» وانهال علي صفعاً باليدين متتابعاً كحركة المنشار، ونصف جسمه رابض علي.

ظل يضربني بلا تمييز وبلا توقف، ودون أن أستطيع الدفاع عن نفسي أو الحركة. وصرخت ألماً وبكيت، وصرخت استنجاداً، وجعرت.. ولم أعد أذكر ما حدث.

أتذكر، عندما انكفأ عبد الصمد عني أخيراً، أني وجدت رأسي في مكان قدمي أسفل السرير. أتذكر أيضاً أنه كان جالساً على السرير، قدماه على الأرض، ربما. لم أره. فقط تخيلته من أصوات رئتيه، التي وصلتني عبر شهيقي ونحيبي. كان يضخ الهواء في رئتيه وينفثه، كتنين أمكنه الإفلات من سيف الخضر.

وماذا أيضاً؟ أشياء صغيرة، مثل إيصاد الباب، وتغيير أغطية السرير، ولبس بيجامة بدل القميص. بعدئذ جلست على السرير. وماذا؟ رحت أبكي. أسندت رأسي على الحائط، ورحت أبكي.

كان ذلك الزمان صيفاً. الأسبوع الثاني من زواجي جعلني أحس أن دهراً قد مضى. يقولون في التشابيه الأوربية: ورقة في مهب الريح. أنا صرت فلّينة على سطح اليمّ. هكذا صرت أنا. فلّينة تتقاذفها أمواج عبد الصمد بوفرنين.

إذا كانت الشيخوخة هي اضمحلال القوة، فقد بلغت عمر الشيخوخة في ذلك الأسبوع الثاني. وظللت عجوزاً طوال أربع سنوات قادمة. ظل عبد الصمد بوفرنين يتقاذفني كل ليل فوق سريره ـ على هذه المساحة المستطيلة من مبتكرات العالم،

الغارقة داخل ظلام الليل، وداخل ظلام الروح أيضاً. كان عبد الصمد بوفرنين يجثم مثل حوت وفي ذهنه فكرة مستبدّة واحدة: الجنس أو الموت. لم يبق في حياتنا أي شيء آخر مهم. وكنت أنا أضمحل. كلما وصلت إلى ذلك السرير، وصلت جثة متهالكة. ومعي يصل عبد الصمد بوفرنين مثل حوت. حتى عندما كان يقبل الليل... يقبل شقاء الليل، سواده وفظاعته المرتقبة.. وأبقى أنا جالسة في مكاني لا أتلحلح ولا أريم، مصممة على التصمغ بالكرسي (إذا كنا في الشرفة) أو الأريكة، كان يكفي أن ينهض عبد الصمد بوفرنين وينظر إلي نظرة انتظار. في المرات الأولى كان يمد يده، ويشدني. وبعد دقيقة أو اثنتين، أفهم أنه لن يتراجع حتى أقوم. ولكي لاأسمح له بلمسي وأنا ماشية إلى حيث سيسوطني، أنهض باختياري وأتجه إلى مذبحي.

ولأن الحياة تميل إلى اختصار الزوائد والتفاصيل، فقد صرت أقوم ما إن أراه وقف وأرسل إليّ التفاتة الانتظار.

لا يسألني أحد كيف حدث ما حدث. إذا ثابرت على دق مسمار في جدار أصمّ، فإمّا أن ينفلق الجدار وإمّا ينحني المسمار. المهم أن لا تتوقف المطرقة. وقد انفلق الجدار. كل ليل كان عبد الصمد بوفرنين يجردني من بعض قوتي. كل ليل. وهو لم يهدأ. كان عليه أن يكسب رهاناً. هو فضّ بكارتي. وقد حصل على كل إجازاته من وزارة التربية لذلك

العام، وكل إجازاته المتراكمة منذ أعوام مضت، وأقام في البيت.

إذن كنت إلى السرير. أتمدد تمددي الأول يوم شاركني هو الفراش أوَّل مرَّة. ثمَّ يأتي هو فيتمدَّد إلى جانبي، يعرِّيني. وأنا هامدة، منحشرة داخل بيجامتي على جانبي الأيسر. يبدأ بطقوس الملامسة. ينتقل إلى طقوس الاقتراب. يدفعني من زندي إلى الخلف ويمددني على ظهري. يبدأ بطقوس الملاصقة. ثم تنطلق خيوله على تلك البيداء القاحلة. وبعد قليل يبدأ الأفعوان بالضغط على الوكر. وحركات وحركات وحركات. ثم ذلك الدهن الدبق الساخن. والخيول تنخّ عليّ وتقطع أنفاسي. وحركات وحركات وحركات. وذلك ـ الدهن أحياناً من جديد. وأخيراً الانطفاء.

أحياناً، كنت في ذهني أتفرج عليه. أقمت حائطاً وراء سلمى التي يتسلقها، وقبعت فوق أتفرج عليهما. ألتقط حركاته وأحيلها إلى صور ذهنية، وأتفرج عليها. أحياناً قليلة، كنت أنسى. بعد دقيقتين أو ثلاث، كنت أنسى. أتذكر فقط عندما تمددني يده على ظهري، أو تفتح ركبتاه ساقيّ. ثم أعود فأنسى. يبقى لدي إحساس مبهم فقط باهتزاز يتعرض له بدني أو ضغط غامض يضايقني. وبالتدريج صرت أعرف كيف أستعجله للوصول إلى مرحلة الانطفاء. كنت أقوم ببعض التسهيلات، كي يسرع هو بالوصول إلى نهاية مطافه. فعند

تلك النهاية كان خلاصي يبدأ وحريتي. خـلاصي من ضغط الأفعوان وبصاقه بصورة خاصة. وخلاصي من التقزز الرهيب من حالي، الذي كان يجعل جلدي مجرد وعاء للقيح الذي صاره بدني.

مقابل الليل، كان هناك نهار. إنني أذكر الصباح الـذي تلا تمزيق ثيابي. وأذكـر الصباحـات التي تلته ومـا زالت تتلوه. الصباحات والنهارات والمساءات، وكـل الأوقات التي ليست ليل غرفة النوم.

النهـار كان شيئـاً آخـر. طـول النهـار كـان عبـد الصمـد يخـدمني. يقدم لي الفـطور. يصنع القهـوة. يـطبـخ ويجلو الأواني. يشغل الغسالة. وأمكث أنا لا شغل لي ولا حركة، إلا ما أشاء. شيء واحد فقط كان مطلوباً مني: التمدد على السرير حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً. شهر كـامل مضى، وعبد الصمد بوفرنين يزداد نهماً ليلاً بعد ليل، وخدمة نهاراً بعد نهار.

في نهاية الشهر تحددت حياتنا بنسق ما زلت حتى الآن لا أفهمه: في الليل، عبد الصمد هـو الرجـل؛ في النهار، أنـا الرجل. وحتى عندما زارنا أهلي، وزغردوا وصاحوا، لم تنكسر هذه القاعدة.

إنّني أذكـر ذلك النهـار. تنـاولنـا الفـطور عـلى الشرفـة. نعم. بعد كل ذلك الليل، وبعد تمزيق الملابس وتمزيق الـروح،

والخط المدمّى على كل فخذ. ما زلت أرى ذلك فظيعاً حتى الآن. لكن نفس الإنسان لا قبل لها بأثقال الضغوط العنيفة. الأبطال فقط يتحملون الضغوط العنيفة. أما الناس العاديون فيحتالون على أنفسهم ومصائر حياتهم للاحتماء بالراحة التي يوفرها لهم الضعف والحياة الخليّة. يؤجلون مشاكلهم. ينشغلون عنها. يقعدون وهي واقفة. إن العنف يكلف النفس فوق وسعها.

نعم. أفطرنا على الشرفة. طول الوقت وأنا أحسّ تحفّزاً وتهيؤاً بعبد الصمد. خشيت أن يطلبني في النهار إلى السرير، فالتصقت بالكرسي. لكني فوجئت بتحفزه ينجلي أخيراً، ويختطف صينية الطعام بالنيابة عن كسلي. «أنا آخذها، أنا آخذها. خلّيك قاعدة».

لم يتلاشَ تحفزه بتحقق أمنيته في إكرامي، بل رافقه حتى عتبة الشرفة، ودفعِ قدمه للارتطام بها. ترنّحت قامته ثم سقطت بطريقة مخزية تماماً. شاهدته وهو يرفع يديه بالصينية، وينفتل لكي يقع على ظهره فتبقى الصينية في الهواء. وقد تحقق له ما أراد. لكن الصينيّة لطمت بالأريكة وهوت. بعض ما عليها تلقّته الأريكة، وبعضه الآخر تلقّاه وجه عبد الصمد.

نهضت كأن صاعقاً مسّني. اندفعت إلى الصالون. لم يكن عبد الصمد قد وقف على قدميه عندما صرخت به: «أنت

مجنون؟ أهبل؟ وسّخت الكنبة والصالون كله! آخ يـا ربي أنا! هذه المصيبة!»

من حسن حظ عبد الصمد أنه مقتّر. لو كانت بقية الأكل وفيرة في تلك الصحـون لطمست سحنته. مع ذلك، طرشت تلك البقية وجهه وجعلته وجه مهرج يرتدي أسمالاً. تردَّدت أنا بين الغضب والضحك على سيمائه. وعقد هو رؤوس أصابعه أمام وجهي وهتف: «طوّلي بالك حصل خير».

دمدمت بوجهه، فقط لكي أمنع نفسي من الضحك عليه: «أطوّل بالي؟ وهذه الدنيا التي وسّختها؟».

طمأنني أن كل شيء سيكون على ما يـرام. ومسح على سحنته بحركة عفوية، فانكشف القليل من شناعة منظره. قال: «اقعـدي، أنت. أنا أصلح كـل شيء». وهرع إلى المـطبخ لغسل وجهه.

منـذ ذلك الحـادث تكرست أنـا رجلاً للبيت في النهـار. وعندما جاء أهلي لزيـارتنا ثـانيـة تحـرك هو في البيت مثـل اللولب: التـرتيب، النـظافـة، نفّـاضـات السجـائـر، تقـديم الشراب، تقديم الحلوى، تقديم القهوة، ثم جلي كـل تلك الأدوات التي استعملت. أكثر من مرة أطلق علي عبودة وخالي نظرة زوارء. لم أبال. بل إني أحسست بانتعاش داخلي وأنا أريهم أي طرطور هو هذا الذي أوقعوني به. وأكثر من مـرة تمتم خالي بابتسامة سمحاء: «خلّ عنك يا عبد الصمد، خل

عنك. سلمى ترفع الصحون». لكن عبد الصمد لم يجرؤ على إطاعته، وأنا لم أكترث بحمّاه الداخلية.

لقد حصل هذا من قبل على نطاق ضيق. لكنه هذه المرة صار القاعدة الأساسية لأشغال النهار.

أمي وحدها كانت مغتبطة بالوضع السعيد. لا شك أن أبي كان أعطاها حقها من الرصّ والكبس. وقد اغتنمت فرصة ذهاب عبد الصمد إلى المطبخ لتجنح نحوي وتسأل هامسة: «أين الخرقة البيضاء؟ تم كل شيء، صارت حمراء؟».

قلت لها إن كل شيء تم، وإني غسلت الخرقة البيضاء.

هزت برأسها هزة توكيدية نحو الأسفل، وجنحت ثانية نحوي، فهمست: «اركبي، ولولحي برجليك على صدره».

كان قد مضى شهران ولم أرَ دماً. وعبد الصمد لم ينقطع عني إلا أيام الدورة. قلت لنفسي قد تكون بكارتي مفضوضة خِلْقةً، بشكل طبيعي، كما يؤكد بعض الأطباء. ثم استبعدت الفكرة فوراً بل إني انحقنت بالرعب منها. سيصنفونني زانية فوراً، ولن يؤمن أحد بطهارتي.

وإذن فإن عبد الصمد قد فضّها دون دم. كل هذه الحركات منه تدل على خبرة رهيبة، ومعرفة وممارسة. حتماً هو فضّها دون دم ودخل الوكر. لقد كان يضغط ضغطاً فظيعاً تنشقّ له الصخور وهذا هو سر ضعفه النهاري أمامي. لأن الدم تتويج

لرجولته، بحسب ما عرفت. وهو لم يفز بذلك التاج، ويريد رضاي، وسكوتي أمام أمي.

تأكدت أن تلك العملية مرت بسلام عندما صرت أحس في الأسبوع التاسع أو العاشر، بنداوة معيّنة في الوكر، بطراوة ورطوبة، وخلجات خفيفة، وبعد أن شممت الرائحة الكريهة في الحمام، لم يبق عندي أيّ شك في أن حياتي الجنسية قد استقرّت على منوال ثابت أخيراً. ووطنت نفسي أن أتحمل تلك الساعة من كل ليل، طالما أنها الضريبة الوحيدة التي أدفعها لعبد الصمد بوفرنين.

حطم عبد الصمد كل ما استقر ذهني عليه من يقين وتصورات. لم يكن قد مضى غير نصف ساعة في تلك الليلة عندما انقطع بغتة عن الامتطاء والضغط. انتصب في السرير جاثياً على ساقيه. نظر إلي نظرة عنف وتكذيب واندعار: «أنا محتار في أمرك! يعني أنت ما فيك حسّ؟ ولا شيء يحركك؟ شهرين وأنا أحاول فيك.. لو امرأة ميتة كانت عادت إلى الحياة! خلص الصيف، وخلصت الإجازات، وأنت مثل الكاوتشوك!».

ابتهجت لهذا الانقطاع. وابتهجت لوجود خطأ ما أزعج عبد الصمد إلى هذا الحد. جلست بلا ضيق، متكئة الظهر إلى خشبة السرير. أردت أن أفهم. سترت نصفي الأسفل، ونظرت إليه بصمت وإنصات.

نطق وجهه بالحيرة، دون أن يفارقه الغضب الكظيم والإحباط والتوتر. ولكي لا يبادرني بالصوت العالي فيتحكم بي في ذلك الليل، أعليت صوتي أنا وصحت: «ما لك؟ خير إن شاء الله؟».

تكلم كثيراً في ذلك الليل. ثلاثة أرباع كلامه كانت مشاعر وانفعالات ملجمة. وبعد حوالي ساعة من الكلام، ومئة درجة مئوية من الحرارة المكظومة، أفهمني أنني بعد عشرة أسابيع من الزواج ما زلت عذراء.

أي فرح عظيم! أية غبطة عميقة هنيئة دافئة! وأيّ حس منعش بالظفر! أيّ حس عارم بالكرامة كنت طول الوقت كأنني في جلسة عائلية! لم أنتبه أبداً إلى أننا نتجاذب حديثاً ـ وأي حديث! ـ ونحن ربّي كما خلقتني. عرفت أن لهاثه وعرقه وتطوحه ذهبت سدى. وأن أفعوانه لم يعضضني. رأيتني لأول مرة في أي ليل من الليالي الماضية أطل عليه من فوق، أنا عارية وهو عار، وأنظر إليه كما كنت أفعل مع أخي إذ يعجز عن حل مسالة حسابية.

لا أدري كيف كان وجهي ونظرة عيني. لكن انفجاره التالي جعلني أحس أني بدوت غولة حديديّة. لقد تلجلج لسانه أخيراً، فاضطرت يداه إلى التحرك لتساعداه على التعبير. لم يستطع أن يقول الكثير. وعندها تلجلج صوته أيضاً. أخذ يغص ويتقطع. ثم بكى.

اللغة التي خرجت من بين نشيجه وشفتيه أفهمتني رأيه في أن الشعور الوحيد الذي يعمر نفسي هو الحقد، وأن اللون الوحيد الذي في قلبي هو اللون الأسود، وأن شكل الأنثى الذي لي لا يعني أبداً أنني من نسل آدم وحواء. . .

كان وجهه ضعيفاً وصغيراً. بالأحرى كان بلا أقنعة بطركية. وبدون تلك التعابير المستعارة التي اعتدتها حتى ذلك الحين: التواضع والطيبة، الشراسة والاستبداد، العزم والعناد، الألفة والمودة. . .

وقد وجعني قلبي عليه. هذا الذي سُخِّرت كل العلاقات الاجتماعية لتجعله سيداً عليّ. راقبته حتى انتهى منه الكلام. وكنت أنغسل من الداخل. أتشفّى. عَلَقٌ كثير. وأوشال وأوساخ كثيرة، نزحت من داخلي وأنا أراه عاجزاً أخيراً أمام بابي الموصد، صامتاً، ذاهلاً، ملتفت الرأس إلى الأسفل، مبلل الشاربين بالدمع، ورأيت أني أخذت حقي.

قلت لنفسي، ما دامت حياتي العاطفيّة انتهت، ما دمت لن ألتقي بحبيب ولن أحب أحداً ولن تأتيني فرصة حياة أخرى، ولن يكون لي حتى أن أتخرج من الجامعة وأشتغل. . فلماذا المكابرة؟

قلت: «تريد أن نتطلق؟! مستحيل! أنتحر ولا أطلقك».

صمتنا. في تلك اللحظة صار بوسعي مساعدته. ولم يكن

قد بقي في نفسي أي شيء من عكرها القديم. أخذتني الرأفة به. أحسست بإشفاق عليه مثلما يحس المرء تجاه ولد مسكين لا حول له ولا قوة، إنسان يحتاج إلى من يمسك بيده ليساعده في عبور تيار كاسح.

قلت: «أنا سأنفذ ما تشرحه لي. قل لي كيف أتصرف وسأحاول جهدي».

تهلل وجهه بالشكر والسعادة. زحف على ركبتيه إلي. وتناول يدي بغمضة عين، وقبلها ووضعها على وجهه: «سيبصق علي كل من يعرفني، إذا سمعوا أني عجزت عنك. لم أكن أظن أحداً يعجز».

لقد أردت حقاً أن أساعد عبد الصمد. رأيته كائناً صغيراً ولكن محملاً بأثقال هائلة. ولأني كنت يائسة من أي مستقبل فقد قلت لنفسي إن بوسعي أن أعمل معروفاً مع هذا اللارجل الذي ربما كان ضحية مثلي. قلت له: «أنا موافقة. لكن لازم أن لا تنسى شيئاً واحداً: أنا لا أحبك. ولا يمكن أن أحبك».

«فيما بعد، فيما بعد»، هتف هو بامتنان، «بعد المعاشرة يجيء الحب».

شرح لي عبدالصمد ما يجب أن أفعل. وكنت قد خبرت بعضه عبر محاولتي التعجيل بانتهاء محنتي. لكن الشرح والخبرة لما يحققا نتيجة. مضت الأيام والأسابيع ولم يحدث

شيء. لا أستطيع أن أدخل في شرح التفاصيل. يمكنني فقط القول إنني كلما سألت عبد الصمد عن تحقق المطلوب، هز رأسه بالنفي وانصرف إلى شغل من أشغال البيت.

أقبل الخريف ورحت أتساءل كيف تصرف غيرنا في مثل موقفنا هذا. هناك ملايين من البنات مثلي.. تزوجن كما تزوجت، وفي نهاية السنة الأولى ولدن أطفالاً. كنت قد تعرفت على أم بشير في هذه الفترة. وقد حكت لي «قصة حبها» مع أبي بشير.. بالأحرى قصة حبه لها. هل أحببته يا أم بشير؟ عشر مرات سألتها، وعشر مرات جاء الجواب ابتسامة، أو تنهدة، أو شرحاً لمبدأ أن المرأة محتاجة للستر والحماية وليس للحب.. مرة واحدة فقط أجابت باللغة: «الآن صرت أحبه».

لم يمكنّي أن أسألها كيف تم معها ذلك الأمر. النساء الفاضلات يجب ألاّ يتحدّثن في أمور كهذه. الحديث في هذه الأمور يعني إقامة علاقات روحية مع الشيطان مباشرة، أو على الأقل الخوض في مستنقعات آسنة. وهو يعني أن التي تفشي أسرارها تضع نفسها تحت رحمة المرأة المستمعة. الأمر الواضح هو أن نظرية عبد الصمد تنطبق عليها تماماً: بعد المعاشرة يأتي الحب.

يهتز عالم أم بشير ويضطرب بالكامل إذا تأخرت عودة أبي بشير ساعة عند الظهور، أو إذا اتصلت هاتفياً بنادي نقابة

المحامين وقالوا لها إنه غير موجود. هي تؤمن إيماناً قاطعاً بأنها تقدم لزوجها كل ما يحتاج إليه بلا نقصان، وأحياناً بزيـادة. بصورة خاصة هي تعطيه «كل شيء» في تلك الدقائق. دقائق فقط؟ طبعاً. يعني؛ ساعة إذا شقت حالها! لم يطلبهـا يومـاً واستنكفت عن تلبيته. حتى ولـو كانت في مـرحلة الطمث. حتى ولو كانت مهـدودة من شغل البيت والأولاد. حتى ولـو كانت فاقدة لكل رغبة. فعلى أي أساس سيحق له أن يعشق أو تزوغ عينه هنا وهناك؟

في الخريف كان عبد الصمد بـوفرنين قـد أصبح شبحـاً. وكنت أنا قد ملت إلى السِمَـن. أربعة أشهر. كل يـوم، كل يوم، تقريباً. لم يبق عليه سوى خيوط من اللحم. بينما ربلت أنا وامتلأت. كان سعيداً ببداناتي. أما أنا فلم أكترث. لم أكن أصلاً أكترث لشيء. حتى أمي وخالي وأخي عبودة لم أعـد أهتم بتـوكيد رأيي أمـامهم. تكلموا، فأنصـتّ. وسـألـوني، فهززت كتفي وابتسمت.

داخل أعمق أعماقي كانت هناك لذة هادئة، غبطة نائمة، بنشل عبد الصمد. أنا لم أكترث يوماً بالأحاديث المبذولة عن الصراع بين المرأة والـرجل. فقط، وضعي في حـومة ذلـك الصراع أيقظ في النفس تلك اللذة. ولكن حتى اللذة أمست تغـادر واعيتي في أوقـات كثيـرة. وأحيـانـاً تغـادرهـا بينمـا عبد الصمد يطحر وينفـرك ويكدح في الليـل. ضجرت حتى

منها. ضجرت حتى من اشمئزازي ورفضي له.

ثم جاء يوم. كان عبد الصمد فاتر الهمة على غير العادة. كأنه هو قد يئس أو ضجر. أو تعب. وقد شعرت لذلك بالطمأنينة. لم يكن الأفعوان يلمسني. فقط الأصابع. وبعد دقائق مديدة أحسست براحة واسترخاء، كأني في حصة تدليك فني. ثم أحسست بتلك الرطوبة والطراوة.

أحاسيس ظلت خارجية، وإن كانت مريحة. وبقي ذهني منشغلاً بما لست أدري. وجاءت وهلة من الوقت انشغل ذهني فيها كلية. لست أذكر بماذا. فقط، غابت غرفة النوم عن بالي بالكامل. وغاب السرير وعبد الصمد وجسدي. بعد أن وضعت أصابعي على ظهر عبد الصمد، نسيت جسدي كله.

وفجأة صرخت. انتبهت إلى مكاني وصرخت. كان جسدي يتمزق والأفعوان في داخلي. تقلص جسدي حتى التشنج، وصرخت وصرخ عبد الصمد. كان لولب مطلي بالزئبق والنشادر والبارود يدخل أحشائي. وجسدي يتشنج ويختنق بالقشع. وأطراف عبد الصمد كلابات على كتفي وأطرافي. واللولب يشق لحمي ويحرق لحمي ويقطع لحمي.

ذلك القاع الرهيب من الألم والدم كان ينبوعاً جبلياً من الرضاء والهناء عند عبد الصمد بوفرنين. ذروة الغربة والخمود كانت ذروة المجد والإنسانية لديه. فور عودته من وزارة التربية في اليوم التالي، ضمّني إليه بامتنان وسعادة لا يوصفان. كنت

ما أزال في الفراش خائفة من الحركة، وشبه عاجزة عنها. كلما تحركت أحسست أن إسفيناً قد غرز في جسدي. وقد ازداد عبد الصمد سعادة إذ عرف أني لم أتحرك طَوَال النهار. خلال دقائق، كان يحمل إلي صينية الطعام ويضعها على السرير.

يا للمرأة ويا لشقائها! ويا لهذه السعادة الفظيعة التي تبعثها الآلام الفظيعة! سعادة بلغت بعبد الصمد حداً جعلته يقبل إلي في الليل. قلت له: «ما هذا؟» فابتسم ابتسامته العريقة، وارتبك ارتباكه العريق، وغمغم: «نكمل اليوم، وبعدها ترتاحين».

همهمت بنبرة، ومن بين أسناني: «إذا قاربتني اليوم، سأجمع عليك الحارة. أنت صحيح بلا ضمير!».

تلك كانت مشكلة صغيرة إزاء المشاكل الهائلة التي انفرطت مع انفضاض عذريّتي. غير أنها نقلتنا بهدوء إلى مرحلة جديدة من الحياة الزوجية.

بالنسبة لي فقد رسوت أخيراً في القاع الذي تهيّئه الحياة للمرأة في مدينتي: زوجة وربة بيت. وقد تصادف أن احتاجت إحدى المؤسسات لخبرة عبد الصمد في المحاسبة فاستأجرت خدماته الليلية لمدة ستة أشهر. كان أبو بشير صاحب الفضل في تأمين هذا العمل الإضافي. وهكذا تبحبحنا طوال الشتاء والربيع.

غدت حياتي فسيفساء تتصل قطعها بمصادفات التجاور. لم يكن مشكلة أن يتنافر طرفا قطعتين فلا يكون اتصالهما هندسياً وجميلاً. إن قليلاً من الغراء كافٍ لإحداث هذا الوصل. بالنسبة لي كان عبد الصمد قطعة مخمسة أو مسبعة في تلك الفسيفساء. لقد أضحى ثقلاً يمكنني احتماله. أو بالأحرى، لا يصل احتمالي له إلى درجة الاختناق المطلق أو الانفجار الشامل. في حالات الهدوء الرتيبة، تعاملت معه كشخص لا علاقة لي به، سوى أنني مضطرة، لظروف لم أعد أذكرها، إلى تناول الطعام معه والجلوس والنوم...

كنت أتذكر أحياناً أنه زوجي. طبعاً، أنا لم أنس أنه زوجي. غير أن ذلك التذكر لم يتصف بصفات التذكر العادية. كان ينشقّ فجأة في وعيي ويندفع كالسيل في سائر أرجائها. وكان يحمل معه صوراً وأشياء وأصداء كلها غريب ومبهم لكنه انفجاري وضاغط: إن هذا الرجل يعتبرني ملكيّة.

عندها كنت أفعل شيئاً من اثنين: فإما ينقلب العالم في رأسي وأحتقن باليأس والبكاء والصداع والعزلة، وإما أقلبه على رأس عبد الصمد فأطرده من البيت.

نعم. في تلك الأثناء كانت سلمى رابعة تطفر داخل جلدي وتكتسح كل شخصيتي ـ سلمى مصمِّمة إمَّا على الجنون وإمَّا على الانتحار، أو يخرج عبد الصمد من البيت.

«إلى أين أخرج في عزّ الليل، الآن؟» كان يسأل وذراعاه ممدودتان متوازيتان.

«هذه ليست مشكلتي. اخرج! اخرج الآن! فوراً!».

ودون أن أترك له برهة واحدة من التردّد، أركض إلى الباب وأنا أهتف: «أنا خارجة، إن كنت أنت لن تخرج». وبغمضة عين أكون قد صرت على درج المبنى.

عندها كان يندفع ورائي ـ إما باكياً نادباً وإمّا مستغفراً الله العظيم. وأعود أنا إلى البيت أوصد بابه ورائي. أنسند إليه بظهري وراحتيْ يديّ، فتغمرني سكينة رحمانية رائعة. أرى الصمت الحنون والخلاء الفسيح بعيني. وأراهما يرفرفان كأجنحة بيضاء. وأرى سلمى الرابعة تضمحل في داخلي أمام خفقات الأجنحة. يزول مني العنف والحصر، يتوارى الشر. أجلس في أي مكان. أفعل أي شيء وسعادتي سعادة طفلة استأثرت أخيراً بلعبتها وركضت نحو النهر. أضع عقلي وذاكرتي في صندوق مقفل وأدندن بصوت خفيض أغنية شعبية. أو أفتح التلفزيون. أو أصنع لنفسي فنجان قهوة وأحتسيه على الشرفة الهاجعة.

في اليوم التالي كان عبد الصمد يعاتبني، يذكرني بحبه لي، وبإصراره العنيد على الزواج مني، وتضحياته لأجل هذا الحب، التي توجت ببيعه الكاميرات ليفرش لي بيتاً ويملأ ساعدي وعنقي وأصابعي وشحمتيْ أذنيّ بالذهب. وإذ يحس

المسالمة، يختتم مطالعته بشيء من النكتة والابتسام العريق: «اشكري ربك أنك حظيت بواحد مثلي يتزوجك». ومن باب النكتة أيضاً، يسرد على مسامعي الأغلاط المروعة في قامتي كامرأة، والأغلاط الفظيعة في شخصيتي كإنسانة. «ورك ضخم. زندان ضخمان. وبلا صدر.. مع أن الورك الضخم له مزيته». ويبتسم ابتسامته تلك. ثم: «لو الجمل رأى حدبته، وقع وكسر رقبته. أنت سيدنا أيوب لا يصبر على عشرتك. عصبية، ومغرورة، ومثقفة».

وأقول له: «وحياة ربي أنا لا أفهم لم لا تطلقني. يا أخي، كل ما يجمع اثنين بأي رابطة، مفقود بيننا. بالله عليك، كيف تستمر في العيش معي!».

عندها يبتسم من جديد، فأعرف ما سيقوله: إنني أحقق له الأنماط الأساسية للحياة: شغل البيت، الجنس، الأخلاق الشريفة. و«بقي شيء واحد لم يتحقق. الذرّية. يا الله، اعملي همة». ويعلن عن حظره التام على البنات: «أريد صبياً، وصبياً، وصبياً».

أحياناً، وبعد أن أسمع كلامه ذاك، وبعد أن أراقب تصرفاته الأميرية الرغيدة، كان رأسي ينشق عن ذلك التذكر العنيف دافقاً في دماغي سيلاً من الصداع: هذا الرجل الذي ليس شيئاً يتصرف فعلاً وكأني ملكيته الخاصة والأبدية. يا إلَه الحياة: متى نبتت شجرة الملكية في تراب الحياة؟

كان صداعي يستمر يومين على الأقل. وأحياناً يستمر أكثر. غير أن يومين كانا في العادة كافيين لأعود إلى حالتي السوية. فإذا لم يعتدل مزاجي وأتقبل عبد الصمد زوجاً من جديد، استمرّ الصداع في لطمي كتنّين هائج. يلطمني ويلطمني. مثلما فعل عبد الصمد في ليلة الزواج الأولى. فإمَّا الصداع وإمَّا القبول.

القبول طبعاً. لا لأن العقل يقبل، وإنما اللاعقل، وهو أقوى من العقل. لأن الجسم ينهار تحت وطأة الألم. وإذا انهار الجسم تحت وطأة الألم، انهار معه العقل والذاكرة والإرادة والحرية. إذا استمرَّت الحياة بنا هكذا عامين آخرين فسأمسي مثل أم بشير. سأتنازل عن نفسي نهائياً لعبد الصمد بوفرنين، وسأطالبه بالتنازل عن نفسه.

كومضة عابرة فقط، كنسمة منعشة تمرّ وحسب في صيف قائظ مستمر، كانت الكومونة تعبر أمام مخيلتي. أين أنت يا بشار؟ أتُراك ما زلت تطنب في الحديث عن المجتمع البطركي؟ أم تراك تزوّجت وصرت بطركياً أنت الآخر؟

وأنت يا منيرة؟ كيف هو زواجكما، أنت وهاشم؟ أين ذهبوا كلهم؟ إلى أين انفضّ ذلك الحلم؟ أحقاً لم يبق لي إلا أم بشير؟ «اضْحِك تتراخي له. الرجل، إذا شافك ضعيفة، طمع فيك». هكذا قالت أم بشير، وبالطبع فهي ليست رخوة أبداً. عندما بدأ عبد الصمد يغيب لأجل شغله الإضافي مساء،

دعـوتها إلى فنجـان قهوة عـلى الشرفة كـلّ مغيب. رأتني منشرحـة الصدر، وأميل إلى الثرثرة واللعب. «أنت فـرحانـة بالـدخل الإضافي من شغل السيـد عبد الصمـد»، قالت: «لكن خلي عينيك سبعة وأربعة. ولا تقولي: عروس جديدة». وفي جلسة أخــرى قـالت: «الــرجـال عــواشيق. ولا يميـزون في من يعشقـون». وسـرعـان مـا أعلن وجههـا عن الـرضى والثقـة والسعادة: «أنا ماسكة أبو بشير من خوانيقه. لا أتركه له نصف ربع حجة لتلعب عينه هنا وهناك: كل ما يحتاجه، مؤمّن له بـالكامـل! أنـا مـاسكة بـه من خوانيقـه! وهـو مثـل الخـاتم بإصبعي!».

تمنيت لها أن لا ينزلق ذلك الخاتم عن إصبعها.

ثم جاءت تلك الفترة التي فقدت فيها رفاهية التفكيـر في طيران الخاتم. كان حوالي عام قد مر على زواجي! وفي أوائل الصيف انتهى شغـل عبد الصمـد الإضـافي، واكتشفنـا بعـد حوالي شهر أن مياهاً كثيرة قد عبرت من تحت بيتنا دون أن ندري.

تلك هي مياه الأسعار. أثناء الشغل الإضافي، كنا نشتري بأريحية، ولا نحسب حساباً لشيء. ليس عبد الصمد بخيـلاً تماماً. غير أن أريحيته ليست نتيجة كرمه أيضاً. إنها نابعة من إيمانه الوطيد الذي لا يتزعزع بأن رزقه مقسوم له، وبأن ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ـ فكيف الإنسان؟

لكن تيارات الأسعار ـ تيارات العالم؟ تيارات الكرة الأرضية؟ تيارات من؟ ـ لم تتفق كثيراً مع حسابات عبد الصمد. خلال عام واحد علا خطها البياني فوق الستين بالمئة. حتى الخبز ارتفع ثمنه بنسبة ثلاثين بالمئة.

وهكذا فعندما عدنا إلى راتب عبد الصمد الشهري من وزارة التربية، اكتشفنا أن بوسعنا شدّه ومطّه إلى أوائل النصف الثاني من الشهر. وبعدئذ: قف!

ما كنت لأذكر هذه المشكلة لو أنها لم تضغط على روحي. حقيقة الأمر، إنها منذ ذلك التاريخ وهي تضغط على روحي. إنها لعنة مكبرتة. حصار مستمر وإن يكن مطاطياً. في المجتمع البطركي، لا يموت كثير من الناس جوعاً. لكن كرامتهم تموت بسبب الجوع. لقد شاهدت أغنياء وشاهدت فقراء. وعرفت كم يحقن المال الأغنياء بفيتامينات الثقة بالنفس، بينما يصيب الفقر الفقراء بفقر الروح.

أنا من النوع الذي يخاف من قربى الفقر. والدي أفنى أجمل سنوات حياته، وحرمني بغيابه ساعات لا تحصى من الفرح والحب، لأنه كان يقاتل يومياً لأجل إطعامنا. أنا لست مثالية. واندفاعي إلى التخصّص في الهندسة ليس سببه فقط اندفاعي إلى الحرية والعلم، وإنما أيضاً أن أبتعد عن الفقر. لا أعرف أية حرية يعيشها الأغنياء بعيدين عن الضرورة. لكني

أعرف الضرورة عند الفقراء، وهي عبودية. أعرفها جيداً، وبصورة تجعلني أرحّب بأية حرية.

خمس سنوات مضت ونحن على الخطّ الفاصل بين الضرورة والستر. إن الستر كلمة أساسية بالنسبة لعبد الصمد. فجوابه عن كل سؤال بشأن حياته هو: «مستورة والحمد لله». أي شيء، ولا أن يعرف أحد أننا محتاجون. وفي أواخر الصيف ارتفعت الأسعار مرة أخرى، كبالون ينتفخ ولا أحد يعرف من ينفخه. بدأت أطالب عبد الصمد بضرورة أن أبحث لنفسي عن عمل. ظل يرفض «إذا صادفك شغل. حباً وكرامة. أما أن تنزلي إلى المدينة، وتفتشي عن شغل.. كل واحد سيعرف أننا محتاجون». لم يصل إلى حد الرفض البات، خوفاً من انغلاق فمي. غير أنه أوصلني بهدوئه ومراوغته إلى الجنون، ذات يوم. وبدأت أصرخ وأشتم وأندب وألعن وأبكي وأشهق، حتى أمسك بي مهدئاً وملطفاً، وأجلسني على الكنبة. «الذي تريدين، الذي تريدين! اهدأي بس».

هدأت. هدأت تماماً. وحتى الموت.

قال: «يعني أنا ناقص رجولة يا بنت الحلال؟ لزمك شيء ولم أجلبه لك؟».

«اعمل قهوة»، قلت له، وجرجرت جسمي إلى البلكونة. على مد النظر رأيت المدينة مجرد قبور مفتوحة وشواهد. رأيت النهر ـ وكنت اهتديت إلى مسيرته بين الحارات والأحياء ـ بلا

حراك، ومياهه رصاص ذائب. ما الذي أوصلني إلى هنا؟ ما الذي جعلني أشوّه نفسي كل هذا التشويه؟ كيف أمضي أيامي مع رجل يجب أن أتخلى عن عقلي لكي يحس هو برجولته؟ بأية إرادة أترك له جسدي؟ كيف أترك هذه الأيام تمضي وأنا أتفرج عليها؟

في نهاية الشهر اكتشفت أني حامل.

يتحدثون في الكتب وفي السينما والتلفزيون عن السعادة الطافحة التي تحس بها المرأة عندما تحمل. وما أكثر ما تكلمت أم عبودة عن حب الأم لأولادها باعتباره مسلّمة من المسلمات. إنما مؤكد أن هناك غلطاً ـ إما في عقلي وإما في هذه المخدرات التي يغرزونها في عقولنا.

عندما قال مدير المخبر إنني حامل، التفتّ حولي باحثة عن أقرب كرسي لأتهالك عليه. لكن جلوسي السريع لم يوقف الانهيارات التي توالت في داخلي. إذا كان صحيحاً أنني حامل فهذا يعني أنني ارتبطت بعبد الصمد إلى الأبد ـ هكذا قلت لنفسي والرعب يشلّ تفكيري. أكان هناك أمل بأني سأخلص من عبد الصمد، ذات يومٍ؟ نعم، وإن كنت لا أعرف كيف. لكن الاستمرار كان مستحيلاً. ربما يوم أشتغل، وأنال استقلالي الاقتصادي، مثلاً. ولكن، إذا جاءتني ذرّية من هذا اللارجل فستكون قيداً أبدياً، وتجسيداً باللحم والدم لاشمئزازي وانحطاطي وضياعي. وفوق هذا وذاك: إذا جاءتنا

ذرية فكيف ستشبع الطعام والعلم والحرية؟ إذا جاءتني ابنة، ففي أي عمر سأجبرها على الزواج مثلما أجبروني؟

بعد حوالي شهر تلاشت هذه المرعبات ـ وبالطريقة نفسها التي تلاشى فيها رفضي للزواج، وبكارتي وحريتي، والعالم الجديد الذي رسمته لنفسي أيام الكومونة. تلاشت أمام القوة الخفية المخاتلة للحياة اليومية. هذه الحياة المتتابعة بلا نهاية، المستمرة إلى الأبد. ماذا يفعل ذلك العالم الجديد أمام أن أتناول الطعام مرتين يومياً مع عبد الصمد، وأن أشرب القهوة مع ضيوفه، وأن أطبخ في بيته، وأنام على سريره؟ ماذا؟

وهو فوق هذا دائم التوتر دائم الترقب. يفرك راحتيه، ويمشي في الصالون والمطبخ والشرفة. إنه سيكون أباً. يا للكمال العظيم للحياة التي لا ينقصها شيء سوى الأولاد. «صبي، إن شاء الله! صبي!» ويرفع راحتيه إلى السماء. «يا رب! مثلما وهبتني سلمى، هبني عبد الرحمن! يا رب!».

أنا لم أكن سعيدة بهذا الحمل. بالمقابل، وجدتني أدعو بلا كلمات أن يفرط هذا الحمل وأرتاح منه. كنت في قرارة نفسي ما أزال أعتقد أني سأنفصل ذات يوم عن عبد الصمد. ولم أكن مستعدّة للتخلّي عن هذا الاعتقاد أو لإدراك لامعقوليته. كنت أقول لنفسي: لا يمكن أن تنغلق الحياة وتنسدّ بهذا الشكل. شيء ما سيحدث، وأصير حرة ومستقلة.

هذا الحمل قتل لاواقعيتي السعيدة. راح بطني ينتفخ،

وحياتي أيضاً. وأيضاً رأسي الذي انحشرت فيه وتلاطمت سيول الصداعات. وراحت أحلامي تنكمش. لم يبق أي شيء طبيعياً. ولأن عبد الصمد انصرف بكليته إلى تهيئة الملابس والقماطات لعبد الرحمن، ابنه، فقد أحسست بمزيد من الجفاء تجاه حملي. كلما ازداد هو فرحاً وانشغالاً ازددت كآبة وانصرافاً.

أخيراً قررت الخروج إلى المدينة كل صباح للبحث عن عمل. أخبرت عبد الصمد بعزمي، دونما استعداد للمناقشة. ابتسم بوجهي ابتسامته الكاوتشوكية تلك، ونظر إلي كمن ينظر إلى معتوهة. لم أبالِ بنظرته ولا بابتسامته. إذا لم يجنّ الإنسان لا يصل إلى العقل. وقد آن الأوان لأن أشق طريقي بنفسي.

أعتقد أن ذاك كان آخر الصدامات العنيفة بيننا. وقد بلغ العنف حداً جعلنا نشرك أبا بشير وأم بشير في دوامته. جملة واحدة من أبي بشير نفثت التوتر: «ادرسي، وخذي ليسانس الهندسة بالأول. . إلى حين تلدين، ويصير حصولك على شغل ممكناً. يومها، يفرجها الله».

لكن الله شاء أن لا يفرجها. حقاً إن مشاعر رثاء وتعاطف نَمَتْ داخلي تجاه الجنين الذي لبس عباءة جسمي. لكنها لم تغيّر من الوضع السيّىء شيئاً، ولا من التوقّعات بازدياد السوء بعد الولادة.

يوم الولادة عرفنا أن السوء قد تضاعف، وعلى نحو محبط

ومرير. لقد أعطيت للعالم ابنتين بدلاً من ابنة واحدة.

ظل عبد الصمد ذاهلاً فترة طويلة. كل ترقبه المتوتر، وانتفاضه المستبشر، تلاشى بعد أن «بشّروه» بالتوأم. همد. لم يكن بوسع مؤمن مثله الاحتجاج ولا الاعتراض. وخلال أيام لم يبق لديه أدنى شك في أن الله يعاقبه بجريرة ما. غير أن هذا كله لم يمنع عنه الحزن. كان حزيناً حزناً مؤثراً. لأول مرة بدا إنساناً. وقد أشفق عليه حتى أبو بشير، وعاتبه بأخوة على ضعفه أمام المفاجآت، وذكره بالحديث الشريف: «خير نسائكم من بكرت بأنثى».

كان للحديث مفعول السحر عليه. وإذن فهناك حكمة ربانية في هذه الولادة. لكن الحديث قال «بأنثى» ولم يقل «بأنثيين» فهل هناك خير إضافي أم هي طفحة كيل؟ على أية حال، لقد تأكّدت من كوني من خير النساء.

ثلاث سنوات مضت مثلما تمضي السلاحف وظلال الجبل. كلما رفعنا رأسنا من تحت موجة أسعار عاتية لطمتنا موجة أخرى. حتى عبد الصمد صار يهبط بعد الظهر إلى المدينة بحثاً عن عمل إضافي. وقد أحنى رأسه وقبل خروجي أنا للغرض نفسه. كنت أطعم البنتين وأنظفهما، وأتركهما في الصالون. ومع أم بشير أترك مفتاح البيت لتلتفت إليهما ريثما أعود.

ولكن لا شغل. في بلاد تحتوي على الدكاكين فقط، لا

شغل لأحد مثلي. رضيت بأي شغل. ولكن أين هو؟

عبد الصمد هو الذي انفتحت له أبواب السماء. وبسبب ذلك، وبعد ست سنوات من الزمن، وألف سنة من النسيان، والتحولات والانطماس والطمس، التقيت بوائل.

(٤)

جاءني ذلك المساء وهو يبتسم ابتسامته العريقة. لثته مثل معجون صنعه طبيب أسنان ليأخذ شكل الفكين. عرفت أن في ابتسامته خبراً غير عادي. قلت: «كأنك لاقيت شغلة؟» هز رأسه بالإيجاب. تنفست الصعداء ونبرت: «اطعم هاتين القردتين، أنا عفت حالي منهما. يلعن أبو هالعمر».

كانت سمر وسحر جالستين على البساط بانتظار موافقتي لهما أن تتحرَّكا. استدرت نحو الشرفة، وأشرت لهما أن تلحقا بأبيهما. وثبتا وهما تمدَّان أيديهما إلى يديه.

جلست وحدي لأول مرة ذلك اليوم. حوالي سبعين دقيقة. تمنيت لو يأتيني فنجان قهوة ويوضع أمامي على المنضدة. ثم رأيت من الحسن ألَّا يأتيني. خمسة فناجين على الأقل كنت قد شربت ذلك اليوم - مع أبي بشير ومياسة ورباب وأم طاهر، ولا أدري أم من. لم أنعم برشفة واحدة. ولم أفرح بدقيقة واحدة.

حياة المرأة في هذه المدينة مثل الجرائد والإذاعة

والتلفزيون: مليون مادّة ومادّة، وكلّها تافه وكذّاب. نحن النساء نقضي عمرنا في نسج التفاهة والأضاليل، وصياغة الكلام حولها، على أساس أن كل شيء جوهري وجميل متوفر في حياتنا حتى الضجر. ليس هناك ما يقلقنا ويضنينا.. لولا هذه الأسعار. أتساءل أحياناً، لو لم تنعم الحكومة علينا بالغلاء، فأي حديث حقيقي كنا سنتحدث؟

أقبل عبد الصمد وهو ما يزال يبتسم.

«أين هما؟» سألته.

«في غرفة نومهما. ألبستهما البيجامة».

«وأطفأت عليهما الضوء؟ تأخر نومهما».

«ربع ساعة بس. حرام».

«ولا دقيقة»، نبرت ووقفت. «كل دلال لهما سيكون على حساب عمري وأعصابي».

«طيّب، طيّب!» هتف هو ونهض. أمسك بي وأجلسني. «أنا ماشٍ إليهما».

«واعمل لنا قهوة».

غاب ثلث ساعة أخرى ثم عاد. كان مبتسماً. اقترب بالكرسي مني وجلس، ووضع بيننا فنجاني القهوة. ابتسامته لا تتعب. لملم رؤوس أصابعه وناشدني: «يا بنت الحلال! أنت أمّ. والأمّ كلها تضحية ونكران ذات..».

قاطعته بنفاد صبر: «وأمّ عبودة أمّ. نكران ذاتها وتضحيتها دمرت حياتي. لو لم تعمل معي كل ذلك المعروف لما كان لها أي حق عليّ. هذه هي حياتكم. تعملون المعروف مع أولادكم لكي تستعبدوهم، هذه هي فلسفتكم. تضحية ونكران ذات لأجل الاستعباد، والوصاية، وكسر الرؤوس».

ظل مبتسماً ولكن بلا فرح: «بلا تضحية ونكران ذات، كيف يحبّونك؟».

اختنق ذهني بأفكاري، فصحت من أعماق روحي: «يا إلّهي! يا إلّهي! سيحبونني كصديقة، يا أخي. كأنثى مثلهم. كمخلوقة تعرفهم ويعرفونها. كمهندسة تبني بيوتاً في هذه المدينة. وليس كخادم مسحت غائطهم.»

- «سيجيء يوم وتندمين. يوم تفقد فيه المخلوقتان الصغيرتان كل شعور تجاهك».

- «مستحيل. سيكون بيننا حب أنتم لا تعرفونه. أفضل بكثير من شعوري بالمرارة والسخط تجاه أم عبودة.»

اتسعت ابتسامته: «أنا أعظم معروف عملته معك أم عبودة. يا جاحدة يا ناكرة للجميل. ما علينا...»

توقف عن الكلام بسبب التفاتتي العنيفة إليه ونظرتي المشتعلة. هو كان يمزح، لكن مجرد تذكيري بما فعلته أمي لكي أتزوجه أضرم النار في بدني.

-«.. اليوم اتفقت مع صاحب محل للتصوير»، تابع هو محتفظاً بابتسامته، «أن أعمل له لمسات لصور الزبائن.. وحتى أن أقوم أنا بتصوير الزبائن، بين الخامسة والثامنة كل مساء. يعني هو خيّرني. المحل مفتوح من عشرة أيام بس، أسبوعين. أضع لمسات أو أصور تصويراً. قلت له أشاور امرأتي بالأول، ما رأيك؟».

قبل أن أتمكن من الكلام، كان عبد الصمد قد أخرج من جيبه ست ورقات مالية مهولة، فأسكتني.

- «عرض علي ثلاثة في الشهر. يعني حوالي راتبي تقريباً. ماذا بك؟».

- «معك كل هذا المال! وتجيء بلا شوية هريسة لابنتيك! أنت عارف، معهما فقر دم. وتأكلان الأخضر واليابس، لو توفّر لهما».

صمت، وجمد وجهه. «والله معك حق. الله يخزي الشيطان. أبداً ما خطر ببالي».

ثم تابع حديثه عن شغله الإضافي الجديد. ورحت أنا أنقطع عن سماعه بالتدريج، إلى أن فاجأني بسؤاله: «أظنّك موافقة، ما؟».

ثلاث سنوات وأنا محصورة ومعصورة داخل أخشاب حياتي اليومية. كأنني صبّة اسمنت داخل صندوقها الخشبي. كل

شيء بي تصلب كالأسمنت. إلا أعصابي، فقد صارت نوابض من بارود.

أعتقد أنه في ذلك الحديث ورد اسم وائل ولم أسمعه. أو أني سمعته ولم أعط بالاً، ولم أعده إلى اقتراناته القديمة. أي إنسان يمكن أن يكون (وائل). إنه اسم لا يحتكره أحد. ثم، ماذا بقي من كل ذلك العهد على قيد الحياة فأحس بحياته إذ يتردد ذكره؟

في اليوم التالي اجتمعنا، نحن نساء الحارة. وكان الدور عند أم طاهر. صباح الخير يا ست أم طاهر. لا أدري من اختار هذا الاسم لابنها. صحيح هو اسم للولد، لكن تكنيتها به تثير العجب. ذلك لأن هذه السيدة أنجس وأوسخ امرأة أعرفها. نصف حديثها فراقيع ونصفه فخوخ. وفي النهاية لا بد لكل مستمع إليها من تصور حارتنا باعتبارها غطاء خادعاً تسرح تحته ديدان الخيانة والمخاتلة والعنف والفسق.

استقبلتني بابتسامة طليّة وذراعين مفتوحين: «مبروك!» وبقبلتين أيضاً على الوجنتين. كنت قد تعودت الاكتفاء بابتسامة مقابلة في ظروف كهذه. لكن تهنئة أم طاهر لي أثارت فضولي: «مبروك على أي شيء؟».

«ولو، ست أم عبد الرحمن! تخبئين عني أنا! لكن معك حق. لا تقولي: فول! حتى يصير بالمكيول. بكرة، لما

الأستاذ أبو عبد الرحمن يقبض من شغل التصوير، نحن كلنا لن نرضى بأقل من كيلوين هريسة!».

ثم تقاطرت النساء. سبع، على الأقل. وأنا دائماً التي تصنع لهن القهوة، فأصيب هدفين في وقت واحد: أخلص من أحاديثهن المميتة، وأسجل عليهن منّة اجتماعية.

اضطررت وأنا عائدة إليهن بصينية القهوة للوقوف في الردهة الصغيرة وراء باب الدخول. هذا اللغط والضوضاء سمعتهما من قبل مئات المرات. إلا أنني انتبهت لهما لأول مرة في تلك الثواني.

«الطبخ لمسة»، كانت أم بشير تقول، كأنها بيكاسو أمام إحدى لوحاته. «محمد يمسح الصحن بإصبعه ويمصمصها، وينادي: أمّه! كل يوم، كل يوم». وصاحت رباب بصوتها الرنان: «لمسة حنان، لمسة حنان». وقالت إحداهن: «أنا لولا المطبخ، زوجي يطلّقني». وفرقعة ضحك وصخب. وتصرخ مياسة: «حتى يعرفوا قيمتنا. أنا لما أزعل من عمار أجبره يأكل في المطعم».

تلك هي كومونتي الجديدة. لا أدري لم وقفت هذه الوقفة المعيبة أتنصت لهن، بينما أنا عارفة تماماً بكل آرائهن. تصورتني أهجم عليهن بكل الاشمئزاز والسخط اللذين في نفسي لأقول لهن بابتسامة ومرح إنني لم أر في حياتي مجموعة من الخادمات السعيدات بهذا الشكل.

تقدمت منهن وأنا أبتسم. انقطع حديثهن بكل بساطة، عندما هتفت وفاء: «الصراحة أنا ما عدت أحب إلا قهوة أم عبد الرحمن!» وأم عبد الرحمن هي طبعاً أنا. وأكدت وفاء على رأيها: «يا أختي كل رشفة من فنجانها بفنجان». وصاحت أم طاهر: «يا أختي هنيئاً لزوجها عليها؛ ألله عاطيها هالنَفَس»... ونصف ساعة أخرى لأجل صنع القهوة...

ولكن لماذا أضيع الوقت والورق؟ يجب ألا أخاف.

نعم. بعد أسبوع من استلام عبد الصمد لشغله الإضافي الجديد، تركنا سمر وسحر في الصالون بعد أن أوصيت أمّ بشير وبناتها بهما. خرجنا إلى المدينة لرؤية «المحل». كانت الساعة حوالي الخامسة، وسماء نيسان مرشوشة بغيوم خفيفة باردة. زحمة البشر بدأت تشتد، والباصات بدأت تنحشي بالأبدان والرؤوس.

تدبّرنا مقعدين في الباص، فبيتنا يقف عند المحطة الأخيرة. ثم مشينا المسافة بين المحطة الأولى والمحل. لم أكن شديدة الاهتمام حقاً بالذهاب إلى هناك. فقط، رأيتها فرصة للخروج من تلك الشرنقة، شرنقة المطابخ والحفّاضات واللغة المتخمرة. قطع عبد الصمد تلك المسافة وهو يرشدني إلى الأماكن التي كان يجول فيها حاملاً كاميراته، والأماكن التي صوّر فيها الناس، والتي اختلف فيها مع الزبائن، والتي... لكني استطعت بسهولة أن أقصي حديثه عن أذني،

وأستمتع بالزحام والضوضاء والأضواء.. باعتراضات الناس بعضهم على بعض وهم يحتشدون على الأرصفة، بمخالفات المرور.. بالمغازلات الوقحة، بالمراهقين السائقين دراجاتهم على الرصيف...

كنت منتعشة تماماً عندما وصلنا إلى المحل. كأنني خارجة لتوي من الحمام وأنا مسربلة برائحة النظافة. الشارع نفسه كان جميلاً ـ بأشجار أرصفته، وجنينات بيوته. لكنني لحظة وصولنا إلى المدخل أحسست بشيء من الخوف، ومن الانقباض. بسرعة، عتمت نفسي، كأن المساء قد حل فيها وحدها.

ـ «ما بك؟» سألني عبد الصمد، مستغرباً وقوفي المفاجىء.

ـ «ادخل أنت، شف شغلك.. وخليني أرجع. أنا خائفة على البنات».

ـ «لا، لا. نرجع معاً. أنا قلت لوائل، اليوم لن أشتغل. قلت له سنأتي أنا وأنت».

ظللت مترددة.

ـ «تعالي!» هتف عبد الصمد بلهفة. «يمكن على وجهك، ألله يبعث الرزق».

كان شبح طويل يتحرك داخل الدكان. وقلت لعبد الصمد: «لكن لا تعملها سيرة. كلمتين ورد غطاهما، ونرجع».

ـ «أنا سأعطيه قياسات فتحات العدسات وأرجع. دقيقة واحة. بالكثير دقيقتين».

تقدمنا. هبطنا ثلاث درجات. لحظة وصلنا إلى الباب صار خوفي وانقباضي وحشة وتوتراً. وصارت الأشياء مبهمة ومعتمة، وتؤجّ فيها دوائر ضوء خاطف.

كان الشبح واقفاً وراء المنصّة الزجاجية، طويلاً طولاً غير عادي وسط مكان ضيق ازدحمت أركانه بأدوات صغيرة. سلّم عبد الصمد عليه، وبدأ الحديث معه فوراً. وقفت منكمشة ومحنقة، لأن عبد الصمد لم يعرّف أحدنا بالآخر.

دقيقة أو اثنتان مضتا وأنا واقفة. وبعدها قلت لنفسي: انظري إلى رب نعمتنا الجديد يا بنت، وشوفي من أي كوكب هبط علينا. رمقته بطرف عيني. ليس وجهه المعدني وحده ما جعلني أعيد النظر إليه. شارباه وشعر رأسه أيضاً. شاربان طويلان، ثخينا الشعر، أسودان تماماً. بعكس شعر رأسه الغريب، خصلة بيضاء وخصلة سوداء، والأبيض ضعف الأسود، والأبيض أبيض كالثلج، والأسود أسود كالفحم.

قلت لنفسي: محل التصوير هذا مجرد مصيدة لاصطياد البنات. وربما النساء أيضاً. وهذا الشاب. ليس شاباً حقاً، فعمره قريب من عمر عبد الصمد.. لا شك أنه دفع مبلغاً محترماً لتأثيث هذه المصيدة، وكذلك لصبغ شعره بهذه

الطريقة التي يفضحها كمالها. لقد كان شعره جميلاً إلى درجة لا تصدق.

خرجنا من المحل، وأخذ نفوري التلقائي من ذلك الشبح يتلاشى. وساعة وصلنا إلى البيت، كانت وحشة بكماء قد فاضت في داخلي. وارتميت على الأريكة فأغرقتني.

كانت الابنتان نائمتين على البساط، فأسرع عبد الصمد يحملهما إلى السرير. ومع اختفائه في غرفة نومهما، واختفاء شتائمه لأمّ بشير على هذا التقصير، تحولت سيول الوحشة في داخلي إلى سيول ذكريات. خاطران جسيمان هبطا على مخيلتي وجناني: ثماني سنوات مضت لا أعرف كيف، منذ واجهت الحياة لأول مرة بذلك الحب والاندفاع، وأن سنة واحدة فيها، سنة الكومونة، كانت نقطة ذلك العمر الوحيدة المضيئة.

بحلول الليل صرت بأكملي مجرد شاشة ساكنة تفيض بالصور المتحركة. منذ سنوات وأنا لا علاقة لي بشيء، وأنا أخرج الصور من عين نفسي لكي لا تعود إليّ بعد ذلك أبداً. لكني لم أقدر أن أبقى على الحياد والبلادة في ذلك الليل. أحسست أني سخنت من تقاطر الصور وتقاطعها، وأن جبيني كثيف وثقيل. كان يجب أن أقول لنفسي من هو ذلك الشبح، لكن الموت كان أسهل عليّ من تلك الشجاعة اللازمة.

صددت عبد الصمد عن جسدي، وجعلته يلوذ بالفرار من

عصبيتي، ثم بدأت عيناي تستعيدان ما خافتا في البداية من رؤيته: وجه ذلك الشبح. وجه آخر وراء ذلك الوجه تلامح لي. فيه شيء ما، انطباعة أعرفها، خاطرة أليفة.

لم أستطع أن أتذكر أنه نظر إلي. ورأيت أن هذا وحده يكفي لأن أخرجه هو الآخر من مدار شاشتي. إذ كيف بحق الله يتسلَّل مراهق في الثلاثين إلى ثلاث أو أربع ساعات أمضيتها على الشرفة وكلها وجد وتداعيات.

فقط عندما أغفيت ورأسي على الجدار، غادرتني صورته. وفقط عندما التقيناه للمرة الثانية أيقنت أن ذلك الشيء الأليف، المعروف والمجهول، حقيقي في وجهه، وليس صباغ الشعر أو نتف الشاربين هو الحقيقي. اندهشت من نفسي، لماذا هذا الانشغال بصاحب دكان. وكيف أكون أعرف شخصاً لا يعرفني. كانت عيناه كالزجاج الأسود عندما نظرتا إلي: تعبّأتا بي وفرغتا مني. واحترت في أمرهما. أنا لا أريد أن أسلّم عليهما. لا أريد.

قلت لعبد الصمد في اليوم التالي إنه آن الأوان لنضع قردتينا في روضة أطفال. سيكون معنا مال يكفي نفقاتهما الهزيلة. وأنا مصممة على إيجاد عمل لي.

- «نحن مديونون بعشرين ألفاً»، قال: «وتلزمنا سنة لنفي ديوننا».

- «لو كنت مديوناً بمليون. اسمع، عبد الصمد. أنا أقدر أن

أكون أماً ومهندسة، وأكون ربة بيت ومهندسة، لكن مجرد أمّ، ومجرد ربة بيت، لا. وأنت تعرفني إذا طلع شرّي».

وهكذا كان. بقي حزيناً وساخطاً طوال أسبوع. لكنني لم أكترث. صار شغله الشاغل ابنتيه، فكأنه خسرني أنا ولم يعد له غيرهما. أما أنا، وبعد أول يوم لسمر وسحر في الروضة، فقد صار ذهني صدفة مطموسة الباب. وصارت صورة ذلك الشبح، شعره وشارباه وذلك الشيء في وجهه، كتلة تُجَسّ وتُلمس مرمية بكامل ثقلها على باب ذهني. لم تكن تدفع الباب ولا تهز الجدران. كانت فقط مرمية على الباب، بلا ملامح ولا تعابير، وتنتظر لحظة تهاويه.

وقد تهاوى أخيراً. من نقطة المركز اخترقته شعاعات الذاكرة وشققته. وعندما تجزأ وانشطر، اختفى الشعر والشاربان وظهر وجه وائل القديم. ووثب قلبي خارج قضبان صدري وطار.

كان عبد الصمد يقول: «سبع سنوات سجن! شغلته شغلة، معناها. أنا غير مطمئن إليه، وائل هذا».

رأيت وجه عبد الصمد، وطمسته فوراً. استعدت وجه وائل القديم، وقلبت حياتي رأساً على عقب. إنه وائل، إذن. حتماً. كيف يا إلّهي لم أتعرفه من أول ثانية؟ ما الذي انسدل على عيني وعقلي وذاكرتي؟ رأيت جموداً وحياداً في الجهد الفظيع الذي كان يبذله ليخفي عن عبد الصمد أنه يعرفني.

كيف يا إلَهي هكذا دفعة واحدة! كيف هذا الدكان! كيف..
كيف...

كيف تزوجت عبد الصمد!

نهضت إلى البلكونة، فقط لأكون وحدي. كان عبد الصمد مستحيلاً في تلك الآونة. كل شيء غدا مستحيلاً في تلك الآونة. وائل كان مستحيلاً. ما الذي أخرجه من غياهب السجن ووضعه عند باب قوقعتي؟ هذه المصادفات كلها أيضاً مستحيلة.

بعد أيام من دخول سمر وسحر الروضة، لبست فستاناً أبيض بلا أكمام، وحصنت بأزراره الخمسة والثلاثين كل مكان آخر من جسمي.

هبطت مع أبي بشير إلى المدينة. كنت مشوشة الرأس. أعطاني ثلاثة عناوين جديدة، ودعا لي بالتوفيق. هبطت من السيارة، ودارت أمام عيني لافتات الدعاية الضخمة للآفاق الهائلة التي ارتادتها تكنولوجيا اليابان وأمريكا وأوروبا: نسمع بها ولا نراها. ودرت في المدينة من شارع إلى ساحة إلى شارع إلى زقاق. لم أكن آمل الكثير من بحثي ولا من تلك العناوين. وإذ انتهى بالخيبة المعتادة تجوالي الكئيب، ارتحت مثل إنسانة قامت بكل التزاماتها، وفعلت ما قالت إنها ستفعله.

صار بوسعي أن أتفرغ لهمّ خاص بي وحدي، ربما كان هو

السبب الغائب وراء هبوطي إلى المدينة. هذه العناوين، وكل اللافتات الضخمة، والشوارع العاجّة بالحركة والصوت.. لا أهمية له إذا لم أتأكد من أن ذلك الشبح هو وائل.

وهكذا وجدت نفسي على الناصية التي تصل شارع المحل بالشارع الرئيسي. كنت أغذّ الخطى لا ألوي على شيء، ودخلت الشارع الفرعي، ثم وقفت. ماذا إذا كان ذلك الشبح هو وائل فعلاً؟

وقفت عارية الذهن تماماً من كل لغة. كأنني معادلة رياضية نتيجتها الصفر.

أنا امرأة متزوجة الآن. وعندي ابنتان. واسمي لم يعد سلمى بل (أم عبد الرحمن). وزوجي هو الأستاذ عبد الصمد بوفرنين.

كان ذلك الشعور المضاد قوياً إلى درجة أنه أوقفني على الرصيف دقائق. واحد أو اثنان من المارة نظرا إلي باستطراف واستغراب. وعندها سخرت من نفسي. مهما يكن فأنا سلمى، وسأظل سلمى. ليس هناك غير سلمى واحدة في داخلي. وماذا يعني إذا أردت التأكد من أمر له في حياتي كل ذلك الأثر؟ يا للبلاهة والجبن! أين حريتي؟ أنا لست واحدة تلتمس موقفها أو شرفها من طقوس أمّ عبودة.

نظرت إلى فستاني الأبيض. خمسة وثلاثون زراً، من النحر

إلى ما تحت الركبتين: ويا للغرابة! أحسست بالاطمئنان وسرت.

لم أرَ المسافة بين بدء الشارع ومنتصفه، حيث الدكان. سرت، وفقط سرت. ليس بسرعة بل ببطء سياحي. في المنتصف توقّفت. حقّاً ماذا إذا كان هو وائل؟ غير أني وجدت قدمي أمام باب المحل الزجاجي، بعد أن هطبتا الدرجات الثلاث. فتحت الباب ودخلت. رأيت كل تلك الأشياء الصغيرة: الأفلام، الألبومات، الملصقات، الركائز، الكاميرات، الكرسيين الصغيرين، المنصة الزجاجية الصغيرة، الدرج الأيمن الصاعد إلى غُريفة في الأعلى... ولم أرَ أحداً.

أطلقت تنهدة ارتياح. انتهى. حاولت وانتهى الأمر. الصدفة تفهمني أنني يجب ألا أتابع. أدرت للمحل ظهري وعدت. فتحت الباب.

أبقيت الباب مفتوحاً. أحسست أن أحداً بات في تلك اللحظة يقف وراء المنصة. أدرت رأسي على مهل، ورأيته. الشبح.

انفلت الباب من يدي وانغلق. أمكنني في تلك اللحظة أن أرى الوجه، دون الشاربين ودون الشعر الغريب. إنه هو. إنه هو. لقد آن لي أن أفتح عينيّ وأرى.

نظرت إليه ونظر إلي. نظرت إليه وقد انزاح الستار. إنه وائل. العمود الذي هوى فهوت معه الكومونة. وأشياء كثيرة.

نظرت إليه، أنا سلمى وأشياء كثيرة. لم أدرِ ماذا أفعل. لم أدرِ أي شيء هو الذي يجمعني بهذا الذي هبط القناع عن وجهه، فأتصرف على أساس ذلك الشيء. كان يجب أن أعرف أولاً. كان علي أنا أن أعرف. لأنه لا أحد يمكنه أن يدلني. حتى وائل وقف ساكناً، منتظراً، عيناه تحيطان بوجهي وتستنطقانه. عيناه كلهما إشارات استفهام يرسلها طفل أخرس.

نحن لم نكن حبيبين من قبل، فماذا نحن الآن، وما دمت تحققت من أنه وائل، فماذا عليّ أن أفعل؟ ما الذي يوقفني فلا أسلم عليه؟ لماذا لا أقول له: الحمد لله على السلامة؟

كان وجهه ما يزال بلا تعابير ـ منتظراً. وكان جسمي قد صار مواجهاً له بالكامل ـ خمسة وثلاثون زراً. ماذا حدث بعد ذلك؟ كيف اختفت المسافة من بيننا؟ خطا هو وخطوت أنا. وقفنا وجهاً لوجه، وصمتاً لصمت. وفراغاً لفراغ.

ـ «طوّلتِ».

ـ «كنت تنتظرني؟».

هز رأسه بالإيجاب. صمتنا.

قلت وكان يجب أن أقول: «لم أعرفك». لم يبد على وجهه الألم، لكنني أحسست به. يا للحزن! يا للأسف،

صمتنا ولم نتكلّم. لم أقل له: الحمد لله على السلامة. لم ينطق أحدنا باسم الآخر. فماذا حدث بعد ذلك: لماذا تغدو الذاكرة في هذه اللحظات بالذات بطارية نفدت شحنتها؟ عند ذلك المدى، أحبطت الذاكرة.

واأسفاه! لا أذكر كيف حدث ما حدث بعد ذلك. حتى وائل الذي حكى لي فيما بعد، لا يعرف. حكى لي كيف امتدت الأيدي، وكيف امتدت الوجوه والصدور والشفاه. وكيف امتددنا كلانا. لكنه لم يعرف كيف حدث ألف حادث صغير آخر ولا كيف ولدت اللغة بيننا من جديد.

أذكر راحتيه تشدّان على زندي، وأني أحسست بمياسم تطبع على زندي وشماً، وأني أغمضت عيني لتعبرهما نحو الداخل تلك النار المقدسة إلى حيث تصير برداً وسلاماً. بل أذكر أن ذراعيه التفّتا على ظهري كحبلين من أشجار الغابات.. وبعدها شفتيه تسقيان بقبل سريعة مجنونة لاهفة كل مكان تصادفانه مني، ثم تنتزعان شفتي السفلي من مكمنها وتطبقان عليها.

وأذكر أني اندفعت هاربة نحو الباب، وفتحته، وأنا ما أزال أحس بأزراري الخمسة والثلاثين تربط ثوبي علي، وأني كأني سمعت صوته لأول مرة، لأول مرة منذ سبع سنوات، سمعته ينادي: «سلمى!».

وقفت والتفتّ. «لا تخرجي هكذا». رجعت ثلاث

خطوات. كنت مشوشة كمراهقة. رجعت مرة أخرى: وجهاً لوجه؟ ولكن صوتاً لصوت، وحشوداً لحشود، تكلمنا ولم نتكلَّم. تماماً كما يقول الرومنتيكيون. ومرة أخرى: ذراعاه على ظهري، وصدري داخل صدره.. وأظن: شفتاه تلتقطان شفتي العليا.. وربما، راحة يده على شعري...

لا أتذكر، لا أتذكر. ولكن لا بأس. إذا كانت الذاكرة تخذل، فأعماق الروح لا تتأثر بهذا الخذلان. تلك الدقائق الخمس عبرت إلى أعماقي واستوطنت هناك وصارت عصوراً. لو أردت أن أكتب عن السنوات الأربع الأخيرة من عمري مع عبد الصمد بوفرنين، لما أمكنني جمع عشرين جملة، ولكانت تلك الجمل كثيرة على تلك السنين. أما تلك الوهلة الضائعة، فزمن آخر.

تملصت من يديه بشيء من الخشونة. لكن عينيه أوقفتاني أشد من يديه. وجدتني أجهش مثل سلمى الصغيرة يوم كان أبوها يهم بمعاقبتها، وأتوسل: «اتركني أمشي ألله يخليك!».

ابتسم. أجل هذا هو. وائل بذاته. وتلك هي زاويتا عينيه المتطاولتان لحظة يبتسم. «أنا تاركك تمشين. أنا لا سلطة لي عليك. لكن لا تخرجي هكذا».

وإذن!

لم تكن هناك مقدمات. إن للروح مسافاتها الخاصة. خمس

سنوات تمضي بخفقة واحدة من جناحين. وخمس دقائق تبث الحركة في ألف جناح. وهأنذا أنطلق، من العدم تقريباً، من مكان كالفناء، وأصل خلال برهة إلى ساعديه. لا شك أن سلمى أخرى، سلمى قديمة، قد وثبت الآن وأمسكت بأعنّتي وأعنّة كل سلمى مغايرة. أعنّتي؟ يا للغرابة. لم يبق في داخلي شيء إلا وانفلت. وثلاث مرات مشيت بين الباب والمنصة، أحاول الخروج، وتمنعني سلمى فتدير عنقي بأعنّتي، وتمنعني وقفته الشجية الصامتة. كان حزيناً. وكلما عاينت حزنه طرت إليه. ثماني سنوات من العطش أرادت أن ترتوي في تلك اللحظة. وكان مهيمناً. وكلما انتبهت إلى هيمنته، جزعت وطرت منه.

كنا كلانا دائخين. لم نقف حتى ليتفرَّس أحدنا في الآخر. لم نحسب حتى لانفتاح الباب حساباً. إمَّا عناق وإمَّا فراق. كنا ذرّتين كونيتين انفجرتا ولم تعرفا أين ولا كيف ترسلان كواكبهما وأنا أنتثر مع الإجهاش ونازع الفرار، وأنتشر مع أنهاري وهديرها.

أخيراً وجدتني على تلك الناصية بين الشارعين. أمسح عيني بمنديل ورقي، وأتظاهر كما لو أن غباراً وقع فيهما. خرجت من ذلك الجوف وصعدت إلى الشارع. لم يخرج الإجهاش مني. بكيت وشهقت. هل أستطيع غير أن أبكي؟ هل أستطيع غير أن أتفجع؟ قبل وصولي إلى الناصية أسندت

جبيني على عمود معدني، كأن صاعقا يشبح رأسي، وبكيت. مرة واحدة فقط أجهشت بهذه الطريقة: يوم اختفت لمدة أسبوع لعبة جلبها لي أبي من القاهرة، وعندما أظهرها أخي عبودة جعلت أبكي وأجهش ساعة كاملة.

بالسرعة نفسها هبطت إلى موقف الباص. وكذلك من الباص إلى البيت. لم يهمني التدافر والالتصاق والانحشار في تلك الحظيرة البشرية المتنقّلة. المهم أني وصلت إلى البيت. دخلت ونظرت إلى الجدران والأرائك والأبواب والشبابيك، وأحسست أني بحاجة إلى ساعة على الأقل من الضنى والشقاء ريثما أستعيد صلتي الكريهة المقيتة بما حولي.

لم أرَ البيت مقيتاً ولا كريهاً. رأيته غريباً عني. رأيت أني ربّما أكون ثقيلة على الأريكة، أو سارقة لفنجان قهوة. وقفت ومشيت إلى غرفة النوم. وعند الباب انفلت في داخلي عويل: هذا هو مذبحي اليومي. أشحت بوجهي عن السرير. أسندت رأسي على الباب وبكيت. ثم حركت وجهي نحو السرير، ورمقته وأنا ما أزال أبكي. بكيت بكيت.

مشيت إلى النافذة، فقد أحسست بتوقف الهواء في حلقي. فتحتها ونظرت إلى الخارج. الفضاء. نظرت إليه وامتلكني رعب. مسحت دموعي بذراعي. وأبكي أيضاً؟ ولم أغير فستاني؟

خمسة وثلاثون زراً: بعد أن رميت الفستان قبلتها وشددتها

على وجهي. شعرت بالامتنان لها. صحيح أن يدي وائل لم تتماديا. ولكن ماذا لو تمادتا ولم تكن هذه الأزرار هناك؟

وائل؟

فيما مضى، كانت إشارة الاستفهام تتعقبه كلما ذكرته. أما الآن فقد صار هو إشارة الاستفهام. وعبد الصمد؟

«مرحباً!» هتف صوته من ورائي.

توقّف قلبي. كل شيء بي توقّف.

«كنت في المدينة كل هذا الوقت! ولابسة هذا الفستان؟ أما قلت لك لا يناسبك؟ يكشف عن زنودك!».

حملت الفستان، وضعته على العلاّقة، وفتحت الخزانة. ظهري دائماً نحو عبد الصمد. عبثت بملابسي القليلة كأن تعدادها ألف وأريد أن أفسح بينها مكاناً للفستان.

«يعني نحن اليوم بلا غداء»، قال بضيق خفيف ولكن متسامح. ثم قال: «أنت لا تتكلّمين». اتجهت إلى الباب في طريقي نحو المطبخ. لم أنظر إليه. كان مستحيلاً أن أرى وجهه ويرى وجهي وسط هذا الطوفان من الرعب. كان عقلي ينهشني. ووجهي وزنداي وفمي وكتفاي تصيح بعبد الصمد أن ينظر إليها جيداً ويرى المعالم النكراء ويريحني قبل أن تختفي وتصير خميرة في الداخل.

وثب عبد الصمد ووقف أمامي مروّع الوجه: «ماذا بك؟»

تنقلت عيناه على وجهي تتفحصان بفضول وإشفاق. وقلت لنفسي: الحمد لله! أي غلط في وجهي، أتحمّله؛ أما أن يفضحني اضطرابي فذلك هو الموت.

«شفتك زرقاء!» هتف عبد الصمد: «ماذا حدث؟ بماذا لطمت؟».

تخثّرت. طبعاً لم ألطم بشيء. مددت أصابعي إلى شفتي بحركة لاإرادية. أحسست أني ألمسهما لأول مرة في حياتي، أو أني ألمسهما كما لم ألمسهما من قبل. طبعاً هذه الزرقة لا علاقة لها بما حدث، ولكن كيف أبدو طبيعية، وأتفادى اضطرابي فلا يشتبه عبد الصمد بخيانتي؟

«سائق الباص الكلب! شوية ثانية كان سنّي انكسر». بكل بساطة.

ضحك عبد الصمد. «أنا قلت لك لا تنزلي، وخليك في البيت. أنا، خلص، انفتحت بوجهي بعد اتفاقي مع وائل. الله سبحانه وتعالى تطلّع بوجهي».

تركته وهرعت إلى المطبخ. كانت سمر وسحر تدقان الباب. فتحته لهما. دخلتا، واتجهنا إلى المطبخ. أدركنا عبد الصمد. عانق ابنتيه وقبّلهما. ثم اقترب مني متمارحاً، وهمس لي بحيث لا تسمعانه: «ستقول جاراتك، عبد الصمد باسها بوسة قاتولية. هه هه! لهذا ازرقّت شفتها! هه. والله أنا ميت من جوعي».

كانت السكين بيدي، وجمدت يدي. إذن هذا هو سرّ الزرقة في شفتي!

مضت الأزمة. مضت مثلما مضت مئة أزمة قبلها. هذه التفاصيل الصغيرة المتتابعة التي لا تنقطع ولا تنتهي، تستطيع أن تطمس تاريخاً بأكمله وليس فقط ربع ساعة جامحاً أمضيته مع وائل. وعندما يجوع عبد الصمد وابنتاه، أية أهمية تبقى لتلك الفظاعة التي تجلت آثارها على شفتي؟ بوسع الحياة اليومية أن تبتلع مئة حصاة من هذا النوع فلا تغصّ بأية منها.

بقيت في البيت لا أبرحه أسبوعاً كاملاً. حتى جلسات القهوة في الكومونة الجديدة، تعللتُ للتغيّب عنها. عندما لفلفت رعبي ذلك اليوم بابنتي وبشغل البيت، لم يعن ذلك أنني لجمته،وعندما نظرت إلى شفتي في المرآة، بعد أن تغدى عبد الصمد وتمدّد للراحة، أحسست أن الرعب سيبقى ما بقي عليهما ذلك اللون، تعجّبت من وجود الزرقة. لكن سعادتي كانت أضعاف عجبي. ولو لم يمتلكني الرعب لامتلكتني الأجنحة. لكن الرعب جعل كل لحظة تجمعني بعبد الصمد شللاً مرتقباً. بنفسه أفهمني سبب وجود اللون، وبقي هو أعمى فلم يفهمه. ماذا لو عبر ذلك البرزخ؟ لو خطر له مجرّد ذلك الخاطر؟

مضت أربعة أيام وعبد الصمد صابر عليّ جنسياً. كلما تحرش بي صددته بخشونة. لقد بتنا متفاهمين على تقنيات

للرفض والقبول. وصار لنا ما يشبه أن يكون دستوراً للتعامل. لكل حركة رمزها. ولكل تمدد على السرير إشارته. وإذا اختلفت الرغبات، وهي دائماً تختلف، فهناك رموز. وإذا تضاربت، هناك أيضاً رموز. وعندما تتضارب الرغبات، تتلاطم الرموز. حتى إذا أخفقت في الوصول إلى اتفاق، أزاحها عبد الصمد جانباً، وبدأ يتعامل بلغة المباشرة: يهجم علي ويجردني من قميصي.

قبولي بلغته المباشرة هو دائماً إذعان لا رضا. أنا لا أستطيع مقاومة هذا التاريخ كله. الزوجة جسد مملوك للزوج ـ انتهى. وإذا شاء العقل أن يظل رافضاً، تحطّم.

ذلك الليل أبى جسدي أن يذعن. حتى عندما استنفد عبد الصمد لغة الإشارات والرموز، وانتقل إلى اللغة المباشرة، وحتى عندما قبل عقلي ذلك القدر.. أبى جسدي أن يقبل.

«ماذا بك اليوم؟» همهم عبد الصمد وهو يضغط على قميصي. انتشر بي الرعب من جديد. إذا ظللت أرفض فسيشتبه ويعرف سبب الرفض وسرّ الزرقة. ولن تنقذني أية قوة إذا سألني سؤالاً واحداً فقط. سوف أتداعى وأنزل عني هذا الرعب وأعترف، فأنا لم أعد أطيق. إن بين أن يعرف المرء ولا يعرف، نقطة متناهية في الصغر. فكيف إذا كان له عقل ارتيابي مثل عقل عبد الصمد. وما مبرّري للرفض؟ أنا زوجته!

كان لا بد من أن تمرّ يدا عبد الصمد من هناك. وكان مستحيلاً أن تمرّا. أحسست أن ما بقي على زندي من يدي وائل سيلتصق ويمّسح بيدي عبد الصمد. سيختلط بما تفرزه يدا عبد الصمد فيفسد ويتلوث. وقد تحس به يداه. وقد ينفجر داخل أعصاب زندي فأصرخ وأجنّ وأفضح كل شيء.

في هذه اللحظة حمحم عبد الصمد وخار. ألقى بفمه على فمي. أشحت جانباً بعنف ودفعت كتفيه عني: «أنا قلت لك لا أحبّ بوسة الفم!».

ألقى بجبينه على كتفي، حيث كان الفستان، وخار، وتابع نشاطه.

عصر اليوم التالي أقبل حاملاً فنجاني قهوة، وجلس قربي على الشرفة. كان واجماً، ولكن بلا سخط. رشف رشفتين من فنجانه قبل أن يتكلم، على غير العادة. قلت لنفسي: رباه! فترة الخصوبة في دورتي الشهرية ستبدأ بعد غد، وهو سيطالبني الآن بولد.

قال: «سلمى، عندي شيء أقوله».

بقيت كما أنا، وصمتّ لأتركه يقول.

ـ «أنت، يعني، بعد خمس سنوات زواج، لا تعاشرينني».

نظرت إليه بفضول. ماذا عَنَتْ جملته الأخيرة؟ لكنه أثبت نظرته بوجهي، مفترضاً أنني فهمت.

قلت: «من أعاشر إذن؟ أمي وأبي؟».

ابتسم رغماً عنه، وأغمض عينيه برهة. ذلك هو ما جعلني غالية عليه: جهلي المطبق الذي يعني قمة الشرف. قال بعد لأيٍ: «لا، لا. قصدي، تعاشريني، تعاشريني!».

فهمت. صرخت: «عبد الصمد! لا تجعلني أنفجر، أقول لك! كل هذا الذي أتحمّله منك، وتتكلّم!».

دمدم: «على مهلك! بلا عصبية! أنا قصدي أنت. أنت لا تتحرّكين.. يعني، لا تشاركين.. لا تستمتعين.. كأنك ما لك علاقة...».

صرخت به: «شف، عبد الصمد! أنا مسائل من هذا النوع، لا أعرف أخوض فيها. أنت كل مرة، تنبسط أم لا تنبسط؟».

- «أنا أنبسط، أنبسط، لكن...».

- «لا لكن، ولا غيرها. كرمى لربك خلّصني من الحكي! ألا يكفي ما يصير في الليل؟».

تركت القهوة وقمت. أسرعت إلى غرفة النوم. أوصدت الباب ورائي. جلست على طرف السرير، وأرسلت عيني عبر النافذة. امتلأت عيناي بالدموع.

ماذا بقي لي سوى البكاء؟ رغم أني لم أعرف لماذا بالضبط بكيت.

بقيت مصرّة على حقي في البحث عن عمل. نزلت إلى المدينة، ومررت بالمكاتب ودوائر الدولة وبعد أيام اكتشفت أني لم أتضايق من فشلي كما هي العادة. أمضيت الضحى والظهيرة في المدينة مثل كل يوم، وعدت إلى البيت مهدودة القوّة، دون أن أقترب من تلك الناصية.

قال عبد الصمد ذات ليل وهو يدفع إلي بمظروف لماع صقيل: «هذه الصور، خذيها معك لوائل بكرة». ومضى إلى المطبخ.

قلت فوراً: «لن آخذ شيئاً لوائل».

وقف والتفت: «هو طلبها. قال أعطى أصحابها وعداً في الصباح».

رفضت. عاد إليّ مستغرباً. لم أسمح له بالاستفسار. رفضت، وحسب، تناول المظروف بغضب وقذف به على الأرض: «أنت خلص يعني؟ ما عاد أمر هالأسرة يهمّك؟ هذا أكل خبز!».

نظرت إليه بكراهية كالجمر، باشمئزاز كالمستنقع. هذا اللارجل الذي يقف بيني وبين وائل. الذي ألحّ وألحّ حتى هدم إرادتي وحياتي.

كان وجهه بزّاقياً. ونظرت أنا أليه بإحساس من الظفر. هو

لم يكن يرتاب بي؛ وأردت أنا أن أقول له: إذا كانت هناك ثقة بالإنسان، فلماذا نكبّله بالمقولات؟

بعد أن غادر البيت في الصباح، غادرت فراشي. وجدت المظروف ما يزال على الأرض. صنعت قهوة، وشربتها على الشرفة. عدت إلى غرفة النوم. لبست تنورة سوداء وبلوزة بيضاء بلا أكمام. تأملت زندي في المرآة وقلت لنفسي: سأسأل وائلاً هل زنداي يشعّان كما تقول أمي وعبد الصمد والجميع، وهل صدري صغير إلى درجة مزرية؟

تفقدت بطاقات الباص في جزداني وانطلقت.

لم أشأ الذهاب فوراً إلى وائل. أحسست بدبيب من البطر يتفشّى في مفاصلي وأطرافي. كنت ما أزال محتفظة بزندي وشفتيّ بعيداً عن تطفّل عبد الصمد عليهما. أحسست أيضاً بشيء من الحرية، والسيادة.

مشيت في الشوارع. مشيت امرأة غير هيّابة من ظروفها، وتمتلك رصيداً ضخماً في مصرف لا علاقة له بالمال. أحسست أن بوسعي إيداع شفتي وزندي هناك.

لا يمكنني تحديد كيف كان شعوري عندما دخلت المحلّ. رأيت سيدتين تنزلان درج الأستوديو، وقبل أن ترياني كانت إحداهما قد قالت: «وهذا الشعر! وحده يرمي قلب أيّ امرأة». انتظرت مغادرتهما، ونزول وائل.

أعطيته مظروف الصور. لكن كل شيء كان قد خرج بخروج السيدتين. هذه الأشياء الصغيرة المنمنمة التي سكنت هنا وهناك على الجدران والأدراج والأرض، هي أيضاً تحولت إلى محارات تختبىء فيها لآلئي.

- «يعني لولا المظروف ما كنت شفتك يا ست سلمى؟» سأل وائل بابتسامة عاتبة.

رأيتني أقف بعد سؤاله في موقع حسبت أني قد خرجت منه وانتهيت. لا أنكر أني سعدت بذلك اللقاء الأول. لكن هذا الطريق يجب أن ينتهي. في الأيام القليلة الماضية، كان عقلي وشعوري قد خلصا منه تماماً. ولو لم أكن موقنة كل اليقين بأنه كان شذوذاً لن يتكرّر، لما جئت إلى المحل مهما كان السبب.

- «أو، يمكن أردت تتأكدي أن سبع سنين لا تكفي لمحو الذي بيننا».

- «لماذا أطلقت شاربك؟» سألت بحيادية جبانة، وبهجة مزورة.

- «انجرح ما بين شفتي وأنفي. صار مزعجاً للنظر»، قال بابتسامة غائرة.

انفتح جوف في صدري. غصباً عني، سربلت وجهه

بتفحصات عيني. لكنني قلت: «كنا دائماً قلقين عليك. كلما طالت مدتك، قلقنا عليك أكثر».

كانت عبارة مهلكة. ولم يكن هو يتوقّعها أبداً: صيغة الجمع، والقلق المتزايد الذي يعني تبريراً ليأسي منه. لكنها أعطتني أمان الحياد الذي نشدته. رحت أتخيل شكلاً ما لشفته، وسَرَتْ في بدني قشعريرة هائجة.

خفت أن أتداعى أمام نداء إنساني صرف جرّني نحو وائل في تلك اللحظة. انتزعت بضع كلمات من ذهني ووضعتها على لساني: «وكيف.. طلعت.. أخيراً؟».

تلامحت ابتسامة عاثرة على وجهه، دون شفتين: «استسلمت».

زفرت مع تكشيرة صغيرة: «كيف يعني؟».

ابتسامته نفسها: «مثلما يحدث في كل أنحاء العالم: وقّعت على تعهّد، وكتبت رسالة». ولأني صمتّ، أضاف: «ومن جملة تعهّداتي أن لا أقول لأحد أني تعهّدت. ولا أقول شيئاً أبداً».

كان يجب أن أنجو من الانزلاق إلى تعاطف مجهول النهاية، فقلت بعبث خفيف: «ومع ذلك ها أنت تقولي لي».

هذه المرة ابتسم: «غلطة ولن تتكرر. أنت شايفة أنك مجرد أحد؟».

جاءتني الفرصة أخيراً. هتفت بمرح: «لا، طبعاً. نحن صديقان عظيمان».

«سلمى» هتف بجدية، «عندما كنت هناك، طبعاً توقّعت أن تكوني تزوّجت. ولم أحقد. مع أني زعلت. أنت لا ذنب لك. العالم كله ينهار، والعم سام هو الوحيد المنتصر. نحن كلنا صرنا على الحديدة. نحن جيل ينتهي. مع ذلك، بحثت عن شيء حقيقي باق في حياتي. . ووجدت أنه أنت،أقصد حبي لك».

كان يجب أن أظل متماسكة وواقفة. وكان يجب ألا أجرح وائلاً. وكان يجب أن أظل صادقة، ولكن كيف أكون صادقة، وفي داخلي حقيقتان كل منهما تقتل الأخرى؟

التفتّ. كان الكرسي قريباً جداً مني. جلست عليه. لم أتكلم. وسمعت وائلاً يقول: «إذا كنت انتهيت من نفسك فقولي. ولا تخافي. أنا أصلاً متلبّك بحريتي الجديدة. حرية خلّبية. العودة إلى هناك أفضل من دكان التصوير هذا».

مرة ثانية جاءني الحظ بفرصة طيبة. ألم تعوّدني الحياة مع عبد الصمد على تأجيل المسائل الجوهرية الشائكة إلى أن تذبل أشواكها؟ بلا تردّد، وبمرح خفيف، سألت: «ولماذا استأجرت عبد الصمد لمعاونتك؟».

ـ «أنا وقّعت معه عقداً. أنا لم أستأجره».

ـ «أنا آسفة. قصدي، لماذا لا تشتغل أنت اللمسات بنفسك؟».

ـ «اللمسات لازم لها أصابع لا ترتجف. وأنا أصابعي ترتجف».

فوجئت. فهمت. صمتّ. نظرت إليه وتفحصته بأكمله. أي وحش يمسك بي في هذه اللحظات ويمنع طيراني إليه؟ تفحصت يديه الغائبتين تحت إبطيه، وذراعيه المتصالبتين على صدره. يا إلّهي!

قال: «لكن لا تخلّي هذا التاريخ يؤثر عليك». وأضاف بإشراقة متعمدة: «فكري في وائل أيام الكومونة. أنا ما زلت ذلك الشخص».

ـ «وعبد الصمد» غمغمت فجأة وبلا مقدمات.

ـ «لن نسلبه شيئاً. له حقوقه، ولنا حقوقنا. وإذا شئت تركه، أنا مستعدّ».

ظل يخاطبني بتلك الحميمية. كأن صدودي عنه لم يعن له شيئاً. كأن هزة رأسي الرافضة لتصوراته لم تعن له شيئاً. أحسست في نفسه مشاعر قوية راسخة لا يمكن أن تهتز بسبب أي موقف مني. رأيتني في عينيه ـ كيفما كان الوضع بيننا. كان إحساساً يخطف. يمسك الحشا، ويشد الصدر نحو وائل،

وائل الذي بدا راضياً جداً بحديثنا ولا يطلب المـزيد، مثـل عبد الصمد.

إذا كانت هناك مشاعر توصف بالجمـال، فتلك هي التي أحسستها يومذاك. كانت جميلة، نقية، مضيئة. وكانت تنضح بهجة وراحة. كانت بلا أغـلاط. سوى أنهـا مستحيل عليها البقاء في بيت عبد الصمد بوفرنين الذي أسكنه.

طلبني عبد الصمد للفراش بعد يـومين. كنت أتفرج على التلفـزيون. لم أجب بشيء. كـرَّر الطلب. قمت عن الأريكـة إلى المطبخ. تشاغلت بصنع القهوة. أردت الابتعاد عنه، وأردت أن أفتـح منفذاً لسيـل الضيق الـذي في نفسي ـ هكـذا هي حيـاتي، دائـماً هكـذا. إطعـام البنتـين وإلبـاسهـما وإرسـالهـما إلى الروضة، مسح البيت وترتيبه، الطبخ، الجلي، الغسيل، نشر الغسيل، وسحر وسمر مرة ثانية، وأبوهمـا، والضيوف، وهذه الملابس المرمية هنـا، وفنجان القهـوة المنسي هناك، والشباك المفتوح للغبار. . . ثم الفراش!

هذه هي حياتي.

ليس صحيحاً أن شعوري تجاهها، رغم عنفه وضراوته، هو كالسيل. لقد تعود الانكفـاء داخلي. ولم يعد ينـدفع بـوجه عبـد الصمد إلا في اللحـظات الاستثنائيـة. ذلك لأن تكـرار الانفجار يقتل صاحبه. لكي يواجه الإنسان العنف بالعنف كل يوم، عليه أن يكون مجبولاً من غير طينة البشـر. مستحيل.

هناك حد معين، وبعده يستسلم الإنسان، من الملل.

وقد انغلقت الدائرة على سيول العنف. وصارت السيول تدور وتدوّم حول نفسها، وتفتح في داخلي حفرة. سواء هدأت أم لم تهدأ، لم يكن لها أي مخرج. أحياناً تمر عليها رياح ثلجية، فتصقع وتزمت خانقة كل ما في داخلها من خفقات وخلجات. أحياناً تضطرم بنار داخلية فتفور وترسل من سطوحها أبخرة هادئة خانقة.

خلاصة القول: استوطنني الحصار. لم يعد موجوداً في الخارج وحسب، بل صار في الداخل. يقول عبد الصمد: تعالي إلى الفراش.. فآتي إلى الفراش. قصارى جهدي أن أمنع الحمل عني مرة ثانية. معركة هزيلة، ربما. لكني كسبتها. كنت مصممة على كسبها، فطارت الأبخرة والثلوج. تحصن بأعصابي نوع من الجنون يعرفه عبد الصمد جيداً. فهم أني سأقاتل لأجلها مثلما فعلت ليلة الزفاف، فأذعن.
الحصار الذي أريد الآن أن أعرف أين بداياته وأوائله، وأي جسد هو أخطبوطه، كي أقتلعه من جذوره ثم أنشره على الدروب. سينشف وييبس في الهواء. لقد اكحتل بظهور وائل.

لطالما تمنيته أن يغيب.. هذا الذي عندما غاب انخسفت حياتي. ولكن ما الفائدة؟ إنه لم يكن غائباً في غياهب السجن، بل في غياهب نفسي. نعم هكذا أحسست عندما ظهر. أحسست أنه طلع مني. مثل جنين حبلت به سنوات، ولمّا ولد، جاء

شاباً في الثلاثين خرج من تلك السيول التي تجمّعت بركة هنا وبركة هناك في دواخلي.

قابلته للمرة الثالثة وأنا أطفح بالبشر والبهجة. لبست يومها أي فستان. هو لن يغتصبني. لم أكن خائفة منه، ولا من نفسي. وكان هو على ما هو عليه دائماً: أية حالة بالنسبة له طبيعية وعادية. عندما تعانقنا كانت الحالة طبيعية وعادية. وعندما لم نتعانق كانت أيضاً طبيعية وعادية. وفي المرة الثالثة، قلب راحتيه أمامه متذمراً: «طول الأسبوع وأنا أغلي القهوة هنا، وبعدها أشربها لوحدي».

إلى جانبه كانت سخّانة كهربائية وعليها مغلاة. «لكن ما عليه. غيابك أعطاني الوقت الكافي لأتعلم غلي القهوة العربية». وصبّ لي ملء فنجان خزفي، فوضعه أمامي على المنصة الزجاجية. «تفضلي يا ستي. خالفت تقاليد التضييف وملأت لك فنجانك».

جلست وجلس. لم نكن في حاجة إلى مواضيع للكلام. حولنا تدافعت ثماني سنوات مليئة. وإلى جانبنا مغلاة طافحة بالقهوة. و«سمعت بأخبار منيرة وهاشم، ما؟».

ـ «منيرة وهاشم! يا إلّهي. كأنهم غابوا عني منذ قرن. قليلو الأصل. لا سؤال ولا خبر. كيف أحوالهم؟».

ـ «انفصلوا».

أحسست بخطر واخز، رغم المفاجأة القاسية. تناولت فنجاني وحسوت منه وتناول هو فنجانه فشرب أيضاً. رأيتني أهم بالكلام عن أسفي وحزني، لكنني امتنعت: هذا مقبول فقط في جلسات القهوة مع نساء الحارة. أمام وائل سيكون مفتعلاً ومقرفاً.

ربما لأني صمتّ، قال هو باقتضاب: «حتى الحب لا يصمد».

قلت: «أنا أعرف منيرة. لا تقدر على أي التزامات».

شربنا القهوة بصمت مفاجىء. بدا وائل محرجاً، كأن الصمت يضغط عليه. تمتم: «إذا كان زواج هاشم ومنيرة سيقوم على الالتزامات، فالأفضل أن لا يقوم».

نظرت إليه باندهاش جاهل ولكن حقيقي. فوجىء هو، وفهم أني أريد شرحاً. عاد الانفراج إلى أساريره، كأنه ندم على انفعاله أو خاف منه. قال: «يعني، كل حديثنا في الكومونة كان ضد المجتمع البطركي. ولما نتزوج نصير بطركيين».

ـ «قصدك هاشم؟».

ـ «قصدي هاشم وغيره. تذكرين مقولة بشار ان المجتمع البطركي موشوم على أعماقنا، وأنه يحكمنا من لاوعينا الفردي والجماعي؟ بشار نفسه تزوج بنتاً نصف أمية، وعمل حاله

بطركاً عليها، منيرة نموذج للمرأة الحرة ـ في رأيي على الأقل. والرجل الذي ليس حراً من الداخل لا يقدر أن يعيش مع امرأة مثلها».

قلت بشيء من الكآبة: «أنت تتكلم في العموميات، الواقع شيء آخر».

نبر هو بهدوء محب سافر: «حدّثيني في الخصوصيات». وأمعن النظر إلي كأنه يقول: بل أنا، أنا أتكلم عنك وعني وليس في العموميات. لم يمدد يده إلى القهوة. فقط أمعن النظر إلي.

كان لا بد من أن أظهر قوية ومتماسكة: «إذا كان هاشم لم يبرأ من الآفات البطركية، يعني من حس التملك وغيره، فهو غير مذنب وغير ملوم. هذه الآفات مشرّشة فينا، يا وائل، مشرّشة. يجب أن تعرف هذه الحالات. أنت يجب أن تعرف أنه عندنا أعماق لا نملك أي سيطرة عليها».

صمتّ وهززت رأسي. ولكي لا أندفع في سرد مجنون لانهياري المتدرج البطيء أمام أم عبودة وخالي وزوجي، مددت يدي إلى فنجاني. شربت منه، وظللت ممسكة به. وبعد قليل شربت منه مرة أخرى.

قال وائل: «سلمى يا عزيزتي، المهم أن لا نترك هذه الأعماق تسيطر علينا. هذا هو المهم. هذه الأعماق ليست

صدقنا الذي نحتاج إليه. هذه الأعماق أوتاد غرزها المجتمع البطركي فينا، هي مستنقعات روحنا».

انفتح كلامه الموجع على حياتي الماضية كلها. ولولا قليل، لانفتح على المستقبل أيضاً. كان مطالبة مبهمة ولكن جارفة بأن أفعل شيئاً غير التحجّب بحجاب العفاف الذي التزمت به بعد لقائنا الأول.

أردت أن أشرب قهوة، لكن الفنجان كان قد فرغ، مددته له أطلب المزيد. هز رأسه بالموافقة المضيافة. «قولي شكراً. قولي القهوة طيبة. يا لطيف ما أبخلك!».

ابتسمت. وكنت بحاجة إلى ابتسامة. كان الثلج والبخار قد بدآ يسقطان عليّ من كل جانب. رأيتني ضعيفة مبتلاة، وحاملة لأثقال هائلة لا قبل لي بحملها. أردت فقط أن أرتاح ـ من التعب وأيضاً من حس فظيع بأني مهددة. كل تنازلاتي لهم لم تمنحني حساً بالأمان، ولا باستمرار الطمأنينة تحت راية الذل والاستلاب.

رشفت رشفتيْ قهوة. ودون أن أنظر إلى وائل، قلت: «وائل، قل عني بطركية أكثر من البطرك،لكن أرجوك أن نظل أصدقاء. أصدقاء فقط لا غير. أنا أضعف من هذه السيول التي تدور داخلي. أنا أضعف».

هز رأسه بالموافقة: «أصدقاء فقط لا غير».

كانت المفاجأة فظيعة ومغيظة. محبطة. طبعاً لم أنظر إليه، وإلا لانكشف ذهولي. أسرعت أشرب من الفنجان وأخبىء خيبتي وإحباطي. عبد الصمد يشعرني على الأقل برغبته فيّ. توقعت من وائل أن يجادلني ساعة كاملة على الأقل. أن يقول إنه مصرّ على امتلاكي، أو معانقتي. أن يقول إنني يجب أن أغيّر موقفي. ويرفض أن أكون بطركية أكثر من البطرك..

قال: «لكن لقاءنا، الأفضل أن يكون مبكراً. قبل مجيء الزبائن».

انتبهت إلى أن أحداً لم يدخل المحل طول هذا الوقت. نظرت إلى الباب، ووجدت شارة «نعود بعد قليل» موجهة إلى الخارج. ابتسمت بفرح. كان ذلك نوعاً من العزاء.

ـ «ماذا قلتِ؟».

ـ «بكرة الساعة ثمانية وربع صباحاً، أكون عندك هنا».

هل خشيت إن أنا ترددت في الكلام أن يحدد هو موعداً ويكون الموعد بعد أسبوع؟ هل خشيت أن تنكمش فيه تلك الأجنحة؟ كان يجب قطعاً أن نظل صديقين، ولكن دون أن ينفضّ حبه عني.

عدت إلى البيت وأنا متحيرة في أمري وسعيدة به، وكنت متعبة. وكانت نفسي منسدّة حتى الإشباع. لم أبال بأسئلة خطرت لي، ولا بمشكلة يجب حلها. أطل عبد الصمد بنوره

الوضّاء، وبعده سمر وسحر، وعادت الأمور إلى مجاريها.

بعد المغيب جلست على الشرفة. كان عبد الصمد قد مضى إلى المحل. تمنيت فنجان قهوة يأتيني فأشربه. لا شيء يبعد وحشة المساء مثل فنجان قهوة. أسندت ذراعي على كرسي ثان، وجبيني على ذراعي. سمعت صراخ الأولاد في الشارع وعجيجيهم. انتفض قلبي خوفاً على البنتين من الأذى. ومع ذلك لم أقدر على رفع رأسي ومناداتهما. طمأنني أن عبد الصمد سيأتي بهما عندما يعود. وفي هذه اللحظة صرت أبكي. بكيت حتّى ابتلّت ذراعي، وصارت الدموع تقطر منه على ركبتي. كنت عارفة تماماً لماذا أبكي. وعارفة تماماً أن السيول المستنقعة في حفر نفسي وجدت درباً لها عبر عيني. ولكن، كم يا ترى يجب أن أظل أبكي قبل أن تفرغ تلك الحفر من مآسنها؟

انفتح الباب أخيراً. تناولت ورقة كلينكس بسرعة، ومسحت وجهي وعيني. كنت ملفوفة بالعتمة، وحمدت الله. غير أني لم أجرؤ على الانضمام إليهم في المطبخ لتهئية العشاء.

كان يجب أن أعطي جسمي لعبد الصمد لكي لا أعطيه لوائل. إذا لاقيت وائلاً وعلى جسمي بصمات جسم عبد الصمد، طينه ووحله وأنفاسه وقفاه، سيمنعني القرف من فتح أزراري لوائل - ولو أن وائلاً لن يحاول أن يفتح أيّ زر.

أحس عبد الصمد بما في نفسي. رأيته أكثر إقبالاً عليّ.

وأكثر تحريضاً لجسدي. لأنه أحس أن لحمي أقل صلابة من كل مرة. وربما قال لنفسه: هذه هي فرصتي.

بالطبع حدث ذلك الشيء الفظيع مرة أخرى. إن لجسد المرأة سلطاناً على نفسه خاصاً به. وإذا ما استشرى فلا شيء يقف في طريقه. هو لا يكون أبداً أقوى من إرادتها - إذا شاءت. وليس صحيحاً أن حوادث الاغتصاب هي مئة بالمئة ضد إرادة المرأة. ما دام الرجل لم ينجح في إضعاف إرادة الرفض لديها، فهذا السلطان لا سلطان له. ولكن.. مَنْ مِنَ النساء تستطيع أن تكون صخراً؟ ولمدة خمسة أعوام!

بالنسبة لي أنا على الأقل، صار يحدث ذلك الشيء الفظيع. شيء كدبيب النمل المدغدغ للحسّ يسري فيفكك أوصال الرفض، والقرف، والكراهية. ينفثه الأفعوان فيسري في الوكر، ومن هناك يتصاعد كذرّات بخور ملتهبة. يعمي حواسي وإرادتي. يسري في داخلي بسلطان. وَلْتَفِضْ بعد انقشاعه سيول الرفض والقرف والكراهية من جديد، فهذا لا يهم.

وصل الدبيب إلى يدي. وأوشكت أن أمدهما وأشد بهما على ظهر عبد الصمد. أوقفهما الرعب. رعب انفجر في داخلي. ضوء أحمر كالدم أضاء المسافة بين دخول عبد الصمد الأول إلى بيتنا ودخوله الحالي إليّ. ضوء دموي شق طريقه في عمق وعيي، وبثانية واحدة أراني أنني

مستباحة، أنني لم أعد أملك شيئاً من نفسي، أن هذا اللارجل حقّق كل مآربه مني، أنني صرت مركبة له، أنني ربما شعرت في المستقبل بالحاجة له، وربما بالرغبة، وربما بالضعف تجاهه. هذا اللارجل، هذا المغتصب، هذا الجاني، هذا الحلزون، هذا البصاق المقرف، هذا الهلاك. . .

«عمى ضربك إن شاء الله! أنت حيوان؟ أنت بهيمة؟» صرخ بي بوحشية هائجة. أيقنت أني قد أخرجته مني في لحظة رفض عمياء، ولأجل ذلك تحمّلت صفعته النارية القادحة.

جلس وجلست. صرخت به: «أنا أفهمتك مئة مرة، لا تتجاوز حدودك».

صرخ بي: «حدودك، حدودك! خمس سنين زواج، وبين الرجل وامرأته حدود! أنت ما أنت بين النساء؟ خمس سنين وأنت. . .».

صرخت به: «خمس سنين وأنا أقرف منك. وأنا أمقتك. وأنا أتمنى كل طالع شمس أن أموت لأنك في الليل لمستني. أخي أنا لا أطيقك. أنا يستحيل أن أتقبلك. أنت لست رجلي. لست رجلي ي ي ي!

- «لعنة الله عليك وعلى خلقتك! أنت آفة! جثة مسكونة! أنت لست امرأة!» ونهض حاملاً بيجامته وملابسه. بعد ثوان أغلق وراءه باب غرفة ابنتيه.

ذلك الشيء الفظيع. ذلك الرعب. كنت عارية. ونظرت إلى جسدي في ضوء الليل. نظرت إليه ككتلة صمّاء معادية، وشر ممكن. لقد لمست في نفسي من قبل أكثر من سلمى. وتعودت أن أجمعهن حولي، وأوالف بينهن. وهأنذا أرى سلمى تكره جسدها. لقد بدا لها مستعصياً على الألفة. كان غريماً حقيقياً. ولولا انتفاضة الروح لاستباح كل شيء بي - عقلي ووعيي ومشاعري وكرامتي. لو أني فقط مددت يدي إلى ظهر عبد الصمد.

هكذا إذن يسيطر الرجل على المرأة.

كنت ما أزال رازحة تحت هول اكتشافاتي وتصرفاتي عندما دقت الباب أمّ بشير في الضحى التالي: «تعالي، تعالي، قبل أن يمتلىء البيت».

قلت: «بصراحة، أمّ بشير، هذه أمّ طاهر أنا ما عدت أطيقها، تعالي اشربي قهوة معي. أنا عملت قهوة.»

التفتت أم بشير وراءها فتأكدت أن لا أحد على الدرج وواربت الباب: «طلعت من شقّة الفجر. ركبت سيارة زوجها وطلعت».

صمتت أم بشير صمتاً ذا معنى. لم أفهم. واضطرت هي إلى الشرح: «زبون جديد». .

سحبت أم بشير من يدها وأغلقت وراءها الباب. قدتها إلى الأريكة. ملأت فنجان قهوة وعدت إليها.

-«قولي لي يا أم بشير. ألا يمكن، يعني، أم طاهر تكون مظلومة؟».

-«يمكن»، أجابت أم بشير بانسحابية تكتيكية. تناولت فنجانها وشربت منه. يجب أن لا تمضي أبعد مني في اتهام أم طاهر. وأضافت: «أم طاهر تحب الفرفشة، ويمكن نحن خيالنا شاطح».

- «قصدي، مستحيل أن تعاشر امرأة رجلين، زوجها وعشيقها، في وقت واحد».

- «يا عليك يا سلمى»، هتفت أم بشير كأنها تراني مغفّلة. «أنا دائماً أهنىء السيد عبد الصمد عليك»..

- «ما دخل عبد الصمد في الموضوع يا أم بشير؟».

- «والله إنك تحيرينني يا ست سلمى. كل ذكائك وثقافتك، وتسألين أسئلة! يعني قصص العشق في الروايات والتلفزيون فبركوها من لا شيء! والتي تتزوج واحداً في عمر أبيها، أو واحداً لا تحبه!».

سكتّ على مضض. يجب أن لا أمضي معها في الكشوف والمصارحات.

لكن أم بشير أرادت أن تعزز انتصارها المعرفي علي، فمضت في الحديث: «لو أنك مواظبة معنا في جلساتنا، كنت سمعت أم طاهر، ووصفها لشهقاتها وأصواتها، هي وأبو طاهر في الليل». وتلفتت حولها في الصالون، فتأكدت أن لا أحد فيه غيرنا، وهمست: «امرأة عندها كل هالفورة، ما ممكن! رجل واحد لا يكفيها... اللهم اكفنا شر إبليس اللعين يا رب، يا أرحم الراحمين».

كان الموعد الصباحي مع وائل قد فات. أمَّا موعد القهوة معهن فلم يقترب مني بأية جاذبية. انغلق المكان حولي والأفق البعيد. أحسست أني إذا لم أفعل شيئاً فستبدأ رياح السموم والزمهرير بالهبوب من بحيراتي المحتقنة.

هأنذا، زوجة وأم وربة بيت. ومع ذلك: ماذا أنا؟ إلى متى سأظل أتفسخ في الرتابة والبلاهة والعطالة؟

قال وائل لي إن الحل هو في أن أشتغل. «يكون الإنسان حراً إذا أحب أو إذا اشتغل».

- «هات، دبِّر لي شغلاً. ذات يوم عملت معي هذا المعروف، وأعطيتني حياة جديدة».

هجمت على جبينه غيمة. أما أنا فأصابني ذعر فوري: قد اعترفت اعترافاً غير مباشر أن ما أعيشه الآن ليس حياة. وقد صمتنا كلانا أمام الحقيقة.

كنا في الأستوديو. وكنت مسترخية على صوفا جلدية. نهض وائل عن كرسيه عند الأحواض الصغيرة ومشى إلى الركن الأيسر. رأيت ستيريو هناك. وبعد ثوان انسابت موسيقى بيانو كلاسيكية. جلس وائل على كرسي صغير موكئاً مرفقيه على ركبتيه.

قال: «أنا أعرف. المسألة لا تحتاج إلى شطارة كبيرة». أطرق قليلاً. كانت الموسيقى عذبة. ومعها صار تناول القهوة أطيب.

قال: «وأنا لا أفهم حرصك الشديد على إخفاء حقيقة حياتك عني».

لم أردّ. شربت قهوة. وشرب هو أيضاً. غمغم هو بابتسامة هازئة: «ترين، العين بصيرة واليد قصيرة. نحن تجارتنا بارت. السوق الحرة الآن هي كل شيء». اتسعت ابتسامته لأن المرارة ازدادت في كلماته. ثم أضاف: «نحن الآن خارج نظام العالم الجديد. على الهامش. أنا وهيغل».

رأيت أن صمتي قد زاد عن حدّه. إذا لم أقل شيئاً فهذا معناه أني جبانة وضحلة. وفجأة تنهدت وهتفت: «وأنا خارج العالم كله. أنا لا قيمة لي، ولا شخصية لي، ولا محلّ لي».

قال: «لا يمكن أن ترهني حياتك بقرار خاطىء اتخذته ذات

يوم. كل الأخطاء يمكن تصحيحها. ونحن يمكننا أن نعيش الشيء الجميل الذي نصلح له».

نظرت إليه مستفهمة. وأجاب هو باندهاش مرح: «أنا أحبك. وأنت، ألا تحبينني؟».

هبّت علي كلماته كالشواظ. نظرت إليه بقنوط. وهتفت بتوسل: «وائل، أرجوك خلّنا أصدقاء. أصدقاء وبس. مثلما كنا أيام الكومونة».

فتح يديه أمام ركبتيه: «ترين بنفسك. أنا لم أحاول اغتصابك. ولا حتى التحرّش بك».

كانت العبارة قاسية. غير أنها لم تكن وحدها ما أسكتنا. لقد سكتنا لأننا اتفقنا على ما لا ينبغي الاتفاق عليه.

أنصتنا للموسيقى. وشربنا قهوة. لم ينظر إلي. وتعطل جوّنا. أحسست بضيق قلق. جرعت ما في فنجاني لأني لم أعرف ماذا أفعل غير لك. استمعت للموسيقى. ثم صار لا بد من مزيد من القهوة.

قصدت المغلاة. ملأت فنجاني وعدت إلى الكرسي. لم يكن ينظر إلي. وضعت الفنجان على الكرسي ووقفت أرمق إطراقته الشجية وتهدل يديه وكفيه. مشيت إليه خطوة، ثم خطوة، ثم خطوة. كان يجب ألا يظن أنه خسرني. وأن لا أخسره. فنحن مثل ناجيين وحيدين من سفينة تحطمت.

رفـع رأسه إليّ، وعينيـه الشهـلاوين المتسـائلتين. قلت: «كيف تغيّر هذا الشريط؟ موسيقاه عذبه إلى درجة لا تحتمل».

وقف. اقتربنا من الستيريو. تناول شريطاً وأشار بـه إلي: «هـذه مقطوعـات مازوركـا لشـوبـان». وفـوراً هـززت رأسي بالموافقة. لم أقدر أن أعود.

صدحت الموسيقى من جديد. لكننا كنا واقفين الآن معاً، وبلا مسافة تقريباً تفصل بيننا. نظر إلي فـأطرقت. جمـدت وخمدت. خفت من أية حركها أتحركها. وخفت أن أتطلع إلى وجهه فيعرف ما في وجهي وأعرف أنا ما في داخلي.

لكن يديه عرفتا طريقهما إلى زندي. لم أتحرك. اقتـرب مني. اقترب وجهه من وجهي.

لا أدري كم بقينا متعانقين وسط الموسيقى. لم يبد أنه أراد تقبيلي. ضمني إليه، ولبلبت ذراعاه حوالي كأنني سـأهرب. وعـرفت أنه الحب. تلك السيـول كانت سيـولاً أخرى: من الموسيقى ونبضات القلب. فقط عندما رفعت ذراعي إلى كتيفه أخذ يقبّلني.

كان جامحاً وجارحاً. وكنت سعيدة وناشرة. وقفت كشجرة سنديان واغتسلت في السيل الذي صاره. كان شلالاً ولكن بلا عنف. وقد انجرف على بركي المغلقة ونزح بمائهـا الراكـد بعيداً عني. تلقيته في عروقي وأوشكت أن أجهش به.

خلصت وجهي منه أخيراً لكي أتنفس. «وائل!» هتفت به ورميت وجهي على كتفه. ثم ابتعدت قليلاً إذ هدأ، ولكن بقيت بين ذراعيه. «المرة الماضية، ازرقّت شفتاي لدرجة، رحت أنفضح».

ـ «مستحيل!» هتف هو باستغراب عاقل.

ـ «يعني أنا أكذب عليك؟» صحت به.

ـ «خمس سنين زواج وتزرقّ شفتاك! غير معقول. الزرقة تحدث في الفترة الأولى».

ـ «وائل! يعني أنا أكذب عليك؟» خلّصت خصري من يديه وعدت إلى الصوفا.

ـ «طبعاً لا. لكنه شيء لا يصدق».

أقبل نحوي وجلس إلى جانبي. طوق ظهري بذراعه. مرة أخرى أطرقت. أحسست أنني يجب ألا أتحرك ألبتة.

مدّ يده إلى بلوزتي. أسرعت أحجز أصابعه بيدي. نظرت إليه جزعة مؤنبة.

«بودي أبوسك هنا».

خلص يده من يدي. تدافع فزعي في صدري وحلقي. حلقي الذي نشف فجأة. امتدت أصابعه تفتح أزرار البلوزة.

صار فزعي صخباً وضجيجاً. وصار قلقاً. ونبس حلقي الجاف: «وائل! سأزعل منك».

لكنه لم يرعو. كأنه ما زال ذلك الشلال، وما زلت تلك الشجرة. قلت له بخفوت: «وائل سأزعل منك». لم يكن عنيفاً. ولا سريعاً. فقط انهمر عليَّ من كل جانب. وأينما أردت الفرار، رأيته ينهمر حولي، ويسد المنافذ علي.

لا، لم يكن ذلك سلطان الجسد. كانت الإيقاعات تنبض، تصدر عني وتمضي إلى جسدي وليس العكس. أحسست أن بشرتي تقبل نحو أصابعه، منجذبة بتلك الذبذبات. وأن جسدي يقبل نحوي ونحو وائل فارداً أعطافه السعيدة، وليس أنه يسحبني نحوه ويردمني تحت صدماته الكهربائية.

كل شيء كان مثلما وصفه وائل: «أنت شجرة خضراء» قال لي: «واليوم أنت أورقت بين يدي». نعم لأول مرة: شهقت كأنني سأختنق، وغصصت بالفيض كأني جنة تجري فيها الأنهار، وصحت كأني سأفارق، وأعولت كأنني أخرج من رحم أمي. عرفت ما لم أكن أعرف. ثم انفرشت على الفضاء. وطار بي الفضاء وأنا أشهق وأغصّ. تفتّح جسدي لمساقط الضوء والرياح والندى، وحملني الضوء والرياح والندى. وكانت تلك الصوفا وسع كوكبنا الأرضي.

قرأ لي قصيدة لوركا. قصيدة نصفها مكون من كلمة واحدة: خضراء. لكنه عندما نظر إلى وجهي وشفتي هتف

بارتياع: «أنت ما زلت عذراء يا ست أم عبد الرحمن».

عدت إلى البيت بآلاف الصور وبكلمة «خضراء». نظرت حولي أبحث عن شيء لا أعرف ما هو. كانت الكنبة المواجهة للتلفزيون أقرب الأشياء إلي. مررت براحة يدي عليها. وببطء وضعت جزداني في زاويتها الداخلية. تمنيت لو أن سمر وسحر تخرجان باكراً اليوم وتأتيان إلي.

دخلت غرفة النوم لأغير ملابسي. مددت يدي إلى التنورة ثم أرجعتها. كيف سأكون إذا فارقتني هذه الملابس؟ ليس فقط لأني أخبىء داخلها كنزاً من الصور والمشاعر، بل لأنها هي، بقماشها وألوانها،قد أضحت ذلك الكنز.

سخرت من رومنتيكيتي. لكني كنت فرحة بها. نظرت إلى التنورة والبلوزة بعد أن ثبّتهما على العلّاقة وأنا سارحة الخاطر. فوران مفاجىء في داخلي جعلني أعانقهما وأضمهما إلى صدري ووجهي. أغمضت عيني، وشددتهما إلى صدري ووجهي وقبلتهما واستنشقتهما. بكيت أيضاً. بضع دموع سعيدة، وأسيانة أيضاً.

جلست على السرير. رغم تعبي الكامل، كان جسدي خفيفاً خفيفاً. أحسست أنه لم تعد فيه رواسب. حتى سيولي الداخلية المنغلقة لم تعد مستنقعة ولا كابية. لا شك أبداً أن الحب يطهر الجسد. لا شك أنه ينقي الدم من كل أكاسيده المكبرتة، من كل ما بثّه عبد الصمد فيه طوال خمس سنوات.

نهضت. لبست روبي. هيأت جردل الماء والممسحة، وعلقت روبي في وسطي، وهممت بالبيت. كان مهملاً منذ فترة. وأردته أن يبرق ويلمع، وأن تفوح منه رائحة النظافة.

هكذا أحسست بحالي أيضاً. كنت أعبق بالنقاوة والنظافة.

كانت الساعة الثانية والثلث عندما لامست في نفسي ذلك العكر. رأيتني جالسة في المطبخ وقد سئمت جلستي، والطبخة التي أراقبها، والبيت الذي أطبخ فيه. راحت السكرة وجاءت الفكرة، كما كان أبي يقول. وعقارب الساعة صارت فجأة عقارب. وراحت الصور والكلمات والأحاسيس تتلاشى مني بسرعة موحشة. بدلاً منها حضر ما كنت طوّال الوقت أرواغ حضوره وأنشغل عنه. بعد دقائق سيحضر عبد الصمد. وسيصير البيت بيتاً آخر. سيأتي إلى حيث أكون. وسينظر في وجهي ويعرف كل شيء.

انتفضت كالملدوغة وركضت إلى مرآة المغسلة. أجل: شفتاي الاثنتان زرقاوان. حملقت بوجهي. ثم بالساعة. بالدقائق المبتقية. ثم بوجهي. ثم بشفتي. إذا استطاع وجهي أن يخفي أسراره عن عبد الصمد، فكيف تستطيع شفتاي؟

فتح عبد الصمد الباب. كانت اصبعاي تتلمسان شفتي عندما أطل وجهه في المرآة. نفوري المطلق منه، وقد شبّ كالموج في تلك اللحظة، جعلني أمضي في تلمس شفتي بتحدّ سافر. لقد آن الأوان. ذلك هو الطريق الأقصر للطلاق.

انتهى. لا بد من الخلاص، وقد دقت ساعته.

هيأت نفسي للاعتراف.

وقف ورائي وأخذ يعاين وجهي بفضول. ابتسم ابتسامة خفيفة، لكنها كشفت عن اللثة الكاوتشوكية تلك.

كنت قد صرت خشبة وأقلام ديناميت عندما تكلَّم. بوداعة، بالابتسامة نفسها، هتف كمن يتبجح أنه عرف الحقيقة بشطارته: «كنت تستحمّين، ووقع فمك على طرف البانيو!» انتظر قليلاً ليعرف ردِّي. وكنت ماأزال خشبة وأقلام ديناميت. «صار لأسنانك شيء؟».

لماذا لم يخطر لعبد الصمد أنني يمكن أن أخونه؟ أهي ثقة بالنفس، وحسب؟ كل نساء الأرض اللواتي في وضعي يخنّ أزواجهن. إن لم يكن في الفعل، ففي التصور ـ والفاصل بين الفعل والتصور مجرد فرصة تتيحها الظروف. أتراه فعلاً يصدق حكاية الشرف هذه؟ حتماً لا. لأن أكثر الرجال إصراراً على الشرف (خالي وأبو بشير مثلاً) هم أكثر الناس شكاً في سلوك المرأة. أم لعلها ثقته المطلقة في فاعلية غسيل الدماغ الدؤوب الذي مارسوه عليّ منذ الرضاعة؟

مثلما مضى كل شيء آخر من قبل، مضت خيانتي لعبد الصمد. كل عقدة متأزمة، تنحل. كل مشكلة مستعصية، كل رعب طاحن، كل جسامة خطيرة، يمكن أن تنطوي بيسر

في تلافيف الحياة اليومية والاهتمامات الآنية: «ماذا طبخت لنا؟ بامية! أمْ! تحبها البنات».

عندما قادني إلى الفراش بعد يومين، قادني إلى الرعب. كان مستحيلاً ألا يكتشف أسرار جسدي الأخيرة. إنه يعرف جسدي بالخلية والسَّم. وسيلمسه ويشم ما هطل فيه من الكيمياء. وائل عرف أسراره بعد لقاء واحد: «أنت ما زلت عذراء يا ست أم عبد الرحمن» قال لي.

ـ «هل سيعرف عبد الصمد أنني لم أعد عذراء؟».

خير طريقة لمواجهة ذلك الرعب كانت في أن أتجاهله: فليكن ما يكون. لو تركوني وحريتي لأمكنني العمل وكسب العيش بنفسي، فلا أضطر إلى عبد الصمد هذا وبيته وفراشه. أحسست بالقوة.

تمددت على السرير خشباً وأسلاكاً. خشباً، بسبب الاشمئزاز والمهانة. أسلاكاً، بفعل كهرباء الرعب. لكن عبد الصمد وجدني لحماً ومراعي. بدأ يغرفني كما يفعل كل مرّة. وكلما غاص فيّ، أهلكَ كومة من رعبي. لم أصدق. ازددت توتراً، لأن الدهشة اندغمت في فلول الرعب، وتحولت إلى حس فظيع فائر بالإهانة.

بعد ثوان أحسست أن جلدي يتغطّى بالنمل والعلق. وأحسست ببساطة أنني لا أريد عبد الصمد أن يعانق جسمي، وأنه إذا لم يتوقف ويَهْوِ عني فربما قتلته. صرت أتقطع. هذه

الخلايا وهذه المساحات ليست له. وأنا لا أريد، لا أريد. هذه الخلايا وهذه المساحات استنشقت حياتها لأول مرة مع وائل. تحررت وصارت لي. وهي لا تريد الآن أن تستنشق موتها مع عبد الصمد. هذا حرام. هذا غير ممكن. هذا مستحيل. يا رب! وفتحت فمي لأصرخ. أردت أن أستنجد بالعناصر، لأن عناصري كانت تنسحق. امتلأ حلقي بصوت داوٍ. . وامتلأ فمي بقبضتي.

في اللحظة الأخيرة كتمت ذلك الصراخ. سددت فمي بقبضتي وكززت أسناني عليها، وراح جسمي يرتفع لعل عبد الصمد يسقط عنه ويوقف المجزرة، وراحت أسناني تكز، وأجفاني تدخل في مقلتي، والدموع تنفر من بينها، وأسناني تكز، وحشرجة حلقي تخنق لغتي، وروحي تفتح يديها نحو السماء.

مر كل شيء بسلامٍ. بلا تعليق. وبقيت وحدي أمام موج متلاطم يدوخني عالياً ويغرقني هاوياً. وكانت الهاوية تهوي أعمق وأعمق كلّما هبط الموج إليها. فهذه المدينة التي أحببتها، التي شربت مثلي من ماء نهر أحببته، خوت تماماً من كل فرصة عمل لي. أصحاب المشاريع الصغيرة، ماذا يفعلون بمبتدئة مثلي؟ والدولة متخمة بالموظفين ولا تريد زيادة في ترهّلها. وأمّي وأخي وخالي وعمّي بدوا أناساً غرباء، من كوكب آخر، غارقين فيما هو منفصل تماماً عن لوعتي وعن حيرتي بين رجلين وبين حياتين.

وأم بشير تواظب على همساتها المندهشة اللاعنة ضد أم طاهر. وأم طاهر سعيدة بزوجها وغيره. وترعبني حتى القرف. وميَّاسة تجد متعتها في استنفارنا لعمل جماعي كي نهيّىء مؤونة الشتاء من الخُضَر في الوقت المناسب. «ثلاثين كيلو بازلاء اشترى، واليوم جاء بالكيس الثاني! الأولاد يحبونها يا أختي!» ورباب تحكي لمجلسنا الأحاديث التي تدور كل يوم في مجلس معلمات المدرسة القريبة من حارتنا... وأنا أحاول قراءة قصص النساء اللواتي دوّمت بهن الظروف مثلي، فأقع على روايتي (مدام بوفاري) و (آنا كارنينا)...

وماذا أيضاً؟

التقيت بوائل. شرحت له العذاب والقرف والرعب التي تأتيني سيولاً سيولاً في ذلك الفراش. كان مندهشاً بالكامل. صمت وأخذ يحملق في وجهي، كمن أراد أن يتمثل المفاجأة جيداً، أو يجد طريقاً مقبولاً لتصديقها. قلت له إني أكثر من مرة هممت بالصراخ: لأمنع عني عبد الصمد بالدرجة الأولى فقد كان يفرم لحمي؛ ولأسأله إن كان لا يحس، وأحكي له القصة كلها فأنزلها عن كاهلي وأنزله عن جسمي، وليكن ما يكون. «مع أنه لا يترك فرصة إلا ويقول لي: زنودك ضخمة! صدرك صغير! ظهرك ضيق! حوضك ضخم!».

ضحك وائل غصباً عنه. وأشعل سيجارة.

ـ «لماذا تضحك؟ وكيف تراني أنت؟».

ـ «ماذا يعني، كيف أراك؟ أنا لا أراك. أنا أحبك».

ـ «قصدي، جسمي. صحيح، مثلما يقول عبد الصمد؟ كيف تراه أنت؟».

ارتفع حاجباه بالدهشة وانفتحت عيناه: «أما أسئلة! زنودك! وظهرك! وصدرك! كيف أعرف أنا؟».

ـ «كيف لا تعرف!؟» صرخت وأنا أفور من الإهانة. «يعني، أنت نمت معي وبس!».

ابتسم بهدوء: «أنت مجنونة حتماً. أنا أحببتك أنت بالأول. لم أكن مطلعاً على جسمك. أحببته لأنني أحببتك أنت. أنا ماذا يهمني من شكل جسمك؟».

ـ «ها، ها! ويقولون وائل الغانم غير رومنتيكي. طيّب. قل لي الآن، ما رأيك بجسمي؟».

برم رأسه جانباً كمن يستنجد بأحد ما ضد إلحاحي. ثم التفت إلي متغير السيماء. نهض. جلس إلى جانبي. مد يده إلى بلوزتي. «وائل!» صرخت به. توقفت يده. نظر إلي مبتسماً. «تسألينني أسئلة، بشرفي لا أعرف الجواب عنها. لذلك أريد أن أعرف». التقط زندي وقبلني فجأة. مد يده إلى البلوزة. «سأزعل منك!» همست له. «وأنا سأزعل منك إذا حرمتني من الأجوبة».

ومع ذلك لم يستطع أن يجيبني. مرة أخرى تضاءلت مشكلة تعصف برأسي وسلام روحي، وتوارت أمام لمسة. لقد

أمطرته بالأسئلة لأزداد يقيناً ـ وسعادة ـ بأنه ليس لديه أجوبة. أحبني مرتين يومها. وارتحلت إلى حيث لا ترتحل أم طاهر ولا غيرها. ومع ذلك، وبعد كل شيء، قال متلعثماً: «زنداك مليئان، صحيح، ولكن غنيان ومدهشان. ويمكن صدرك صغير. ويمكن هنا أفضل. لأنك هكذا تلتصقين بي أقرب وأكثر». وقبلني ليؤكد لي صواب رأيه، فكتم أنفاسي.

وماذا أيضاً؟ ماذا بعد؟ كل أسرار الحب عرفتها، ولن أبوح بها. ولكن، ماذا بعد؟

مرة أخرى عدت إلى البيت بذلك التوهج والانتشار اللذين عدت بهما في المرة الأولى. وبالنشاط أيضاً. أعددت الطبخة ووضعتها على النار. مسحت البيت. رتبت الغرف. جلوت الأواني. رغم تعبي، أحسست بفيض من القوة ينبع من مكان مجهول، ويدفعني إلى الحركة. حتى سمر وسحر تركتا دروس الروضة وراحتا تركبان على ظهري فأمشي بهما في طول البيت وعرضه.

ـ «يا رب يديم عليك هذه المحبة! وهذا العقل!» هتف عبد الصمد وهو يفتح يديه نحو السقف ويرفع حاجبيه.

جلست على الكنبة. لا، هذه المرة لم أر أني هاربة من تذكر الحب الذي عشته. بالعكس. كنت أحمله في واعيتي طيلة الوقت. وكنت واعية بفرحه الذي يشحنني بالقوة، رغم أن صاحبه قد هدّ بعناقه بدني.

لم أقرر شيئاً. إنما خمدت خلال بضع دقائق. أحسست أني متعبة، ولا أريد أن أفكر، وأن القيلولة هي أفضل عمل أقوم به.

مرت القيلولة وجاء المساء. ناديت سمر وسحر من الحارة، فعادتا. أطعمتهما عشاءهما ثم «يا الله، كل واحدة إلى سريرها».

كانتا سعيدتين يومها. كل ذلك النهار والمساء وهما تريان كم أحبهما، وكم شيءٍ أفعل لأجلهما. وفي الفراش جلستا على سيقانهما واشرأبتا نحوي. رفعتا أذرعتهما، وكوّرتا شفاههما. طأطأت أقبلهما فتعلقتا بي من الكتفين: «ماما، نامي معنا اليوم. الله يخليك».

تمددت بينهما على الفراش نصف تمدد، وأحطت كل واحدة منهما بذراع. التصقتا بي دونما حراك، كل منهما مرسلة ذراعها على بطني.

بعد قليل غمغمت سمر: «ماما، أنا أحبك»، وانزلق ذراعها عني فلم ترفعه. وكانت سحر قد أغفت دون أن ينزلق ذراعها.

كنت متهيئة تماماً لعبد الصمد عندما جاء. لم أغادر السرير رغم نوم الابنتين. سمعت صوت انفتاح الباب وانغلاقه. ثم الخطوات الخفيفة المتأنية تبحث في البيت والبلكونة. ثم رأيته يقف في باب الغرفة.

هذه المرة لم يكن أثر للمزاح في حركته عندما رفع يديه ووجهه إلى الأعلى وهتف: «يا رب! أدم عليها هذا العقل وهذه المحبة! يا رب!» ومضى إلى المطبخ ليتعشى.

كنت على الشرفة عندما أقبل من جديد. رغم أن شرفتنا لا تطل إلا على النجوم، فعبد الصمد يعتبرها مكاناً مفتوحاً لا بد فيه من الحشمة المطلقة. وقف في بابها، وأسند يديه على الدرفتين. «أنا منتظرك في الفراش»، قال. تلكأ قليلاً، وقفل إلى غرفة النوم.

ذكّرت نفسي أن أشياء أفظع من هذه الليلة بكثير قد حدثت من قبل - زواجي نفسه، وليلة الدخلة، وكل ليلة بعدها، وألف نهار كالح، وجسدي الذي أوشك يخذلني ذلك اليوم ويستجيب لعبد الصمد.

قلت إنني يجب ألا أضعف ولا أتهاون، إذا اجتزت هذا الامتحان تحققت لي سعادة آنا كارنينا وسرّية إيما بوفاري. لقد ابتلعت حتى اليوم مئة ألف غصة، أفلا يمكنني أن أبتلع غصة الأفعوان. نصف ساعة وينتهي الأمر. وبعدها أعود بروحي وجسدي إلى وائل.

وحقاً فقد انتهى الأمر بخمس وثلاثين دقيقة. كان عبد الصمد مندفعاً إلى درجة أنه لم يتوقف إزاء انسدادي عنه. تلك هي سعادته. وقد امتلك النشوة العظمى لحظة أحس

بالرطوبة واللزوجة في الخشب والأسلاك. وكان هذا أعظم رضاه. نهض عني للتوّ ومضى إلى الحمام.

أسرعت إلى الباب، وترسته من الداخل. عدت وهويت على السرير. أخذت أعضّ على قبضتي وأبكي. بكيت بكيت. وغارت أسناني في قبضتي. ناديت أبي، وصرخت، وصحت، وخاطبت من لا أعرفهم وقلت لهم إني ضعيفة ومستباحة وأريد حقي في الحياة. قلت لهم إنني لا أستطيع، لا أستطيع. ناديت وهتفت. استجرت بمن لا أعرفهم وقلت لهم إني لا أتحمل كل هذا وإني أريد حياة بسيطة بلا تواترات ولا سيول ولا مستنقعات، مجرد حياة عادية تعيشها أية امرأة، أية تربة، أية شجرة! أنا لم أسمع بشجرة يكون سمادها رصاصاً وزرنيخاً. ولا بتربة تسقى اليانسون بدل الماء. ولا بامرأة تعاشر هذا اللارجل.

قال وائل: «أنا شايف، أنت تصعّبين الأمور على حالك. لا تأخذينها بالراحة».

قلت: «جسدي لا يقبل. جسدي يئن. وعقلي لا يقبل. لا أقدر».

قال: «العالم كله أقرّ التعدّدية في هذه الأيام».

ضحكنا. قلت: «أنت فاضي الأشغال، ولا يهمك».

قال: «وأنت مليئة الأشغال وبلا طعمة. وأشغالك كلها

أيديولوجيا، ما شاء الله. مع أنك شايفة! الأيديولوجيا، خلص، فركشت. انهارت. وأنت تتمسكين بها. تتمسكين بأسوأ أنواعها: أيديولوجيا المجتمع البطركي...».

هتفت مقاطعة: «كرمى لربك. دعني من أفكارك هذه وشف لي حلاً».

قال: «أفكاري هي الحل. أنت تعملين حريتك عاراً. وتعملين قيودك مُثُلاً علينا. إذا كنت مصرّة أن تكوني دونّاكيشوتا، ستقضين علينا».

صحت بانفجار: «وائل! أنت تقبل أن أنام مع عبد الصمد؟».

قال: «سلمى، أرجوك. حبيبتي، اعقلي شوية. أنا لا أقبل بهذه الحكومة التي تحكمني. ولا أقبل بالعم سام. ولا أقبل بأشياء كثيرة. هل أفقد عقلي لأني لا أقدر على التخلّص منها؟ العالم مرتّب وخالص. ولا أحد يستشيرنا في ترتيبه. حاولنا أن لا نقبل فسُحقنا. أنت وأنا شخصان مهزومان. أرجوك، لا تسأليني أسئلة. ليس بيدي أن أقبل أو لا أقبل. لنأخذ هذا العالم مثلما نجده».

ـ «أنت لست وائل القديم». صحت ملتاعة.

ـ «طبعاً أنا لست وائل القديم. وإلا لماذا حدث الذي حدث؟ كان يجب أن نكون متزوجين، ولنا أولاد، ونصير أسرة

مختلفة. كان يجب! النتيجة؟ نحن لا نملك أنفسنا. نظامنا الاجتماعي يملكنا».

ـ «أنت تدوخني أكثر فأكثر»، هتفت بيأس. «ماذا نعمل؟».

ـ «بخصوص؟».

ـ «وائل! تراني في هذه الجهنم، وتسألني بخصوص؟».

ـ «أنا لا أرى أننا نسيء إلى أحد. ولا نسلب حقاً من حقوق أحد. هذا حقّنا...».

ـ «عدت تحكي في النظريات والأفكار».

ـ «هذه على الأقل أفكاري الشخصية. لكن إذا كنت تشعرين فعلاً بالولاء لعبد الصمد بوفرنين، فأنا لا محلّ لي في حياتك».

ـ «لا أشعر بالولاء له. لكن أنا مجبورة به. أنا امرأته. وربة بيته. وأم أولاده».

ـ «لا نقول شيئاً. كوني هذه الأشياء الثلاثة. وإذا زاد في شخصك شيء، إذا زاد في حياتك شيء، فهو لنا كلينا. عبد الصمد لا ينقصه شيء. ولا يحسّ أنه ينقصه شيء. ولا البنتان. لماذا ترهقين روحك بما لا يشكون منه؟».

ـ «لأن لقاءنا غلط، غلط»، صحت به.

ـ «سلمى. بقي في حياتك وحياتي هذا الشيء الجميل الوحيد. تريدين أن تشاركيهم في إعدامه؟».

رأيته حزيناً ويائساً. ورأيت أني أمسك فأساً وبها أهدمه. أقبلت إليه ووضعت ذراعي على صدره. أجهشت. «سامحني. سامحني. في داخلي سلمى غير سلمى التي تكلمك». ألقيت برأسي على صدره وأجهشت: «أنا لا أقدر. لا أقدر. هم أرضعوني هذا العقل. هذه الطبيعة»...

ولم نستطع طبعاً أن نجد حلاً للمشكلة. من نحن حتى يمكننا أن نجد حلاً لأية مشكلة؟ فعلاً مثلما قال وائل: هذا العالم مرتّب وخالص، ولا أحد يستشيرنا في أموره. حتى هذا الحب يمكن أن يختنق بمجرد إعادة ترتيب الظروف. إذا اشتغلت ذات يوم فلن أجد وقتاً لملاقاته. سيسألني كل إنسان، وتسألني كل عين: إلى أين أنت ذاهبة في هذا الوقت، وأنت مفروض أن تكوني في البيت؟ أنا لا أقدر أن أبتكر حججاً وادعاءات مثلما كانت مدام بوفاري تفعل.

قال وائل إن هذا لا يهمّ. سيكفي أن يعرف كل منا أن في هذه المدينة شخصاً يحبّه، ويفكّر فيه ويتمنى لقاءه. حتى ولو لم نلتق. فنحن ملتقيان. ثم، من قال لك إن العالم سينغلق بوجهنا مثلما تتصورين؟ خليك حرة الخيال. لا تعتقلي المستقبل.

ـ «مستقبل!» هتفت وأنا أنشم دموعي من أنفي. «أي

مستقبل؟ واحدة مثلي ما لها مستقبل. ثم فتحت يدي كمن تحسب حساباتها: «عبد الصمد لن يطلّقني. إذا طلّقني سيذبحني أخي أو خالي. وأنا لا أشتغل. وإذا تزوّجنا.. مستحيل، مستحيل. الناس لا ترحم. وأنت؟ لا أعرف إن كنت ترضى بالزواج. وحتى لو رضيت، من يضمن أن الزواج لن يميت حبّنا؟».

قال وائل: «سلمى. أنت لست سلمى التي أعرفها. أنت سلمى مرعوبة، مضطربة. خذيها بسهولة. نحن لا نقدر أن نصارع. لكن نقدر أن نحتفظ بما لدينا. هذا لن نفرّط فيه. وهو الحب. هل نفرّط به؟».

طبعاً كان رأي وائل وموقفه مستحيلاً. لكني استمررت معه. أنا أحبه. إذا أراد شيئاً فيجب أن ألبّيه وأحقق له ذلك الشيء. لا جسدي يمكن أن يتأبى عليه، ولا روحي يمكن أن تهجره، ولا عقلي يمكن أن يغالطه.

إنما، هل أنا أحبه حقاً؟ أنا لا أعرفه إلا قليلاً. وهو ليس زوجي، ولا هو أبو أولادي. أهذا حبّ أم خراب بيت وازدواجية وضيعة؟ أم لعلها شهوة جنسية قديمة؟

مضى الصيف وجاء الخريف ونحن معاً. أوقاتنا هي الأوقات. وحبنا هو الحب. ولقاؤنا هو الأمل. ووداعنا هو الرضا.

لكن هذا الزمن الأسعد كان الأشقى أيضاً. تلك الأربعون دقيقة التي كان عبد الصمد يستلّها من جسدي، صارت أكثر فأكثر استحالة. أنا لا أعرف كيف كانت آنا كارنينا تعاشر زوجها. بالنسبة لي، تلك الدقائق الأربعون كانت دماراً كاملاً. كان علي أن أتحمل من جديد شقاء الليلة الأولى وعذابها، واشمئزازاتها وإقياءاتها. وصراخ جسدي المستنجد المستغيث. يد عبد الصمد الممتدة. جسمه الممتد. أفعوانه. كل تلك السحالي والأخطبوطات التي بتّ أقرف منها حتى الإغماء بعد التقائي بوائل. ولم يكن لي غير جلد واحد. وكان وائل قد لمسه ومسح عليه.

أشد الحالات سوءاً كانت تلك التي تجيء مع الأيام الأخيرة للدورة. توقّف الخصوبة كان يعطي عبد الصمد الفرصة لعركي وتلويثي حتى النهاية. فإما أجدني وقد أطيح بي في مستنقع، وإما أجدني أتهدّج وأنفعل بينما أنا أنحقن. كان يقتلع عن جسدي الأوراق الهفهافة للفرح والانتشاء التي نبتت بعد أن أمطرني وائل.

وكان وائل يقتلع الصباريات الهائجة والأعطان السامة التي خلفها عبد الصمد في عروقي ومسامّي. مرة واحدة فقط استطعت أن أفرح به منذ اللحظة الأولى. المرات الأخرى كانت على الدوام انتظاراً مستجدياً مريراً للحظة التي يتطهر فيها بدني من انحقاناته ومن دبق عبد الصمد ونفثاته، كي

أتواصل مع وائل. وكان هو يصبر. يمددني قـربه على تلك الصوفا، ويروح يمسّد على جسدي كأنه يكشط عنه وشلاً، يغسله، وكأنه يطهّر روحي. لم يستعجلني أبداً. ودائماً أنتظر لحظة انطلاقنا معاً.

ولكن كيف بوسع امرأة أن تتطوح بين السمّ والترياق؟

وإلى متى يظل هذا الجسم يتحمّل فلا يتعطّل؟

وإلى متى أجيء إلى وائل لأحكي له عن هذا العذاب وهذا الألم، وأجعلها المرة الأخيرة، ثم أجد أنها المرة قبل الأخيرة؟

إلى متى أقبـع في الأمكنة الميتـة، المندرجـة بين سريـر عبد الصمد وصوفا وائل؟ إلى متى أتلفلف بالذهول، وأظـل مرعوشة بالرعب، أو مطروحة بالوجع، أو غائبة في الفرح، أو غارقة في القرف؟

إلى متى ينقرض زمني ووعيي بين ساعـات وائل ودقـائق عبد الصمد؟

إلى متى تضيع سلمى بين سلمى وسلمى؟

جاءتني.. جاءتني الأجوبة بصورة قاصمة تماماً. المعادلة السكونية التي أنشأها وائل، انهارت. لأن الواقع لا يمكن أن يبقى كما هو. إما أن ينقص وإما أن يزيد.

أواسط الخريف لم تأتني الدورة الشهرية. وقد حدث ذلك

من قبل مرة واحدة: عندما حملت بسمر وسحر. ولم أكن متشككة أبداً في والد الجنين. عرفت أننا سنختلف، أنا ووائل، ولم أكن لأقبل بإيلامه ولا بمشاريعه. وهو لن يتخلى عن.. ولده. وأنا لن أبقي الولد.

مضى يومان آخران والدورة ما زالت متأبّية. الهلع الذي أصابني في البداية، صار الآن رعباً. رأيت أنه لم يعد فرق بيني وبين أم طاهر. فقط هي مرتاحة البال وأنا محترقة الخاطر. تساءلت كيف تتخلص هذه المرأة من ورطاتها الشبيهة بمصيبتي. وتساءلت كيف تنظر أم بشير إلى بطني وهو يكبر وينتفخ. وكيف ستنظر رباب ومياسة. كلهن سيعرفن الحقيقة.

وكيف سأنظر أنا؟ كيف سأرى الطفل يكبر حتى ينادي عبد الصمد: «بابا»، بينما أبوه هو وائل؟ كيف سأسمح بتغطية هذه الجريمة؟ كيف سأحملها وأعيش معها يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة؟ ستصير حياتي جهداً عصبياً لا ينقطع لكي أخفي سراً رهيباً.

لكن الشلل الشامل الذي أصابني، أطلقته فكرة: أن يجيء الولد وهو شبيه بوائل. وعبد الصمد سيعرفه. إن لم يعرفه عاجلاً، سيعرفه أجلاً. إن لم يعرفه وهو ابن شهور، سيعرفه وهو ابن سنين. فأية حياة ستكون حياتي وأنتظر بين الصبح والمساء أن تنكشف الجريمة؟ إذا فشا هذا السرّ، ماذا أنت فاعلة يا سلمى بنت محمد بوشهده؟ ماذا أنت فاعلة؟ ومن أين

لك المال كي تجهضي؟ وماذا سيحدث للولد إذا هو عرف؟ وعندما يرفض عبد الصمد قبوله ابناً؟ وعندما تنفضحين في الحارة والمدينة كأم زانية؟ ومن أين المال، من أين المال؟..

أسئلة وأسئلة. وعجز مطلق عن الأجوبة. لن يكون الأمر أقل من مأساة وفاجعة. يجب أن أخلص من الولد حتماً. ولكن كيف أخبر عبد الصمد؟ سيكتشف زلتي من عيني. ولن يصدق أني حملت منه، بينما أنا أمنعه من القذف. على وائل أن يخلصني. عليه أن يجد طبيباً يقبل بإجراء العملية دون حضور زوجي... يا إلَهي! كيف سيمكنني أنا أن أمضي في هذه الأهوال؟ وبعد العملية، كيف سأتمكن من الحركة العادية الطبيعية؟

كانت الشمس توشك على المغيب. جلست على الشرفة أراقبها. أردت أن أحس بالضوء قبل أن يطبق عليّ الظلام. ناديت سمر وأرسلتها إلى أم بشير. لكن أم بشير كانت مشغولة بضيوف مفاجئين. أرسلت وراء عاتكة. ثم وراءهن كلهن. جاءت أم طاهر.

«سلمى، حبيبتي. وحياة عيونك الحلوة أنا مشغولة. لكن أنا فهمت شعورك. أبو طاهر عازم اليوم كل جيرانه للعب الطاولة. وأنا لازم أبيّض وجهه. لكن أنا أحسست بك. المغيب بأوله حلو وبآخره عكر. والعتم بشع. تعالي حبيبتي

معي. أعمل لك دلّة نسكافيه مدلّلة. ونقعد معاً في المطبخ. تعالي!».

وضعتني كلمات أم طاهر في عالم آخر. نظرت إليها وعقلي سادر في بحر من العجب. لم أقدر أن أتغلب على نفوري الشديد العميق منها. لكن سلمى أخرى تمكنت مني في تلك اللحظة، وأقامتني عن الكرسي. وضعت يدي على مرفق أم طاهر، وقبلت خدها بامتنان. وأقسمت «والله لولا البنات وأكلهن ونومهن، كنت جئت».

التفتت هي إلى سمر وسحر وقبّلتهما. «حبّوباتي! نغنوشاتي!» هتفت لهما «يا أرض احرسي ما عليك!» والتفتت إلي. شدت على ذراعي: «طيب حبيبتي. أنا لازم أروح. بخاطرك بكرة، الصباحية عندي. باي باي».

رأيت خطواتها، وأنا أمشي وراءها للوداع، عادية جداً. لم تكن خطوات حذرة، مترقبة، متكبرة، كخطوات نساء مدينتنا، وإنما متتابعة ببساطة وتلقائية. غير أن هذا الاكتشاف لم يغير من الأمر شيئاً. فعندما تنتقل هذه البساطة والتلقائية إلى تعامل أم طاهر مع الرجال، يصير لها معنى مختلف. معنى ممجوج ومنحطّ.

في الصباح الباكر ركبت الباص وهبطت إلى المدينة. حملت زجاجة البول الصغيرة إلى المختبر، وأخبرت الرجل ذا

الياقة البيضاء أني مستعجلة جداً. «الساعة الواحدة والنصف»، قال ببرودة حِرَفِيّة.

مشيت إلى المحل. استقبلني وائل ببشاشة. صبّ لي فنجان قهوة ووضعه بين يدي. وقفت أمامه وبيننا المنصة الزجاجية وضعت يدي عليها، وتشابكت أعيننا. «قبل كل شيء، يجب أن أطلعك على مشكلة». وحكيت له عن الخوف العاصف في نفسي من أن أكون حبلى.

رأيت في محجريه مقلتين زجاجتين خاثرتين. أما أنا فرحت أتناثر من الداخل وأتبعثر.

- «تريدين قتل الولد لسبب اقتصادي، أو لأنه ابني؟».

هممت أن أقول إن السبب اقتصادي، لكني لم أفعل. تابعت حملقتي بوجهه. هز رأسه ببطء، وعيناه تزدادان تفحصاً لي.

- «بالأمس ظننتك موافقة على كلامي. عندما رجوتك أن نحافظ على الذي لدينا. إذا زاد الذي لدينا ولد، فما المانع؟».

- «ولد، ويكون ابن حرام!؟».

- «الولد ولد! هو ابن الحب لا ابن الحرام. فكّري كم سيجعل حياتنا حقيقية وجميلة ومتصلة. سيكون رمزاً وحقيقة.

أنا لا أفهمك. كل امرأة في هذه البلاد مستلبة. إلا أنت. أنت تسلمين نفسك للجلّاد.»

ـ «غير صحيح!».

ـ «جاءتك الفرصة لتنتصري. لتزرعي في قلب حياتك الصدق الوحيد الذي بقي لك. ماذا جرى لك؟ ماذا فعلوه فيك؟ لماذا أنت مهزومة إلى هذا الحد؟ لماذا تريدين قتله؟».

ـ «أرجوك لا تقل: قتله».

ـ «ماذا أقول إذن؟».

نظرت إليه مذعورة، غارقة في مستنقع من الدهشة. كل شيء بي تخثّر. وخرج صوتي مبحوحاً: «أنت وائل لا أعرفه. ولدك، وترضى أن يراك فلا يعرفك؟ وأن يقول لغيرك: بابا؟».

ـ «سيكون هو سعيداً. وأنا، هذه لن تكون مأساتي الوحيدة. لكن لن أقبل بقتل الولد لهذا السبب».

ـ «ما زلت تقول: قتل؟».

ـ «متأسف. هو هكذا بالنسبة لي. لكن، أرجوك. خلّينا نتكلم في دوافعك أنت».

هتفت بعدوانية وفُجر: «أنا ما عندي دوافع! كفاكم تسلطاً علي! أنت: تريدني بطريقة. وعبد الصمد: يريدني بطريقة. وأنا: لا أعرف ماذا أريد. حلّوا عنّي يا أخي! ريّحوني! أنت

هوهو! أنا لا أقدر. تحملت كل شيء، لكن هذه الحالة، لا. ذات يوم ستنكشف الحقيقة. أنا يمكن أن أكشفها. خاصة إذا كان شبيهاً لك. وسيعرفونه».

ـ «أنت سلمى لا أعرفها. لكن الآن أفهم لماذا انهارت الكومونة. ولماذا انهار زواج هاشم ومنيرة. ولماذا انهار كل هذا العالم الذي ظنناه مخلداً. كلام بشّار صحيح. صحيح».

ـ «وائل. أنا لم أجيء لأسمع محاضرات. ولا تحشرني في موقع الاستجداء. أنت تعرف، الذي تقوله نظريات. وهو ضد كل ناموس بشري. وضد كياني ووجودي. ولا تقل لي: عبد الصمد سيحب الولد. . .».

ـ «حب الأولاد، كله عشرة، لا فيزيولوجيا! كم تحبك أمك وكم تحبينها؟».

أطرقت. تناولت الفنجان وجعلت أشرب منه. بعد قليل سألته بهدوء: «وإذا تخلصت من الولد، أنت ستتخلص مني؟».

ـ «أنت مجنونة! أنا لست من أهل الثواب والعقاب».

نظرت بما يشبه الوداع إلى الأشياء الصغيرة المنمنمة، الحبيبة، المصفوفة هنا وهناك، واللوحات والإطارات. ملأت حلقي غصّة. أدرت ظهري لوائل وخرجت.

هبطت إلى مركز المدينة. تسكعت طويلاً. تمنيت أن

أجلس فيٍ إحدى الكافتيريات، لكن ثمن فنجان القهوة هناك كان مرعباً. ولم أكن بحاجة إلى مزيد من الرعب. هذا الرعب الذي تجسّد في صورتين رئيسيتين: رحمي، ووجه أم طاهر. أنا لست إنسانة متطيرة، أو ضعيفة الأعصاب. كل ما في الأمر أن الكذب يتطلب مني قوة لا أملكها، مثلما أملك قوة التحدي، أو قوة الحب. أنا لا أملك هذه القوة لكي تنقذني في اللحظة الحاسمة.

لحظة حاسمة؟ ستكون هناك ملايين اللحظات. إذا جاء الولد ستكون حياتي كلها لحظات حاسمة. ولن يسعني أن أصمد. ستنشأ بي سلمى خامسة إذا صمدت. هي سلمى الكذّابة. وهي لن تنشأ لأني لا أستطيع مواجهة هذه اللحظات. ذات يوم سأنكشف. هذه مشكلة لا تقدر تفاصيل الحياة اليومية أن تزيلها. لذلك سيبقى الرعب. وسأغرق وأغرق في مستنقعاتي إلى حين تنفجر لحظة الفضيحة.

كان إجبارياً حسم الأمور، والوصول إلى بر الأمان خارج تلك البرك.

عدت إلى وائل. كان يحادث شابين يريدان شراء ألبومين. قبعت على كرسيّ في الزاوية الأبعد إلى أن خرجا. وعندها اتكأ وائل بمرفقيه إلى المنصة الزجاجية وأدار رأسه نحوي. لم يتسم. كان وجهه شاحباً حتى الهزال. وخليط شعره الأبيض والأسود مفزعاً. أحسست أني لن أقوى على الكلام. وتمنيت

لو يقول شيئاً يسعفني على النطق. لم يقل.

كان علي ألا أفقد الزخم الذي في نفسي. كان يجب أن أسرع في القول لئلا يظن أن الأمور ستعود إلى مجاريها. أخبرته أن هذا الحمل فتح عيني إلى أين نحن سائران. وتابعت فوراً الحديث: هذا القلق، هذا التوتّر، وهذا الرعب، والتشتت، وحالة الاندحار الرهيب التي تنيخ علي كلما أحبني عبد الصمد، وحالة القذارة والوسخ والدنس. نظرت إليه ملتاعة وقلت: «خلنا أصدقاء وبس».

قال بهدوء: «نحن فقط نأخذ حقنا في الحياة. ألا ترين أنه حقنا؟».

قلت باضطراب: «حقنا، وليس حقنا. وهذا العذاب!».

قال: «نحن لا نعتدي على أحد. فلماذا العذاب؟»

توسلت: «وائل هذه إمكاناتي. ذات يوم سنفضح وتكون النهاية. أو أحمل منك وتكون المأساة».

تمتم هو بخفوت: «ذات يوم، قبل حوالي تسع سنوات، حيّيت قفزتك من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية. ألا ترين الآن نفسك تقفزين عائدة إلى مملكة الضرورة؟».

تمتمت برجاء: «أقفز؟ أنا غارقة. لكن لا أقدر أن أكون لرجلين، وائل. لا أقدر».

ابتسم بمرارة: «وتختارين أن تكوني لعبد الصمد؟».

تنهدت: «ألا ترى؟ أنا مضطرة. لكن خلنا نجهض الجنين الآن، وبعدها نتكلم».

- «أنا أحبك وأنت تحبينني، والجنين ابننا. الآن نحن صرنا عائلة».

- «أرجوك وائل. إذا لم أجهض، ستكون نهايتي. وخلنا أصدقاء».

-«كيف يعني أصدقاء! واحد يتربع على قمة العالم، يطل منها على كل السعادة التي بقيت له، يقول: لا، أنا كفاني السفح؟ سأنزل إلى السفح! وربما إلى الوادي!».

- «يعني لن تقبل؟ إما أبيض وإما أسود؟» غمغمت برجاء أخير.

وغمغم هو: «أبيض أو أسود».

لم أكترث بمن دخل بعدئذ. ولكننا لم نتفق على شيء. لم نستطع حتى أن نناقش موضوعاً بعينه. هو يريد الحب وأنا أريد إجهاض الجنين. تودّعنا ونحن مختلفان.

كنت في غاية البؤس، حتى إنني نسيت مخبر التحاليل. مشيت إلى موقف الباص، وليس بيني وبين الموت غير شعرة. وفي البيت ارتميت على الأريكة، وأنا مستعدّة تماماً للموت.

جاء عبد الصمد، وجاءت البنتان. تذكرت مخبر التحاليل

وأراحني أنني لم أذهب إليه لأجل النتيجة. البقاء في الشك أروح من ذلك التيقن الرهيب. على الأقل، سأتمكن من متابعة التفاصيل اليومية، وأختبىء وراءها فلا يراني عبد الصمد. وهو لم يرني. سألني فقط لماذا أبدو متعبة.

في المساء جاءتني الدورة الشهرية. لأول مرة تأتيني بهذه الفجاءة. كنت في المطبخ، وفجأة أحسست أن بدني كله صار ماء، وأن الماء ينثال. مشيت إلى الحمّام، وهناك تأكدت. هويت على ركبتيّ، وغمرت وجهي براحتيّ. وعبرت بي غمامة. لا أدري نوع المطر الذي أمطرته. غير أني أحسست بعد ثوان بارتصاص متين في بدني، وبخروج من كل أمكنتي إلى مكان آخر، ومن كل أزمنتي إلى زمان آخر. وإذ رفعت وجهي أخيراً ضاءت في خاطري فكرة كالبرق: لقد أسلمت حياتي لصدفة.

لولا صدفة لقاء عبد الصمد ووائل لأجل الدكان لمات هذا الحب، ولما أحسست به. هذه الحالة الأصدق والأجمل، كان يمكن ببساطة، بفركة وقت، باختلال بسيط في تطابق الأمكنة، أن لا توجد على الإطلاق. بينما الرواسي العظيمة في حياتي هي هذه البحيرات المحيطة بي: بنتاي، بيتي، زوجي، أهلي، جاراتي، ومدينتي التي تضمّنا كلنا. علاقتي بوائل مسروقة، محمّلٌ فرحها بالندم، وراحتها بالقلق، وحقيقتها

بالرعب، وصدقها بالألم، وفوق هذا، قد يجيء ولد! وسيكون شبيهاً لأبيه لأنني أحبّ هذا الأب.

حبست نفسي في البيت خمسة وثلاثين يوماً. زارتني أم عبودة، وأولادها، وأولاد أختيّ، وأقربائي، وجاراتي. انصرفت بكليتي إلى شغل البيت، وإلى الأولاد، والزوج. وانتهت القصة. طبعاً هناك ألف تفصيل وألف حادث. لكن هذا كله لا يضيف شيئاً. لقد انغلقت الدائرة. هدأت السيول. رياح السموم والرياح الصرصر صنعت لها خيمة في داخلي، وخلقت لي مناخاً معتدلاً: قعدت في الوسط، إذا طلبت الصقيع ملت ذات اليمين، وإذا طلبت القيظ ملت ذات اليسار. وخير حالة هي عدم الميلان. أن أدور وأدور بحيث يتلقى جسمي من جميع الجهات ما يحتاجه من الحر والقر، ويتلقى من المستنقعات ما يحتاجه من الأبخرة ذات الحرارات المتضادة المتصارعة.

أما النهايات التي نقرؤها في القصص فهذه تلفيقات. الانتحارات المقرفة وما شابهها من فنون الموت، كلها كذب. لا أحد ينتحر. تموت البطلة مئة مرة، وتظل على قيد الحياة. لا تصدقوا المؤلفين الكبار هؤلاء. قمة المأساة في حياة نساء مدينتنا هي استمرار هذه الحياة. وليس انقطاعها. إنها تستمر وتستمر، ولا أحد يسمع بقصصها. لكن الاستمرار لا يبهج القراء. إنهم يريدون خاتمة تهز المشاعر، وتقنعهم أن وضعهم

أفضـل بكثير، ومختلف تمـاماً، لأن البـطلة انتحـرت لشـدة مأساتها، أما هم فمستمرّون في حياتهم ولم ينتحروا.

وأنا استمررت في حياتي. وكان أول شيء هامّ فعلته بعد استئنافي حياتي اليومية هو المقاطعة التدريجية لأم طاهر. كنت كلمـا رأيتهـا أحسست بنـوع من التسمم يتفشى في بـدني، وبحالة من اللاعقلانية تعصف بدمـاغي، كأن ريـاح السموم والصرصر قد وصلت إليه. وفي النهاية منعت سمر وسحر من اللعب مع بناتها.

هناك تفصيل آخر هو أن عقلي لم يعد يكوبس علي، وإنما يكتفي بصداع في الدماغ. إنه يريحني أسبوعاً كاملاً، وأحياناً شهـراً كامـلاً، فلا منغصـات ولا رجرجـات. ثم تـأتي تلك الأوقات القصيرة العصيبة، فأحس أن موقعي في الوسط بين الرياح والأبخرة الساخنة والرياح والأبخرة البـاردة قد تـزعزع بفعـل اختلال في حركة مناخي الداخلي. أحس أني أنقذف من أحدها إلى الآخر من وشم النار إلى بياض الصقيع. وأن مياهي الخضراء الراكدة قد أخذت تفور وأخذت تطلق حراباً من جليـد. وأبقى هكذا محـاصرة بـأنواع من الاضـطرابـات والوجع لا قبل لي بها، فأستسلم وأنطرح في فراشي.

تكرر هذا الحصار حتى أجبرني على استقصاء أسبابه. هو ليس قوة تضيق علي من الخارج. لقد أخضعت كل من حولي وما حولي لإرادتي بحيث صارت كلمتي هي العليا. إنه أيدٍ

وأذرع تمتدّ من داخلي وتشدّني إليها فتجعلني أتكوّر وأتضاءل، وتسحبني إليها حتى أتكدس بأجمعي كأنني عدت إلى رحم أمي، وتئنّ أعضائي من ضيق المكان.

وعندها طبعاً يحدث الانفجار. إنه مبدأ فيزيائي: الحصار يولد الانفجار.

فقط ذلك الصداع. إنه أشبه بكتلة تسقط داخل دماغي، تشقّه وترجّه وتموّجه. كأنَّ دماغي بركة ماء راكد لا تلافيف غضة جامدة. أحياناً هو أيضاً يبدأ من بؤرة، من مكان موغل، محاط بالعتمة، فيه عشيبات خضراء، وانعكاسات خضراء. وأنا يمكنني أن أرى هذا المكان، إذا حدث ولمع عليه ضوء من مكان ما. إن الضوء يصطدم بتلافيف الماء ويتبدد فيها.

ثم يكبر. ينشعب من تلك البؤرة ويشق طريقه في دماغي. ويصير كأن جمجمتي التي تتسع لحجم دماغ واحد مضطرة لاستيعاب دماغ آخر، لفتح أنفاق داخل دماغي الأصلي كي تمرّ فيها تلك الاستطالات.

لقد أعطاني الطبيب نوعين من الأدوية المهدئة. وصرت أحملهما معي أينما خرجت، أو أضعهما قرب رأسي عندما أنام.

لكنني اكتشفت بنفسي دواء أفضل. وإليكم خاتمة القصة:

بعد شهرين من عملية الإجهاض طلبني عبد الصمد

للفراش. لبّيت. دخلنا وتمددنا. وبدأ هو مشواره المعتاد. الإجازة الطويلة التي أخذها جسدي جعلته أنشط وأكثر تقبلاً. بسرعة نسبية جاءت الحالة التي تشغل الخيال والذهن على السواء. ورأيت خيالي يتسلل من الغرفة، قاطعاً كل صلة له بها. هذه المرة أخذ جسمي معه. من قبل كنت فقط أسرح بخيالي ومعه، من بقعة إلى بقعة، ومن النهر إلى المدرسة إلى الجامعة. كان جسدي يبقى كإحساس مبهم، ويحوم حول خيالي دون أن يقتحمه أو يختفي عنه.

هذه المرة أخذ جسدي معه. لم يكن المكان واضحاً. مجرد متكأ، أو مضطجع، ممدود في فراغ أصهب لا يوجد فيه أي جسم. ولم يكن الزمن واضحاً أيضاً. فهو ليس نهاراً ولا ليلاً. فيه من الضوء ما يكفي لظهور وجه وائل المشرق المتهلل، ويده المحبة المشوقة، وأن أراه متحداً بي في تلك الحالة، وأنا أخرج من قلب بركي المنغلقة لأتلقى رشّاته وحبوبه.

مع تزايد الحب الهاطل علي، صار الزمان أوضح: إنه يشبه الصباح، وصار المكان أوضح: إنه يشبه الأستوديو. وانتشر في جوانحي سلطان الجسد. فاض وهيمن. بقسوة وصراحة بالغتين، طرد حشوداً من الانتباهات بدأت تتقاطر نحوي في ذلك الفضاء. ولو لم يفعل لتمزق الخيال وتمزق الأستوديو. وهكذا صار ممكناً، لحظة سالت الرطوبة واللزوجة، أن أشد

وائلاً إليّ وأن لا أتركه إلا بعد أن يستنفد صدري شهيقه وضجيجه، ويستنفد جوفي انتفاضاته.

لم أسمح لهما بجولة ثانية. خوفاً من أن يصطدما، أحدهما بالآخر. بسرعة البرق علّبت رحلة خيالي تلك، وحفظتها. ومنعت تكرارها خوفاً من فشل المحاولة الثانية فشلاً يحطم الأولى.

لم يعترض عبد الصمد. رضي برغبتي عن طيب خاطر. كان طافحاً بالسعادة. لم يبد في أي وقت سابق أسعد مما بدا في ذلك الليل. لقد حصل أخيراً على ما ظل يحلم به تسع سنوات: أن أحبه، وأتجاوب معه.

ما إن نهض عبد الصمد وغادر الغرفة إلى الحمّام حتى نسيته تماماً. تحركت أحاسيس الانتشاء والارتواء والرضى تشق طريقها في وقت واحد، وتسرح وتمرح بين جسدي وخيالي وروحي. رأيتني أهوّم في فضاء بعيد، ورأيت ذهني خفيفاً، وأجفاني ثقيلة. وقبل أن يعود عبد الصمد كنت قد غفوت.

تحسنت تلك التقنية مرة بعد مرة. كل مرة كانت تصير أفضل من سابقتها، إما بالحذف والإلغاء (وخاصة لحضور الأداة في وعيي)، وإما بالاستحضار والتركيز. إن في داخل الإنسان طاقات ومقدرات هائلة. في داخله قوى روحية عجيبة في فعليتها. نحن فقط لا نستثمرها. إن بوسع كل إنسان

وكل امرأة الوصول إلى هـذه النيرفـانا الشبقيـة الرائعـة التي وصلت إليها. ليس هناك داع للانتحار.

باكتمال تلك التقنية سكنني وائل إلى الأبد. ليس لأحد أن يلومني. الجميع راهنوا على جسدي وأنا رميته لعبد الصمد. أما خيالي فأنا حرة فيه. كلما طلبني عبد الصمد، لبّيته. ثم ألغيتـه في البرهـة المناسبـة. واستحضـرت الـوجـه المتهلل المشرق. أودعته مكاناً لا تنـاله سلطاتهم. وسّـدته خلجـاني وجوارحي. حتى اليد التي تلمس خضعت لكيميـاء الخيال. حتى ذلك الأفعوان.

أحياناً ترفض طاقاتي الروحية القيام بوظيفتها. وعندها أتهدم وأرتمي بين الأبخرة والزمهرير. ويعود إلي انفجار الأدمغة. وما عدا ذلك فقصتي ماشية في مسار جديد. إنني حامل الآن.

١٩٩٢/١/٥

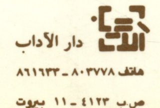


أمّا النهايات التي نقرؤها في القصص فهذه تلفيقات. الانتحارات المقرفة وما شابهها من فنون الموت، كلها كذب. لا أحد ينتحر. تموت البطلة مئة مرّة، وتظلّ على قيد الحياة. لا تصدِّقوا المؤلِّفين الكبار هؤلاء. قمّة المأساة في حياة نساء مدينتنا هي استمرار هذه الحياة. وليس انقطاعها. إنها تستمر وتستمر، ولا أحد يسمع بقصصها. لكن الاستمرار لا يبهج القرّاء. إنهم يريدون خاتمة تهزّ المشاعر، وتقنعهم أن وضعهم أفضل بكثير، ومختلف تماماً، لأن البطلة انتحرت لشدّة مأساتها، أمّا هم فمستمرّون في حياتهم ولم ينتحروا.





تصميم الغلاف: نجاح طاهر



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت